

رَسَائِلُ الْجَاهِظِ

وهي رسائل منتقاة من كتب للجاحظ لم تنشر قبل الآن

جمعها ونشرها

هـنّ التّنبّووي

وجعلها من لواحق كتابه «أدب الجاحظ»

جميع الحقوق محفوظة

يُطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها: مصطفى محمد

الطبعة الأولى

سنة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م

المطبعة الرحمانية - بمصر
شروع افونشن ٣٥ تيك ٥١٥٣٣



0197895

Bibliotheca Aegyptia

رَسَائِلُ الْجَاهِظِ

وهي رسائل متقاة من كتب للجاهظ لم تنشر قبل الآن

جمعها ونشرها

هَيْسَنُ النُّيُوبِي

وجعلها من لواحق كتابه «أدب الجاهظ»

الطبعة الأولى — جميع الحقوق محفوظة للجامعة

سنة ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م

يُطْلَبُ مِنَ الْمَكْتَبَةِ الْخَارِجَةِ الْكُبْرَى بِأَوَّلِ شَارِعِ عَمْدٍ عَلَى بَيْمَصَرِ
لِصَاحِبِهَا : د. ط. م. م.

المطبعة الرئاسية بمصر
شعبه النشر ٣٥ تموز ١٩٣٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي
العربي المين

وبعد فقد أشرنا في آخر كتابنا « أدب الجاحظ » إلى أننا سنلحق
به رسائل للجاحظ لم تنشر قبل الآن . وها نحن أولاء نحقق هذه
الإشارة ونقدم للقراء هذه الرسائل ، وهي متقاة من كتب الجاحظ
ومن كتب أخرى أكثرها في غير متناول الأيدي . وهذه الرسائل
في التاريخ والأدب والاجتماع والجدل . وقد ألحقنا بها طائفة صالحة
من رسائله الخاصة التي يسميها العرف « الاخوانيات » فجاءت
بمجموعة جيدة ترضى أهل الأدب وتشجع نهمة ذوي البحث ومحبي
الاطلاع . وقد كانت في أصولها المخطوطة أو المطبوعة كثيرة
التصحيف والتحريف والمسح والسقط والتشويه . ولهذا فقد
بذلت في تقويمها وتحريرها جهداً ألهه وحده هو المسئول عن جزائه
والمكافأة عليه وهو حسبي ونعم الوكيل ؟

عَمَّنِ السُّدُورِي

القاهرة في { ٢٩ مغرسة ١٣٠٢
٢٢ يونيه سنة ١٩٢٢ }

خلاصة كتاب العثمانية

قال أبو عثمان :

١ - قالت العثمانية : أفضل الأمة وأولاها بالإمامة ، أبو بكر بن أبي قحافة لإسلامه على الوجه الذي لم يُسلم عليه أحد في عصره . وذلك أن الناس اختلفوا في أول الناس إسلاما ، فقال قوم : أبو بكر ، وقال قوم : زيد بن حارثة ، وقال قوم : حَبَابُ بْنُ الْأَرْثَ . . وإذا تفقدنا أخبارهم وأحصينا أحاديثهم وعددنا رجالهم ونظرنا في صحة أسانيدهم ، كان الخبر في تقدم إسلام أبي بكر أعم ورجاله أكثر وأسانيده أصح ، وهو بذلك أشهر واللفظ فيه أظهر ، مع الأشعار الصحيحة والأخبار المستفيضة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبدوقاته . وليس بين الأشعار والأخبار فرق إذا امتنع في مجيئها وأصل مخرجها التباعد والإتفاق والتواطؤ . . ولكن ندع هذا المذهب جانبا ونضرب عنه صفحا ، اقتدارا على الحجة ووثوقا بالفلج والقوة ، ونقتصر على أدنى نازل في أبي بكر ، وننزل على حكم الخصم فنقول :

إنا وجدنا من يزعم أنه (يعني عليا) أسلم قبل زيد وحباب ، ووجدنا من يزعم أنها أسلموا قبله . وأوسط الأمور أعد لها وأقربها من محبة الجميع ورضا المخالف أن نجعل إسلامهم كل مكا . إذ الأخبار متكافئة والآثار متساوية على ما يزعمون . وليست إحدى القضيتين أولى في صحة العقل من الأخرى . ثم نستدل على إمامة أبي بكر بما ورد فيه من الحديث وبما أبانه به رسول الله صلى الله عليه وسلم من غيره .

قالوا : فما روى من تقدم إسلامه ما حدث به أبو داود بسنده ^(١) عن أبي هريرة ، قال : قال أبو بكر : أنا أحكم بهذا الأمر — يعني الخلافة — ألت أول من صلى ؟ !

وروى عباد بن صهيب عن يحيى بن عمير عن محمد بن النكدر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله بعثني بالهدى ودين الحق إلى الناس كافة فقالوا : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت .

وروى يعلی بن عبيد قال : جاء رجل إلى ابن عباس فسأله : من كان أول الناس إسلاما ؟ قال : أما سمعت قول حسان بن ثابت :

إِذَا نَدَّ كَرَّتْ شَجْوَا مِنْ أَخِي قَعَّةً فَادَّكُرُ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بَعَا فَعَلَا
الثَّانِي الثَّانِي الْحَمُودَ مِنْهُمْ وَأَوَّلُ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَقَ الرُّسُلَا
وقول أبي مخنف :

سَبَقَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ شَاهِدٌ وَكُنْتُ حَبِيبًا بِالرَّيْشِ مُشْهَرًا
وقول كعب بن مالك :

سَبَقَتْ أَخَا تَيْمٍ إِلَى دِينِ أَحْمَدٍ وَكُنْتُ لَدَى الْفِرَازِ فِي الْكَهْفِ صَاحِبًا
وروى ابن أبي شيبَةَ بسنده عن النخعي قال : أبو بكر أول من أسلم .

وعن عمرو بن عنبسة . قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقلت له : من يابعدك على هذا الأمر ؟ قال : يابني حر وعبد . فلقد رأيتني يومئذ وأنا رابع الإسلام .

قال بعض أصحاب الحديث : يعني بالحر أبا بكر وبالبد بلالاً .

وروى الليث بن سعد بسنده عن أبي أمية . قال : حدثني عمرو بن عنبسة أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقال له : من يبعك ؟ فقال : تبعني حر وعبد ، أبو بكر وبلال

(١) حذفت الاسانيد في كل الروايات إلا ما قرب منها

وعن أسيد بن صفوان صاحب النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما قبض أبو بكر جاء علي بن أبي طالب فقال : رحمك الله أبا بكر ، كنت أول الناس إسلاماً . وعن عكرمة مولى ابن عباس قال : إذا لقيتُ الهاشميين قالوا : علي بن أبي طالب أول من أسلم ، وإذا لقيتُ الذين يملكون قالوا : أبو بكر أول من أسلم . قال أبو عثمان : قال الثماني : فإن قال قائل : فما بالك لم تذكر علي بن أبي طالب في هذه الطبقة ، وقد تعلمون كثرة مقدميه والرواية فيه ؟ ! قلنا قد علمنا الرواية الصحيحة والشهادة القائمة أنه أسلم وهو حدثٌ غَرِيضٌ وطفلٌ صغير فلم نكتب الناقلين ولم نستطع أن نلحق إسلامه بإسلام البالغين ، لأن القتل زعم أنه أسلم وهو ابن خمس سنين ، والمكثّر زعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين ! قالقياس أن يؤخذ الأوسط بين الروایتين وبالأمرين ؟ ! وإنما يُعرف حق ذلك من باطله بأن نحصى سنه التي ولى فيها الخلافة وسنى عثمان وسنى عمرو وسنى أبي بكر ومقام النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ومقامه بمكة عند إظهار الدعوة ، فإن قلنا ذلك صح أنه أسلم وهو ابن سبع سنين . فالتاريخ المجمع عليه أنه قتل في شهر رمضان سنة أربعين .

٢ — فإن قالوا : فلمله وهو ابن سبع سنين أو ثمانى سنين قد بلغ من فطنته وذكاؤه وصحة لبّه وصدق حدسه وانكشاف العواقب له — وإن لم يكن جرب الأمور ولا فاتح الرجال ولا نازع الخصوم — ما يعرف به جميع ما يجب على البالغ معرفته والإقرار به ؟ ! قيل لهم : إنما نتكلم على ظواهر الأحوال وما شاهدنا عليه طبائع الأطفال ! فإننا وجدنا حكم ابن سبع سنين أو ثمان — ما لم يعلم باطن أمره وخاصة طبعه — حكم الأطفال . وليس لنا أن نزيل ظاهر حكمه والذى نعرف من حال أبناء جنسه ، بلعل وعسى ؟ ! لأننا وإن كنا لاندري لمله قد كان ذا فضيلة في الفطنة فلمله قد كان ذا قص فيها ! هذا على تجويز أن يكون طيُّ في النبي قد أسلم وهو ابن سبع أو ثمان إسلام البالغ ! غير أن الحكم على مجرى أمثاله وأشكاله الذين أسلموا وهم في مثل سنه ! إذا كان إسلام هؤلاء عن

تربية الحاضن وتلقين القيم ورياضة السائس ، فأما عند التحقيق فإنه لا يجوز لمثل ذلك ، لأنه لو كان أسلم وهو ابن سبع أو ثمان وعرف فضل ما بين الأنبياء والكهنة ، وفرق ما بين الرسل والسحرة ، وفرق ما بين خبر النبي والمنجم ، وحتى عرف كيد الأريب وموضع الحجة وقد التميز ، وكيف يلبس على العقلاء وتُسأل عقول الدماء ، وعرف الممكن في الطبع من الممتع ، وما يحدث بالاتفاق مما يحدث بالأسباب ، وعرف قدر القوى وغاية الحيلة ومتمهي التمويه والخديعة ، وما لا يحتمل أن يحدثه إلا الخالق سبحانه ، وما يجوز على الله في حكمته مما لا يجوز ، وكيف التحفظ من الهوى والاحتراس من الخداع ، لكان كونه على هذه الحال — وهذا مع فوط الصبي والحداثة وقلة التجارب والممارسة — خروجاً من العادة ومن المعروف عما عليه تركيب هذه الخلقة

وليس يصل أحد إلى معرفة نبي وكذب متنبئ حتى يجتمع فيه هذه المعارف التي ذكرناها والأسباب التي وصفناها وفضلناها . ولو كان على هذه الصفة ومعه هذه الخاصية لكان حجة على العامة وآية تدل على النبوة ! ولم يكن الله عز وجل ليخصه بمثل هذه الأعجوبة إلا وهو يريد أن يحتج بها ويجعلها قاطعة لعذر الشاهد وحجة على الغائب . ولولا أن الله أخبر عن يحيى بن زكريا أنه آتاه الحكم صبياً ، وأنه أنطق عيسى في المهد ، ما كانا في الحكم إلا كسائر الرسل وما عليه جميع البشر ، فإذا لم ينطق لملي بذلك قرآن ولا جاء الخبر به بحجة الحجة القاطعة والمشهدقة القائمة فالعلوم عندنا في الحكم أن طباعه كطباع عمية حمزة والعباس ، وما أسس بمعدن جماع الخير منه ! أو كطباع جعفر وعقيل من رجال قومه وسادة رهطه ؟ ولو أن إنساناً ادعى مثل ذلك لأخيه جعفر أو لعميه حمزة والعباس ما كان عندنا في أمره إلا مثل ما عندنا فيه .

٣ — ولو لم يعرف باطل هذه الدعوى من آثار التقوى وتحفظ من الهوى إلا بترك علي ذكر ذلك لنفسه والاحتجاج به على خصمه — وقد نازع الرجال

وَنَاوَأَ الْأَكْفَاءَ وَجَامَعَ أَهْلَ الشُّورَى وَوَلَّى عَلَيْهِ - لَكَانَ كَافِيًا . وَمَتَى لَمْ تَصَحْ
لِىَ هَذِهِ الدَّعْوَى فِي أَيَّامِهِ وَلَمْ يَذْكُرْهَا أَهْلُ عَصْرِهِ فَهِيَ عَنْ وَلَدِهِ أَعْجَزَ وَمِنْهُمْ
أَضْعَفُ . وَلَمْ يَنْتَقِلْ إِلَيْنَا نَاقِلٌ أَنَّ عَلِيًّا احْتَجَّ بِذَلِكَ فِي مَوْقِفٍ وَلَا ذَكَرَهُ فِي مَجْلَسٍ
وَلَا قَامَ بِهِ خَطِيبًا وَلَا أَدْلَى بِهِ وَائْتِمًا ، لِأَسِيَا وَقَدْ رَضِيَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عِنْدَكُمْ مَفْرَعًا وَمَعْلَمًا وَجَعَلَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا ! وَلَا ادْعَى لَهُ أَحَدٌ ذَلِكَ فِي عَصْرِهِ كَمَا لَمْ
يَدَّعِهِ لِنَفْسِهِ حَتَّى يَقُولَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ بِهِ : الدَّلِيلُ عَلَى إِمَامَتِهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ أَوْ كَلَّمَهُ التَّصْدِيقَ قَبْلَ بُلُوغِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ آيَةً لِلنَّاسِ
فِي عَصْرِهِ وَحُجَّةً لَهُ وَلَوْ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ! فَهَذَا كَانَ أَشَدَّ عَلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَعَاطِشَةَ
فِي كُلِّ مَا ادَّعَاهُ مِنْ قَضَائِهِ وَسَوَابِقِهِ وَذَكَرَ قِرَائَتَهُ ؟ !

٤ - فَلَوْ أَنَّ عَلِيًّا كَانَ بِالْفَأْ حَيْثُ أَسْلَمَ لَكَانَ إِسْلَامُ أَبِي بَكْرٍ وَزَيْدٍ
ابْنِ حَارِثَةَ وَخَبَّابِ بْنِ الْأَرْثَ أَفْضَلُ مِنْ إِسْلَامِهِ ، لِأَنَّ إِسْلَامَ الْمُقْتَضِبِ الَّذِي
لَمْ يَسْتَدِّ بِهِ وَلَمْ يَسُودْ وَلَمْ يُجَرَّنْ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنَ النَّاسِ الَّذِي رُبِّيَ فِيهِ وَنَشَأَ
عَلَيْهِ وَحُبِّبَ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ صَاحِبَ التَّزْيِيَةِ يَبْلُغُ حَيْثُ يَبْلُغُ وَقَدْ أَسْقَطَ إِلَهُ عَنْهُ
مُؤْنَةَ الرُّوْيَةِ وَالْخَطَاطِرَ وَكَفَاهُ عِلَاجَ الْقَلْبِ وَاضْطِرَابِ النَّفْسِ ، وَزَيْدٌ وَخَبَّابٌ
وَأَبُو بَكْرٍ يَمَانُونَ مِنْ كَافَةِ النَّظَرِ وَمُؤْنَةُ التَّنَاضُلِ وَمَشَقَّةُ الْإِتْقَالِ مِنَ الدِّينِ الَّذِي
قَدْ طَالَ إِلَيْهِمْ لِمَا هُوَ غَيْرُ خَافٍ !

وَلَوْ كَانَ عَلَى حَيْثُ أَسْلَمَ بِالْفَأْ مُقْتَضِبًا كَثِيرَةً مِنْ عِدَدِنَا لَكَانَ إِسْلَامُهُمْ
أَفْضَلَ مِنْ إِسْلَامِهِ ، لِأَنَّ مَنْ أَسْلَمَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ لَهُ ظَهْرًا كَأَبِي طَالِبٍ وَرَدًّا
كَبْنِي هَاشِمٍ وَمَوْضِعًا فِي بَنِي عَبْدِمَنَافٍ ، لَيْسَ كَالْخَلِيفِ وَالْمَوْلَى وَالتَّابِعِ وَالْعِيفِ^(١)
وَكُلَّ رَجُلٍ مِنْ عَرَضِ قُرَيْشٍ ؟ ! أَوَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ قُرَيْشًا خَاصَةً وَأَهْلَ مَكَّةَ عَامَةً لَمْ
يَقْدِرُوا عَلَى أَذَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا كَانَ أَبُو طَالِبٍ حَيًّا ؟ وَأَيْضًا فَإِنَّ أَوْلَئِكَ
اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَعَ فِرَاقِ الْإِلَافِ مَشَقَّةُ الْخَطَاطِرِ ، وَعَلَى كَيْفِ كَانَ بِحَضْرَةِ الرَّسُولِ يَشَاهِدُ
الْأَعْلَامَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَحْضُرُ مُنْزِلَ الْوَحْيِ . فَالْبَرَاهِينُ لَهُ أَشَدُّ انْكِشَافًا وَالْخَوَاطِرُ

على قلبه أقل اعتلاجاً ، وعلى قدر الكلفة والمشقة يعظم الفضل ويكثر الأجر .

٥ - ولأبي بكر فضيلة في إسلامه ، أنه كان قبل إسلامه كثير الصديق عريض الحجة ذا يسار وغنى ، يُعظم لاله ويستغاد من رأيه ، فخرج من عز النفي وكثرة الصديق إلى ذل الفاقة وعجز الوحدة . وهذا غير إسلام من لأحراك به ولا عز له ، تابع غير متبوع ، لأن من أشد ما يُبتلى الكريم به السب بعد النصيحة والقرب بعد الهيبة والعسر بعد اليسر . . ؟ ثم كان أبو بكر داعية من دعاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان يتلوه في جميع أحواله ، فكان الخوف إليه أشد والمكروه نحوه أسرع ، وكان ممن تحسن مطالبته ولا يُستحي من إدراك الثأر عنده ، لنباهته وبعد ذكره ، والحدث الصغير يُردى ويحتقر لصغر سنه وخول ذكره .

٦ - وكان أبو بكر من المفتونين المذيين بحكة قبل الهجرة ، فضر به نَوَقْلُ ابنِ خُوَيْلِدٍ المعروف بابن العدوية مرتين حتى أدماه . وشده مع طلحة بن عبيد الله في قرْنٍ وجعلهما في المهاجرة عُمرَ بْنَ عُثْمَانَ بن مرة بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، ولذلك كانا يدعيان : القرينين . ولو لم يكن له غير ذلك لكان لحاقه عسيراً وبلوغ منزلته شديداً ، ولو كان يوماً واحداً لكان عظيماً . . وعلى بنُ أبي طالب رَافَهُ وادَعَهُ ، ليس بمطلوب ولا طالب . . وليس أنه لم يكن في طبعه الشهامة والنجدة وفي غريزته البسالة والشجاعة ! ولكنه لم يكن قد تمت أداته ولا استكلت آتته ، ورجال الطلب وأصحاب الثأر يفضون ذا الحدائث ويزدرون بنى الصبا والفرارة إلى أن يلحق بالرجال ويخرج من طبع الأطفال .

٧ - ولأبي بكر مراتب لا يُشرك فيها على ولا غيره ، وذلك قبل الهجرة . فقد علم الناس أن علياً إنما ظهر فضله وانتشر صيته وامتحن ولقى المشاق منذ يوم بدر ، وأنه إنما قاتل في الزمان الذي استوى فيه أهل الاسلام وأهل الشركة وطعموا في أن يكون الحرب بينهم سجالاتاً ، وأعلمهم الله تعالى أن العاقبة للمتقين . وأبو بكر

كان قبل الهجرة معذباً مطروداً مشرداً في الزمان الذي ليس بالاسلام وأهله نهوض ولا حركة ، ولذلك قال أبو بكر في خلافته : طوبى لمن مات في فائئة الاسلام .
يقول : في ضعفه .

٨ - وإن بين الخنة في الدهر الذي صار فيه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مقرين لأهل مكة ومشركي قريش ومعهم أهل يثرب أصحاب النخيل والآطام والشجاعة والصبر والمواصلة والإيثار والحماة والمعدد الدثر والقمل الجذل ، وبين الدهر الذي كانوا فيه بمكة يُقتنون ويُستمون ويُضربون ويُشردون ويُجوعون ويُسقطون ، مقهورين لأحراكهم وأذلالهم وقراء لامالهم ومستغنين لا يمكنهم إظهار دعوتهم ، لفرقاً واضحاً . . . ولقد كانوا في حال أحوجت لوطاً وهو نبي ، إلى أن قال : « لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : عجبت من أخي لوط كيف قال أو آوى إلى ركن شديد وهو يأوى إلى الله تعالى ؟ . . . ثم لم يكن ذلك يوماً ولا يوماً ولا شهراً ولا شهريين ولا عاماً ولا عامين ولكن السنين بعد السنين ؟ ! وكان أغلظ القوم وأشدم بحنة ، يمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبو بكر . لأنه أقام بمكة ما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثلاث عشرة سنة ، وهو أوسط ما قالوا في مقام النبي صلى الله عليه وسلم .

٩ - فإن احتج محتج لعل بالبيت على القراش ، فيين النار والقراش فرق واضح ! لأن النار وصبة أبي بكر النبي صلى الله عليه وسلم قد نطق به القرآن فصار كالصلاة والزكاة وغيرها مما نطق به الكتاب . وأمر على ونومه في القراش ، وإن كان ثابتاً صحيحاً ، إلا أنه لم يذكر في القرآن وإنما جاء بحجج الروايات والسير . وهذا لا يوازن هذا ولا يكايه .

١٠ - وفرق آخر ، وهو أن لو كان مبيت على علي القراش جاء بحجج كون أبي بكر في النار ، لم يكن له في ذلك كبير طاعة . لأن الناقلين قلوا أنه صلى الله عليه وسلم قال له : ثم فلن يتخلص إليك شيء تكرهه . ولم ينقل ناقل أنه قال لأبي بكر

في صحبته إياه وكونه معه في الفار مثل ذلك ، ولا قال له : اتق واعتق فإنك لن تتقتر ولن يصل إليك مكروه ؟ !

١١ — ومن جعد كون أبي بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كفر ، لأنه جعد نص الكتاب . ثم أنظر إلى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » من الفضيلة لأبي بكر ، لأنه شريك رسول الله صلى الله عليه وسلم في كون الله تعالى معه ؟ ! وإنزال السكينة ، قال كثير من الناس إنه في الآية مخصوص بأبي بكر ، لأنه كان محتاجاً إلى السكينة لما تدخله من رقة الطبع البشري ، والنبي صلى الله عليه وسلم كان غير محتاج إليها لأنه يعلم أنه محروس من الله تعالى ، فلا معنى لنزول السكينة عليه . وهذه فضيلة ثالثة لأبي بكر .

١٢ — وإن كان المبيت على القراش فضيلة ، فأين هي من فضائل أبي بكر أيام مكة من عتق المذنبين وإتقان المال وكثرة المستجيبين ، مع فرق ما بين الطاعتين لأن طاعة الشاب الفرير والحدث الصغير التي في عز صاحبه عزه ، ليست كطاعة الحليم الكبير التي لا يرجع تسويد صاحبه [إلا] إلى رهطه وعشيرته .

١٣ — وعلى أنا لو نزلنا إلى ما يريدونه جعلنا القراش كالغار ، وخلصت فضائل أبي بكر في غير ذلك عن معارض .

١٤ — ثم الذي لقي أبو بكر في مسجده الذي بناه على بابه في بني تميم ، قد كان بني مسجداً يصل فيهِ ويدعو الناس إلى الإسلام ، وكان له صوت رقيق ووجه عتيق ، وكان إذا قرأ بكى فيقف عليه المارة من الرجال والنساء والصبيان والعبيد ، فلما أودى في الله ومنع من ذلك المسجد استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فأذن له ، فأقبل يريد المدينة [فاعترضه] الكِنَانِيُّ ففقد له جواراً وقال : والله لا أدع مثلك يخرج من مكة . فرجع إليها وعاد لمصنعه في المسجد ، فشت قريش إلى جاره الكِنَانِيُّ وأجلبوا عليه فقال له : دع المسجد ودخل بيتك واصنع فيه ما بدا لك ؟ .

١٥ — حين رد أبو بكر جوار الكنانى وقال : لا أريد جاراً سوى الله ؟
لنى من الأذى والقتل والاستخفاف والضرب ما بلغكم . وهنا موجود فى جميع
السير . وكان آخر ما لنى هو وأهله فى أمر النار وقد طلبته قرىش وجلت فيه مائة
بسر كما جلّت فى النبى صلى الله عليه وسلم ، فلقى أبو جهل أساء بنت أبى بكر فألما
فكنتمه فاطمها حتى رمت قرطاً كان فى أذنها .

١٦ — ثم الذى كان من دعائه إلى الإسلام وحسن احتجابه حتى أسلم
على يديه طلحة والزبير وسعد وعثمان وعبد الرحمن ، لأنه ساعة أسلم دعا إلى الله
وإلى رسوله .

١٧ — وقالت أسماء بنت أبى بكر : ما عرفت أبى إلا وهو يدين بالدين ولقد
رجع إلينا يوم أسلم فدعانا إلى الإسلام فارمنا حتى أسلما وأسلم أكثر جلسائه .
ولذلك قالوا : من أسلم بدعاء أبى بكر أكثر من أسلم بالسيف . ولم يذهبوا فى ذلك
إلى العدد بل عنوا الكثيرة فى القدر ، لأنه أسلم على يديه خة من أهل السورى
كلهم يصلح للخلافة ، وهم أكفاء على ومنازعوه الرياسة والامامة ، فهؤلاء أكثر
من جميع الناس .

١٨ — ثم أعتق أبو بكر بعد ذلك جماعة من المذنبين فى الله وهم ست رقاب
منهم بلال وعامر بن فهيرة وزيعة النهديّة وابنتها ، ومرة تجارية يمدّها عمر بن
الخطاب فأتاعها منه وأعتقها ، وأعتق أبا عيسى ، فأنزل الله فيه « فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ
وَأَتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » إلى آخر السورة .

١٩ — وقد علم ما صنع أبو بكر فى ماله ، وكان ماله أربعين ألف درهم ،
فأفقّه فى نوائب الإسلام وحقوقه ، ولم يكن خفيف الظهر قليل العيال والنسل
فيكون فاقد جميع اليسارين ! بل كان ذابنين وبنات وزوجة وخدم وحشم ، ويعول
والديه وما ولدا . ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم قبل ذلك مشهوراً فيخاف
العار فى ترك مواساته فكان إقامته على الوجه الذى لا يجد فى غاية الفضل مثله ،

ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : ما تقنى مال كما تقنى مال أبي بكر .

٢٠ - وقد تعلمون ما كان يلقي أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يبطن مكة من المشركين ، وحسن صنيع كثير منهم كصنيع حمزة حين ضرب أبا جهل بقوسه فعلق هامته ؟ وأبو جهل يومئذ سيد البطحاء ورئيس الكفر وأمنع أهل مكة ، ولقد علمتم أن الزبير سلب سيفه واستقبل به المشركين لما أُرْجِفَ أن محمداً قد قُتِلَ ، وأن عمر بن الخطاب قال حين أسلم : لا يُبْعَدُ الله سراً بعد اليوم ، وأن سداً ضرب بعض للمشركين بلحى جهل فأراق دمه . فكل هذه الفضائل لم يكن ليلي ابن أبي طالب فيها ناقة ولا جمل . وقد قال الله تعالى « لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَتَى مِنَ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَتَفَقَوْا مِنْ بَدُوٍّ وَقَاتَلُوا » فإذا كان الله تعالى قد فضل من أتى قبل الفتح لأنه لاهجرة بعد الفتح على من أتى بعد الفتح ! فما ظنكم بن أُنُقٍ من قبل الهجرة ومن لدن مبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة وإلى ما بعد الهجرة ؟ !!

٢١ - والحجة العظمى للقائلين بتفضيل علي قتلُهُ الأقران وخوضُهُ الحروب . وليس له في ذلك كبير فضيلة ، لأن كثرة القتل والمنى بالسيف إلى الأقران لو كان من أشد الحن وأعظم الفضائل وكان دليلاً على الرياسة والتقدم ، لوجب أن يكون للزبير وأبي دُجَانَةَ ومحمد بن مَسْلَمَةَ وابن عفراء والبراء بن مالك من الفضل ما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ! لأنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحداً ولم يحضر الحرب يوم بدر ولا خالط الصفوف ، وإنما كان معزلاً عنهم في العريش ومعه أبو بكر . وأنت ترى الرجل الشجاع قد يقتل الأقران ويمجد الأبطال وفوقه من العسكر من لا يقتل ولا يبارز ، وهو الرئيس أو ذو الرأي والمستشار في الحرب ، لأن الرؤساء من الأكرام والاهتمام وشغل البال والعناية والتفقد ما ليس لنيرهم ، ولأن الرئيس هو المخصوص بالمطالبة وعليه مدار الأمور به يتبصر المقاتل ويتنصر ويأسره يهزم العدو ، ولو لم يكن له إلا أن الجيش لو ثبت وفرو لم يغب ثبوت

الجيش كله وكانت الدبرة عليه ، ولوضع القوم جميعاً وحفظ هو لا تنصرو كانت النولة له ، ولهذا لا يضاف النصر والمزعة إلا إليه . ففضل أن بكر بمقامه في العريش مع رسول الله يوم بدر أعظم من جهاد على ذلك اليوم وقتله أو أبطال قريش ؟

٢٢ - على أن مشى الشجاع بالسيف إلى الأقران ليس على ما توهمه من من لا يعلم باطن الأمر ، لأن معه في حال مشيه إلى الأقران بالسيف أموراً أخرى لا يبصرها الناس وإنما يقضون على ظاهر ما يرون من إقدامه وشجاعته ، وربما كان سبب ذلك الهوج ، وربما كان الفرار والحدأة ، وربما كان الإحراج والحية ، وربما كان لحبة النفع والأحذوثة ، وربما كان طباعاً ، كطبائع القاسي والرحيم والسخي والبخيل ؟

٢٣ - فصاحب النفس المختارة المعتدلة يكون قتالة طاعة وفراره معصية ، لأن نفسه معتدلة كاليزان في استقامة لسانه وكفتيه ، فإذا لم يكن كذلك كان إقدامه طباعاً وفراره معصية .

٢٤ - ووجه آخر ، إن علياً لو كان كما يزعم شيعة ، ما كان له يقتل الأقران كبير فضل ولا عظيم طاعة ، لأنه قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ستقاتل بمدى الناكثين والقاسطين والمارقين . فإذا كان قد وعده بالبقاء بمدى فقد وثق بالسلامة من الأقران وعلم أنه منصور عليهم وقائهم ، فلي هذا يكون جهاد طلحة والزبير أعظم طاعة منه ! .

٢٥ - ثم قصد المناصرون لطي والقائلون بتفضيله إلى الأقران الذين قتلهم فأطروهم وغلوا فيهم ، وليسوا هناك ، فهم عمرو بن عبدود ، زكوه أشجع من عامر ابن الطفيل وعتيبة بن الحارث وبسطام بن قيس ! وقد سمعنا بأحاديت الفجار وما كان بين قريش ودؤس وحلف الفضول ، فما سمعنا لعمرو بن عبدود ذكر في ذلك !!

٢٦ - وقد أكثروا في الوليد بن عتبة بن ربيعة قتله يوم بدر ! وما علمنا

الوليد حضر حرباً قط قبلها ولا ذكر فيها ؟

٢٧ - وقد ثبت أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد كما ثبت على ، فلا فخر لأحدهما على صاحبه في ذلك اليوم ؟

٢٨ - ولأبي بكر في ذلك اليوم مقام مشهود . خرج ابنه عبد الرحمن فارساً مكفراً في الحديد يسأل المبارزة ويقول : أنا عبد الرحمن بن عتيق ! فنهض إليه أبو بكر يسعى بسيفه قتال له النبي : شِمَّ سيفك وارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك ؟

٢٩ - على أن أبا بكر ، وإن لم تكن آثاره في الحرب كآثار غيره ، فقد بذل الجهد وفضل ما يستطيعه وتبلغه قوته ، وإذا بذل المجهود فلا حال أشرف من حاله .



خلاصة نقض كتاب العثمانية

لأبي جعفر الاسكافي

قال أبو جعفر الاسكافي :

لولا ما غلب على الناس من الجهل وحب التقليد لم نحتاج إلى نقد ما احتجبت به العثمانية ، فقد علم الناس كافة أن الدولة وال سلطان لأرباب مقالهم ، وعرف كل أحد علو أقدار شيوخهم وعلمائهم وأمرائهم وظهور كلهم وقهر سلطانهم وارتفاع التقية عنهم ، والكرامة والجائزة لمن روى الأخبار والأحاديث في فضل أبي بكر وما كان من تأكيد بني أمية لذلك وما وقف المحدثون من الأحاديث طلباً لما في أيديهم ، فكانوا لا يألون جهداً في طول ممالكهم أن يُحمّلوا ذكر على عليه السلام وولده ويطفئوا نورهم ويكتسبوا فضائلهم ومناقبهم وسواهم ويحمّلوا على سبهم ولعنهم على اللعنة ، فلم يزل السيف يقطر من دماهم مع قلة عددهم وكثرة علومهم فكانوا بين قتيل وأسير وشريد وهارب ومستخف ذليل وخائف مترقب ، حتى أن القتيبة والمحدث والقاص والتكلم كيتقدّم إليه ويتوعد بقاية الأياد وأشد العقوبة أن لا يذكروا شيئاً من فضائلهم ولا يرخصوا لأحد أن يطيف بهم وحتى بلغ من قتيبة المحدث أنه إذا ذكر حديثاً عن علي عليه السلام كنى عن ذكره فقال : قال رجل من قر يش ، وفعل رجل من قر يش ، ولا يذكر علياً ولا يتفوه باسمه

ثم رأينا جميع المختلفين قد حاولوا نقض فضائله ووجوها الحيل والتأويلات نحوها ، من خارجي مارق ، وناصبي حقيق ، ونابت مستبهم ، وناسبي معاند ، ومنافق مكذب ، وعثماني حود يعترض فيها ويطن ، ومعزلي قد نظر في الكلام وأبصر علم الاختلاف وعرف الشبه ومواضع الطعن وضروب التأويل ، قد اتهم الحيل في إيصال مناقبه وتناول مشهور فضائله ، فرة يتأولها بما لا يحتمل

ومرة يقصد أن يضع من قدرها بقباس منتقض ، ولا يزداد مع ذلك إلا قوة ورفعة ووضوحاً واستنارة . وقد علمت أن معاوية ويزيد ومن كان بعدهما من بني مروان أيام ملكهم — وذلك نحو ثمانين سنة — لم يدعوا جهداً في حمل الناس على شتمه ولعنه وإخفاء فضائله وستر مناقبه وسوابقه . روى عن عبدالله بن ظالم^(١) أنه قال : لما يبيع لمعاوية أقلم المغيرة بن شعبة خطباء يلمنون علياً ، قتل سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل : ألا ترون إلى هذا الرجل الظالم يأمر بلعن رجل من أهل الجنة ! وروى عن عبد الرحمن بن الأُخس أنه كان يقول : شهدت المغيرة ابن شعبة خطب فذكر علياً فقال منه . وعن رباح بن الحارث قال : بينا المغيرة ابن شعبة بالمسجد الأكبر وعنده ناس إذ جاءه رجل يقال له قيس بن علقمة فاستقبل المغيرة فسب علياً . وعن علي بن الحسين قال : قال لي مروان : ما كان في القوم أذفع عن صاحبنا من صاحبكم ! قلت : فإياكم تسبونه على المنابر ؟ قال إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك . وعن ابن أبي سيف قال : خطب مروان ، والحسن جالس — فقال من على فقال الحسن : ويك يا مروان ، أهذا الذي تشتم شر الناس ؟ قال : لا ، ولكنه خير الناس . وقال عمر بن عبدالعزيز : كان أبي يخطب فلا يزال مستمراً في خطبته حتى إذا سار إلى ذكر علي وسبه تقطع لسانه واصفر وجهه وتغيرت حاله ، فقلت له في ذلك فقال : أوقد فطنت لذلك ! إن هؤلاء لو يعلمون من على ما يملئه أبوك ماتبنا منهم رجل . وقام رجل من ولد عثمان إلى هشام ابن عبد الملك يرم عرقه فقال : إن هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لمن أبي تراب . وعن أشعث بن سوار قال : سب عدى بن أرقطة علياً على المنبر فبكى الحسن البصري وقال : لقد سب هذا اليوم رجل إنه لأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة . وقال إسماعيل بن إبراهيم : كنت أما وإبراهيم بن يزيد جالسين في الجمعة مما يلي أبواب كندة فخرج المغيرة فخطب فحمد الله ثم ذكر ما شاء أن

(١) حفت الأسانيد في جميع الروايات إلا ما قصر منها

يذكر ثم وقع في علي ، فضرب إبراهيم على فخذي وركبتي ثم قال : أقبل علي
فخدتني فانا لسانا في جمعة ألا تسمع ما يقول هذا ؟

وقال ابن عامر بن عبد الله بن الزبير لولده : يا بني لا تذكر عليا إلا بخير ، فإن
بنى أمية لعنوه على منابرهم ثمانين سنة لم يزد الله بذلك إلا رفة ، إن الدنيا لم تكن
شيئاً قط إلا رجعت على ما بنت فهدمته ، وإن الدين لم يكن شيئاً قط وهدمه .

وعن أبي بكر بن عبد الله الاصمغاني قال : كان لبني أمية دعي يقال له خالد
ابن عبد الله^(١) لا يزال يشتم عليا فلما كان يوم جمعة وهو يخطب للناس قال : والله
إن كان رسول الله ليستمله وإنه ليعلم ما هو ولكنه كان ختنه — وقد نفس
سعيد بن المسيب ففتح عينيه ثم قال : وبحكم ! ما قال هذا الخبيث ؟ رأيت القبر
انصدع ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كذبت يا عدو الله . وعن السدي
قال : بينا أنا بالمدينة عند أحجار الزيت إذ أقبل راكب على بئر فوقف فلب
عليا فخف به الناس ينظرون إليه فيبينا هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبي وقاص
فقال : ألهم إن كان سب عبدك صالحاً فأر المسلمين خزيه . فالتفت أنظر به بئره
فقط فاندقت عنقه . وعن أبي عبد الله الجدي قال : دخلت على أم سلمة رحمها
الله فقالت لي : أيسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكم وأنتم أحياء ؟ قلت : وأتى
يكون هذا ؟ قالت : أليس يسب على ومن يحبه ! وعن الزهري قال : قال ابن عباس
لماوية : ألا تكف عن شتم هذا الرجل ! قال : ما كنت لأفعل حتى يربو عليه
الصغير ويهرم فيه الكبير . فلما ولي عمر بن عبد العزيز كف عن شتمه فقال
الناس : ترك السنة ! قال : وقد روى عن ابن مسعود — إما موقوفاً عليه وإما
مرفوعاً — كيف أنتم إذا شملتم كفتة يربو عليها الصغير ويهرم فيها الكبير يجرى
عليها الناس فيتخذونها سنة فإذا غير منها شيء . قيل : غيرت السنة ؟ ؟

قال أبو جعفر : وقد تعلمون أن بعض الملوك ربما أحدثوا قولاً أو ديناً لم يورث
فيحملون الناس على ذلك حتى لا يعرفون غيره ، كنحو ما أخذ الناس الحجاج بن

(١) هو خالد بن عبد الله القسري والي الرقة

يوسف بقرامة عثمان وترك قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب وتوعد على ذلك بدون ما صنع هو وجباية بني أمية وطاعة بني مروان بولد على عليه السلام وشيعته ، وإنما كان سلطانه نحو عشرين سنة فما مات الحجاج حتى اجتمع أهل العراق على قراءة عثمان ونشأ أبناؤهم ولا يعرفون غيرها لامساك الآباء عنها وكف المعلمين عن تعليمها حتى لو قرأت عليهم قراءة عبد الله وأبي ما عرفوها ولظنوا بتأليفها الاستكراه والاستهجان لألف العادة وطول الجهالة ، لأنه إذا استولت على الرعية الغلبة وطالت عليهم أيام التسلط وشاعت فيهم المخافة وشملتهم التقية إتقوا على التخاضل والتسكت فلا تزال الأيام تأخذ من بصائرهم وتنقص في ضائرتهم وتنقص من مرائيم حتى تصير البدعة التي أحدثوها غامرة للسنة التي كانوا يعرفونها . ولقد كان الحجاج ومن ولاء كعبد الملك والوليد ومن كان قبلهما وبعدهما من فراعنة بني أمية على إخفاء محاسن على عليه السلام وفضائله وفضائل ولده وشيعته وإسقاط أقدارهم أحرم منهم على إسقاط قراءة عبد الله وأبي ، لأن تلك القراءات لا تكون سبباً لزوال ملكهم وفساد أمرهم وانكشاف حالهم ، وفي اشتها رفضل على وولده وإظهار محاسنهم بوارهم وتسلط حكم الكتاب النبوذ عليهم ، فحرموا واجتهدوا في إخفاء فضائله وحلوا الناس على كتمانها وسترها وأبي الله أن يزيد أمره وأمر ولده إلا استنارة وإشراقاً ، وجبهم إلا شفا وشدة وذكرهم إلا انتشارا وكثرة وحجهم إلا وضوحا وقوة وفضلهم إلا ظهورا وشأنهم إلا علوا وأقدارهم إلا إعظاما ، حتى أصبحوا لها منهم أيام أعزاء ، وبإماتتهم ذكرهم أحياء ، وما أرادوا به وبهم من الشر تحول خيرا فاتتهى إلينا من ذكر فضائله وخصائصه ومزيائه وسواقه مالم يتقدمه السائقون ولا ساواه فيه القاصدون ولا يلحقه الطالبون . ولولا أنها كانت كالقبة المنصوبة في الشهرة ، وكالسن المحفوظة في السكرة لم يصل إلينا منها في دهرنا حرف واحد إذ كان الأمر كما وصفناه .

١ - قال : فأما ما احتج به الجاحظ بلامامة أبي بكر بكونه أول الناس

إسلاماً ، فلو كان هذا احتجاجاً صحيحاً لاحتج به أبو بكر يوم العقبة ، وما رأيناه صنع ذلك ، لأنه أخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة بن الجراح وقال للناس : قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا منهما من شئتم ، ولو كان هذا احتجاجاً صحيحاً لما قال عمر : كانت بيعة أبي بكر فلتة وقي الله شرها ، ولو كان احتجاجاً صحيحاً لادعى واحد من الناس لأبي بكر الإمامة في عصره أو بعد عصره يكونه سبق إلى الإسلام ، وما عرفنا أحداً ادعى له ذلك ، على أن جمهور المحدثين لم يذكروا أن أبا بكر أسلم إلا بعد عدة من الرجال منهم علي بن أبي طالب وجعفر أخوه وزيد بن حارثة وأبو ذر النخعي وعمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله بن العاص وخباب بن الارت . وإذا تأملنا الروايات الصحيحة والأسانيد القوية الوثيقة وجدناها كلها ناطقة بأن علياً عليه السلام أول من أسلم .

فأما الرواية عن ابن عباس أن أبا بكر أولهم إسلاماً فقد روى عن ابن عباس خلاف ذلك بأكثر مما رويوا وأشهر . فمن ذلك أنه قال : أول من صلى من الرجال على عليه السلام

وقال : فرض الله تعالى الاستغفار لعل عليه السلام في القرآن على كل مسلم بقوله تعالى « رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ » فكل من أسلم بعد علي فهو يستغفر لعل

وقال : الباقى ثلاثة : سبق يوشع بن نون إلى موسى ، وسبق صاحب يس إلى عيسى ، وسبق علي بن أبي طالب إلى محمد صلى الله عليه وسلم . فهذا قول ابن عباس في سبق علي إلى الإسلام وهو أثبت من حديث الشعبي وأشهر ، على أنه قد روى عن الشعبي خلاف ذلك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل : هذا أول من آمن بي وصدقني وصلى معي .

قال : فأما الأخبار الواردة بسبقه إلى الإسلام المذكورة في الكتب الصحاح

والأسانيد الموثوق بها ، فنها ما روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أول شيء علمته من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى قدمت مكة مع عمومة لى وناس من قومي وكان في أنفسنا شراء عطر ، فأرشدنا إلى العباس بن عبد المطلب فأتيناه إليه وهو جالس إلى زمزم ، فبينما نحن عنده جلوس إذ أقبل رجل من باب الصفا وعليه ثوبان أبيضان وله وفرة إلى أنصاف أذنيه جمدة أنتم أقمي أديع العينين كثر الحجة يراق الثنايا أبيض تملوه حمرة كأنه القمر ليلة البدر ، وعلى يمينه غلام مراهق أو محتلم حسن الوجه ، تقفوهما امرأة قد سترت محاسنها حتى قصدوا نحو الحجر فاستلمه واستلمه الغلام ثم استلمته المرأة ، ثم طاف بالبيت سبعا والغلام والمرأة يطوفان معه ، ثم استقبل الحجر فقام ورضع يديه وكبر وقام الغلام إلى جانبه وقامت المرأة خلفهما فرفست يديهما وكبرت ، فأطال القنوت ثم ركع وركع الغلام والمرأة ثم رفع رأسه فأطال ورضع الغلام والمرأة معه ، يستمان مثل ما يصنع ، فلما رأينا شيئا فنكره ولا نعرفه بمكة أقبلنا على العباس قلنا : يا أبا الفضل ، إن هذا الدين ما كنا نعرفه فيكم ؟ قال : أجل والله . قلنا : فمن هذا ؟ قال : هذا ابن أخي هذا محمد بن عبد الله ، وهذا الغلام ابن أخي أيضا هذا علي بن أبي طالب ، وهذه المرأة زوجة محمد هذه خديجة بنت خويلد ، والله ما على وجه الأرض أحد يدين بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة وعن عفيف بن قيس الكندي قال : كنت في الجاهلية عطارا فقدمت مكة فنزلت على العباس بن عبد المطلب فبينما أنا جالس عنده أنظر إلى الكعبة وقد تحلقت الشمس في السماء أقبل شاب كأن في وجهه القمر حتى رمى بيصره إلى السماء فنظر إلى الشمس ساعة ثم أقبل حتى دنا من الكعبة فصاف قدميه يصلي فخرج على أثره فقي كأن وجهه صفيحة يمانية^(١) فقام عن يمينه فجاءت امرأة متلفعة في ثيابها فقامت خلفهما ، فأهوى الشاب راكما فركما معه ، ثم أهوى إلى الأرض ساجدا فسجدنا معه ، قللت للعباس : يا أبا الفضل أمر عظيم ! فقال : أمر والله عظيم !

(١) يريد كان وجهه في صفه السيف المستقر

أندرى من هذا الشاب ؟ قالت : لا . قال : هذا ابن أخى هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، أندرى من هذا التقي ؟ قالت : لا . قال : هذا ابن أخى هذا طي ابن أبى طالب بن عبد المطلب ، أندرى من المرأة ؟ قالت : لا . قال : هذه ابنة خويلد بن أسد بن عبد المزى هذه خديجة زوج محمد هذا ، وإن محمداً هذا يذكر أن إلهه إله السماء والأرض أمره بهذا الدين فهو عليه كما ترى ، ويؤمن أنه نبي وقد صدقه على قوله على بن عمه هذا التقي وزوجته خديجة هذه المرأة ، والله ما أعلم على وجه الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة . قال غفيف : قلت له : فأتقولون أنتم ؟ قال : نتنظر الشيخ ما يصنع — يعنى أبا طالب أخاه . وعن معقل بن يسار قال : كنت أوصل النبي صلى الله عليه وسلم فقال لى : هل لك أن تصود فاطمة ؟ قلت : نعم يا رسول الله . فقام يمشى متوكفاً [على] وقال : أما إنه سيحمل ثقلها غيرك ويكون أجراً لك . قال : فوالله لكانه لم يكن على من حمل النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فدخلنا على فاطمة فقال لما عليه الصلاة والسلام : كيف تجدينك ؟ قالت : لقد طال أسنى واشتد حزنى وقال لى النساء زوجك أبوك فقيرا لا مال له ! فقال لها : أما ترضين أنى زوجتك أقدم أمى سلماً وأكترهم علماً وأفضلهم حِلماً ؟ قالت : بلى رضيت يا رسول الله .

وعن جعفر بن محمد عن آبائه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج فاطمة دخل النساء عليها فقلن : يا بنت رسول الله ، خطبك فلان وفلان فردم عنك وزوجك فقيرا لا مال له ! فلما دخل عليها أبوها رأى ذلك فى وجهها فسألها فذكرت له ذلك فقال : يا فاطمة إن الله أمرنى فأنكحتك أقدمهم سلماً وأكترهم علماً وأعظمهم حِلماً ، وما زوجتك إلا بأمر من السماء ، أما علمت أنه أخى فى الدنيا والآخرة ! ؟

وعن الشئبى أن أبا بكر وعمر خطبا فاطمة فردهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لم أؤمر بذلك . فخطبها على فزوجه ليحلم وقال لها : زوجتك أقدم الأمة

إسلاماً . وذكر علم الحديث . قال : وقد روى هذا الخبر جماعة من الصحابة منهم أسماء بنت عميس وأُم أيمن وابن عباس وجابر بن عبد الله وعن أبي رافع قال : أتيت أبا ذر بالربة أودعه فلما أردت الانصراف قال لي ولأنس ممي : ستكون فتنة فاتقوا الله وعليكم بالشيخ علي بن أبي طالب فاتبعوه فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : أنت أول من آمن بي وأول من يصلحني يوم القيامة وأنت الصديق الأكبر وأنت القاروق الذي يفرق بين الحق والباطل وأنت يسوب للمؤمنين ، والمال يسوب للكافرين ، وأنت أخى ووزيرى وخير من أترك بسدى تقضى ديني وتنجز موعودى

وعن عباد بن عبد الله الأَسَدِي قال : سمعت علي بن أبي طالب يقول : أنا عبد الله وأخو رسوله ، وأنا الصديق الأكبر لا يقوله غيري إلا كذاب ، وقد صليت قبل الناس سبع سنين

وروت معاذة بنت عبد الله العدوية قالت : سمعت علياً يخطب على منبر البصرة ويقول : أنا الصديق الأكبر ، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر ، وأسلمت قبل أن يسلم .

وروى حبة بن جوين العُرُني أنه سمع علياً يقول : أنا أول رجل أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن حكيم مولى زاذان قال : سمعت علياً يقول : صليت قبل الناس سبع سنين وكنا نسجد ولا نركع ، وأول صلاة ركعنا فيها صلاة العصر ، قلت : يا رسول الله ما هذا ؟ قال : أمرت به .

وعن جابر بن عبد الله قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، وصلى على يوم الثلاثاء . وبسده . وعن أنس بن مالك : استقبني النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين وأسلم على يوم الثلاثاء . وبسده .

وروى أبو رافع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى أول صلاة صلاها غداة الاثنين وصلت خديجة آخرتها ويومها ذلك وصلى على يوم الثلاثاء غداة ذلك اليوم

قال : وقد روى بروايات مختلفة كثيرة متعددة عن زيد بن أرقم وسلمان
الفارسي وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك : أن علياً أول من أسلم .

وروى سلمة بن كهيل عن رجاله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
أولكم وروداً على الخوض أولكم إسلاماً علي بن أبي طالب .

وعن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب وهو يقول : كفوا عن علي بن
أبي طالب فإني سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه خصالاً لو أن خصلة
منها في جميع آل الخطاب كان أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، كنت ذات
يوم وأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة مع قرة من أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلبه فأتتهما إلى باب أم سلمة فوجدنا علياً
متكئاً على نجاف الباب فقلنا : أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو في
البيت ، رويدكم ! فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فسرنا حوله فاتكأ على عليٍّ
وضرب يده على منكبيه فقال : أبشر يا علي بن أبي طالب أنك مختصم وأنتك تخصم
الناس بسبع لا يجاريك أحد في واحدة منهم : أنت أول الناس إسلاماً وأعلمهم
بأيام الله .

وروى أبو أيوب الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لقد
صلت الملائكة على وعلى عليٍّ سبع سنين وذلك أنه لم يصل معي رجل فيها غيره
قال أبو جعفر :

٢ — فأما ما رواه الجاحظ من قوله صلى الله عليه وسلم : إنما تبعني حرو عبد .
فانه لم يسم في هذا الحديث أبا بكر وبلا ، وكيف وأبو بكر لم يشتر بلالاً إلا بعد
ظهور الإسلام بمكة ! فلما أظهر بلال إسلامه عذبه أمية بن خلف ، ولم يكن ذلك حال
إخفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة ولا في ابتداء أمر الإسلام ، وقد قيل
إنه عليه الصلاة والسلام إنما غي بالحرطى من أبي طالب وبالعبد زيد بن حارثة .
وعن الشعبي قال : قال : المجاج للحسن — وعنده جماعة من التابعين —
وذكر علي بن أبي طالب — : ما تقول أنت يا حسن ؟ قال : ما أقول ! هو أول

من صلى إلى القبلة وأجاب دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن لعل منزلة من ربه وقراءة من رسوله ، وقد سبقت له سوايق لا يستطيع ردعا أحد !
فغضب الحجاج غضباً شديداً وقام عن سريره فدخل بعض البيوت وأمر بصرفنا .
قال الشعبي : وكنا جماعة ما ما إلا من نال من على مقارنة للحجاج ، غير الحسن بن أبي الحسن رحمه الله .

وعن محمد بن عبيد الله قال : قال رجل للحسن : ما لنا لا نراك تفتي على على وتقرظه ؟ قال : كيف وسيف الحجاج يقطر دما ؟ إنه لأول من أسلم وحسبكم بذلك .

قال : فهذه الأخبار . وأما الأشعار المروية فمروفة كثيرة منتشرة :
فنها قول عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب مجيباً للوليد بن عقبة بن أبي معيط :

وَإِنَّ وَلِيَّ الْأَمْرِ بَدَّ مُحَمَّدٍ عَلِيٌّ وَفِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ صَاحِبُهُ
وَمَعِيَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِنُوهُ وَأَوَّلُ مَنْ صَلَّى وَمَنْ لَانَ جَانِبُهُ
وقول خزيمة بن ثابت في هذا :

وَمَعِيَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ دُونِ أَهْلِهِ وَفَارِسُهُ مَدَّ كَلَنَ فِي سَالِفِ الزَّمَنِ
وَأَوَّلُ مَنْ صَلَّى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ سِوَى خَيْرَةِ النِّسْوَانِ وَاللَّهِ ذُوْمَنٌ ^(١)

وقول أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس حين يوبع أبو بكر :
مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الْأَمْرَ مُنْصَرِفٌ عَنْ هَاتِمٍ ثُمَّ مِنْهَا عَنْ أَبِي حَسَنِ
أَلَيْسَ أَوَّلُ مَنْ صَلَّى لِقَبْلَتِهِمْ وَأَعْلَمَ النَّاسِ بِالْأَحْكَامِ وَالسُّنَنِ

وقول أبي الأسود الدؤلي يهدد طلحة والزبير :

وَإِنَّ عَلِيًّا لَكُمْ مُصْحَرٌ يُمَاتِلُهُ الْأَسَدُ الْأَسْوَدُ
أَمَا إِنَّهُ أَوَّلُ الْمَائِدِينَ بِمَكَّةَ وَاللَّهُ لَا يُعْبَدُ

(١) خيرة النساء : هي خديجة زوج رسول الله

وقول سعيد بن قيس الحمداني يرمز بصفتين :

هَذَا عَلَى وَأَبْنُ عَمِّ الْمُصْطَفَى أَوَّلُ مَنْ أَجَابَهُ فِيمَا رَوَى
هُوَ الْإِيمَانُ لَا يُبَالِي مَنْ غَوَى

وقول زفر بن يزيد بن حذيفة الأسدي :

فَحُطُّوا عَلَيَّا وَانْصُرُوهُ فَإِنَّهُ وَصِيٌّ وَفِي الْإِسْلَامِ أَوَّلُ أَوَّلٍ
وَإِنْ تَخَذِلُوهُ وَالْحَوْلُ لَثُجَةٌ فَلَيْسَ لَكُمْ عَنْ أَرْضِكُمْ مُتَحَوِّلٌ

قال : والأشعار كالأخبار إذا امتنع في محي القبيلين التواطؤ والاتفاق كان ورودها حجة . فأما قول الجاحظ : فأوسط الأمور أن نجعل إسلامهما معا . فقد أبطل بهذا ما احتج به لإمامة أبي بكر ، لأنه احتج بالسبق وقد عدل الآن عنه . قال أبو جعفر : ويقال لهم لسنا نحتاج من ذكر سبق طي عليه السلام إلا إلى مجامعتكم إيانا على أنه أسلم قبل الناس ، ودعواكم أنه أسلم وهو طفل دعوى غير مقبولة إلا بحجة ، فإن قلتم : ودعواكم أنه أسلم وهو بالغ دعوى غير مقبولة إلا بحجة ؟ قلنا . قد ثبت إسلامه بحكم إقراركم ، ولو كان طفلا لكان في الحقيقة غير مسلم ، لأن اسم الإيمان والإسلام والكفر والطاعة والمعصية إنما يقع على البالغين دون الأطفال والمجانين ، وإذا أطلقتم وأطلقنا عليه اسم الإسلام فالأصل في الإطلاق الحقيقة . كيف وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : أنت أول من آمن بي وأنت أول من صدقتي ؟ وقال لقاطمة زوجتك أقدمهم سلما أو قال إسلاما ؟ فإن قالوا : إنما دعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام على جهة العرض لا التكاليف ، قلنا : قد وافقتمونا على الدعاء ، وحكم الدعاء حكم الأمر والتكاليف ، ثم ادعيتم أن ذلك كان على وجه العرض وليس لكم أن تقبلوا معنى الدعاء إلا الحجة . فإن قالوا : لعله كان على وجه التأديب والتسلية كما يستمد مثل ذلك مع الأطفال ! قلنا : إن ذلك إنما يكون إذا تمكن الإسلام بأهله أو عند النشؤ عليه والولادة فيه ، فأما في دار الشرك فلا يقع مثل ذلك ، لاسيما إذا كان الإسلام غير معروف

ولا معتاد بينهم ، على أنه ليس في سنة النبي صلى الله عليه وسلم دعاء أطفال المشركين إلى الاسلام والتفريق بينهم وبين آبائهم قبل أن يبلغوا الحلم . وأيضاً فمن شأن الطفل اتباع أهله وتقليد أبيه والمضى على منشته ومولده . وقد كانت منزلة النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ منزلة ضيق وشدة ووحدة ، وهذه منازل لا ينتقل إليها إلا من ثبت الاسلام عنده بحجة ودخل اليقين قلبه بعلم ومعرفة

فان قالوا : إن علياً كان يألف النبي صلى الله عليه وسلم فواقته على طريق المساعدة له ! قلنا : إنه وإن كان يألفه أكثر من أبويه وإخوته وعمومته وأهل بيته لم يكن الإلف ليخرجه عما نشأ عليه ، ولم يكن الاسلام مما غذى به وكرر على سمعه ، لأن الاسلام هو خلع الانداد والبراءة عن أشرك بالله ، وهذا لا يجتمع في اعتقاد طفل . ومن العجب قول العباس لعفيف بن قيس : نتظر الشيخ وما يصنع ؟ فإذا كان العباس وحمة يقتظران أبا طالب ويصدران عن رأيه فكيف يخالفه ابنه ويؤثر القلة على الكثرة ويفارق المحبوب إلى المكروه والمز إلى القل والأمن إلى الخوف هل غير معرفة ولا علم بما فيه ؟

فأما قوله : إن القائل يزعم أنه أسلم وهو ابن خمس سنين ، والمكثر يزعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين . فأول ما يقال في ذلك أن الأخبار جاءت في سنة يوم أسلم على خمسة أقسام فجعلناها في قسمين :

القسم الأول — أقدين قالوا : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة — عن شداد بن أوس قال : سألت حَبَّابَ بن الأَرْت عن إسلام علي قال : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، ولقد رأيته يصلي قبل الناس مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ بالغ مستحكم البلوغ . وعن الحسن : إن أول من أسلم على بن أبي طالب وهو ابن خمس عشرة سنة .

القسم الثاني — أقدين قالوا : إنه أسلم وهو ابن أربع عشرة سنة عن حذيفة ابن اليمان قال : كنا نعبد الحجارة ونشرب الخمر وعلى من أبناء أربع عشرة سنة

فَأَتَمَّ يَصِلُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَقَرِيشٌ يَوْمَئِذٍ تَسَاهَوُا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَنْبَغُ عَنْهُ إِلَّا عَلَى - وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ قَالَ : أَسْلَمَ عَلَى وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً

الْقِسْمُ الثَّلَاثُ - الَّذِينَ قَالُوا : أَسْلَمَ وَهُوَ ابْنُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ أَنَّهُ عَلِيًّا حِينَ أَسْلَمَ كَانَ ابْنُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً . وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاقِرِ قَالَ : أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ ابْنُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً ، وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِ وَعَشْرِينَ سَنَةً

الْقِسْمُ الرَّابِعُ - الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّهُ أَسْلَمَ وَهُوَ ابْنُ عَشْرَيْنِ سَنَةً عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ : أَوَّلُ ذَكَرَ آمَنَ وَصَدَّقَ بِالنَّبُوءَةِ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ ابْنُ عَشْرَيْنِ سَنَةً . ثُمَّ أَسْلَمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، ثُمَّ أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ وَهُوَ ابْنُ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، فَمَا بَلْفَنَا

الْقِسْمُ الْخَامِسُ - الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّهُ أَسْلَمَ وَهُوَ ابْنُ تِسْعِ سِنِينَ - عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ : أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الرِّجَالِ عَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ ابْنُ تِسْعِ سِنِينَ . وَكَانَ لَهُ يَوْمَ قَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِسْعَ وَعَشْرُونَ سَنَةً

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : فَهَذِهِ الْأَخْبَارُ كَمَا تَرَاهَا . فَمَا أَنْ يَكُونَ الْجَاهِظُ جَهْلَهَا أَوْ قَصْدُ الْمُنَادِ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ : فَالْقِيَاسُ أَنْ نَأْخُذَ بِأَوْسَطِ الْأُمُورِ مِنَ الرَّوَايَتَيْنِ فَنَقُولُ إِنَّهُ أَسْلَمَ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ . فَإِنَّ هَذَا تَحْكُمُ مِنْهُ وَيُزِمُهُ مِثْلُهُ فِي رَجُلٍ ادَّعَى قَبْلَ رَجُلٍ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ إِنَّمَا يَسْتَحِقُّ قَبْلِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ ؟ فَيَنْبَغِي أَنْ نَأْخُذَ الْأَمْرَ الْمُتَوَسِّطَ وَيُزِمُهُ سَجَّةُ دَرَاهِمَ ؟ ! وَيُزِمُهُ فِي أَبِي بَكْرٍ حَيْثُ قَالَ قَوْمٌ كَانَ كَافِرًا ، وَقَالَ قَوْمٌ كَانَ إِمَامًا عَادِلًا ، أَنْ يَقُولَ : أَعْدَلَ الْأَقْوِيلِ أَوْسَطُهَا ، وَهُوَ مَنْزِلَةٌ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ فَنَقُولُ : كَانَ فَاسِقًا ظَالِمًا ! وَكَذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ الْمُخْتَلَفِ فِيهَا !! فَأَمَّا قَوْلُهُ : وَإِنَّمَا يَكُونُ حَقُّ ذَلِكَ مَنْ يَاطُلُهُ بِأَنْ نَحْصِيَ سَنَى وَلَايَةِ عُثْمَانَ وَعُمَرَ وَأَبِي بَكْرٍ وَسَنَى الْهَجْرَةِ وَمَقَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِكْمَةِ بَعْدِ الرِّسَالَةِ إِلَى أَنْ

هاجر . فيقال له : لو كانت الروايات متفقة على هذه التواريخ لكان لهذا القول مساع ! لكن الناس قد اختلفوا في ذلك قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بمكة بعد الرسالة خمس عشرة سنة - رواه ابن عباس . وقيل ثلاث عشرة سنة - روى عن ابن عباس أيضاً ، وأكثر الناس يروونه . وقيل عشر سنين - رواه عروة بن الزبير وهو قول الحسن البصري وسعيد بن المسيب . واختلفوا في سن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم : كان ابن خمس وستين سنة ، وقيل كان ابن ثلاث وستين سنة ، وقيل كان ابن ستين . واختلفوا في سن علي عليه السلام قيل : كان ابن سبع وستين ، وقيل : كان ابن خمس وستين ، وقيل : ابن ثلاث وستين ، وقيل ابن ستين ، وقيل : ابن تسع وخمسين

فكيف يمكن مع هذه الاختلافات تحقيق هذه الحال ؟ وإنما الواجب أن يُرجع الى إطلاق قولهم : أسلم على . فان هذا الاسم لا يكون مطلقاً إلا على البالغ كما لا يطلق اسم الكافر إلا على البالغ ، على أن ابن احدى عشرة سنة يكون بالغاً ويولد له الأولاد ، فقد روت الرواة أن عمرو بن العاص لم يكن أسن من ابنه عبد الله إلا بثلثي عشرة سنة ، وهذا يوجب أنه احتلم وبلغ في أقل من احدى عشرة سنة . وروى أيضاً أن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس كان أصغر من أبيه علي بن عبد الله باحدى عشرة سنة . فيلزم الجاحظ أن يكون عبد الله بن العباس حين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مسلم على الحقيقة ولا مثاب ولا مطيع بالاسلام لأنه كان يومئذ ابن عشر سنين - رواه هشيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشر سنين

قال أبو جعفر

٣ - هذا كله مبنى على أنه أسلم وهو ابن سبع أو ثمان ونحن قد بينا أنه أسلم بالغاً ابن خمس عشرة سنة أو ابن أربع عشرة سنة . هل أنا لو نزلنا على حكم الخصوم وقتلنا ما هو الأشهر والأكثر من الرواية وهو أنه أسلم وهو ابن عشر لم يلزم ما قاله

الجاحظ ، لأن ابن عشر قد يستجمع عقله ويعلم من مبادئ المعارف ما يُستخرج به كثير من الأمور المعقولة ، ومتى كان الصبي عاقلاً ميزاً كان مكلفاً بالمعقليات وإن كان تكليفه بالشرعيات موقوفاً على حد آخر وغاية أخرى . فليس بمنكر أن يكون على عليه السلام وهو ابن عشر قد عقل المجزة فلزمه الاقرار بالنبوة وأسلم لإسلام عالم عارف بالإسلام مقلد تابع . وإن كان ما نسقه الجاحظ وعدده من معرفة السحر والنجوم والفصل بينهما وبين النبوة ، ومعرفة ما يجوز في الحكمة مما لا يجوز ، ومالا يحدثه إلا الخلق ، والفرق بينه وبين ما يقدر عليه القادرون بالقدرة ، ومعرفة التوحيه والخديعة والتلبيس والمأكرة شرطاً في صحة الاسلام ، لما صح إسلام أبي بكر ولا عمر ولا غيرهما من العرب ! وإنما التكليف لهؤلاء بالجل وبمبادئ المعارف لا بدقائنها والنامض منها . وليس يفتقر الاسلام إلى أن يكون المسلم قد فاتح الرجال وجرب الأمور ونازع الخصوم ؟ وإنما يفتقر إلى صحة الغريزة وكال العقل وسلامة النظرة . ألا ترى أن طفلاً لو نشأ في دار لم يأسر الناس بها ولا فاتح الرجال ولا نازع الخصوم ثم كل عقله وحصلت العلوم البدئية عنده لكان مكلفاً بالمعقليات ؟

فأما توهمه أن علياً عليه السلام أسلم عن تربية الحاضن وتلقين القيم ورياضة السائس . فلمصرى إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان حاضنه وقيمه وسائسه ، ولكن لم يكن منقطاً عن أبيه أبي طالب ، ولا عن إخوته طالب وجعفر وعقيل ، ولا عن عمومته وأهل بيته ، وما زال مخالطاً لهم ممتزجاً بهم مع خدمته لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فما باله لم يعل إلى الشرك وعبادة الأصنام لمخالطة إخوته وأباه وعمومته وأهله وهم كثير ومحمد صلى الله عليه وسلم واحد ؟ وأنت تعلم أن الصبي إذا كان له أهل ذوو كثرة وفيهم واحد يذهب إلى رأى مفرد لا يواقه عليه غيره منهم ، فانه يكون إلى ذوى الكثرة أميل وعن ذى الرأى الشاذ أبعد ! وعلى أن علياً عليه السلام لم يولد في دار الاسلام ، وإنما ولد في دار الشرك وربى بين المشركين وشاهد الأصنام وعابن بينيه أهل ورهطه يبيدونها . فلو كان في دار الاسلام لكان في

القول مجال ، وتقبل أنه ولد بين المسلمين ، فإسلامه عن تلقين الظئر وعن سماع كلمة الإسلام ومشاهدة شماره ، لأنه لم يسمع غيره ولا خطر ياله سواء . فلما لم يكن ولد كذلك ثبت أن إسلامه إسلام المميز العارف بما دخل عليه ، ولولا أنه كذلك لما مدحه رسول الله صلى عليه وسلم بذلك ولا أرضى ابنته فاطمة لما وجدت من تزويجه بقوله لما : زوجتك أقدمهم سلماً ، ولا قرن إلى قوله : وأكرم علماء وأعظمهم حلماً . والحلم العقل . وهذان الأمران غاية الفضل . فلولا أنه أسلم إسلام عارف عالم يميز لما ضم إسلامه إلى العلم والحلم اللذين وصفه بهما ، وكيف يجوز أن يمدحه بأمر لم يكن مثاباً عليه ولا معاقباً به لو تركه ؟ ولو كان إسلامه عن تلقين وتربية لما افتخر هو عليه السلام على رؤوس الأشهاد ، ولا خطب على المنبر وهو بين عدو محارب وخاذل متافق ، قال : أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر والفاروق الأعظم ، صليت قبل الناس سبع سنين ، وأسلمت قبل إسلام أبي بكر ، وأمنت قبل إيمانهم . فهل بلغكم أن أحداً من أهل ذلك العصر أنكركم ذلك أو عابه أو ادعاه لغيره أو قال له إنما كنت طفلاً أسلمت على تربية محمد صلى الله عليه وسلم لك وتلقينه إياك ، كما يتعلم الطفل الفارسية والتركية منذ يكون رضيعاً ، فلا فخر له في تعلم ذلك وخصوصاً في عصر قد حارب فيه أهل البصرة والشام والنهروان وقد اعتورته الأعداء وهجته الشعراء ؟ قال فيه النعمان بن بشير :

لَقَدْ طَلَبَ الْخِلَافَةَ مِنْ بَعِيدٍ وَسَارَعَ فِي الضَّلَالِ أَبُو تَرْابٍ
مُعَاوِيَةُ الْإِمَامُ وَأَنْتَ مِنْهَا عَلَى وَصَحٍ يَمْنُقُطَعُ السَّرَابِ

وقال فيه أيضاً بعض الخوارج :

دَسَنَّا لَهُ نُصَّتَ الظَّلَامِ ابْنُ مَلْجَمٍ جَزَاءُ إِذَا مَا جَاءَ قَتَا كِتَابُهَا
أَبَاحَسَنَ خُذَهَا عَلَى الرَّأْسِ ضَرْبَةً يَكْفِ كَرِيمٍ بَعْدَ مَوْتِ تَوَابُهَا

وقال عمرانُ بْنُ حِطَّانٍ يمدح قاتله :

بِأَضْرَبَةٍ مِنْ نَبِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّا لِيَلْبِغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانَا
إِنِّي لَا ذِكْرُهُ حِينًا فَأَحْسَبُهُ أَذْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانَا

فلو وجد هؤلاء سبيلا إلى دحض حجته فيما كان يفخر به من تقديم إسلامه لبعدوا بذلك وتركوا مالا معنى له . وقد أوردنا ما مدحه الشعراء به من سبقه إلى الاسلام ، فكيف لم يرد على هؤلاء الذين مدحوه بالسبق شاعر واحد من أهل حربه ؟ ولقد قال في أمهات الأولاد قولاً خالف فيه عمر فذكره بذلك وعابوه ، فكيف تركوا أن يسيبوه بما كان يفخر به مما لا فخر فيه عندهم وعابوه بقوله في أمهات الأولاد ؟

ثم يقال له : خبرنا عن عبد الله بن عمر وقد أجازاه النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ولم يحجزه يوم أحد ، هل تميز ما ذكرته ؟ وهل كان يعلم فرق ما بين النبي والمنبي ؟ ويفصل بين السحر والمعجزة ، إلى غيره مما عدت وفصلت ؟ فان قال : نعم وتجنس على ذلك قيل له : فلي عليه السلام بذلك أولى من ابن عمر . لأنه أذكي وأفطن بلا خلاف بين العقلاء ، وأنى يشك في ذلك وقد رويتم أنه لم يميز بين الميزان والعود بعد طول السن وكثرة التجارب ؟ ولم يميز أيضاً بين إمام الرشد وإمام النقي . فانه امتنع من يمة على عليه السلام وطرق على الحجاج بابه ليلا ليباع لبعيد الملك كيلا يبيت تلك الليلة بلا إمام زعم لأنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من مات ولا إمام له مات ميتة جاهلية . وحتى بلغ من احتقار الحجاج له واسترداله حاله أن أخرج رجله من القراش وقال : أصفق يدك عليها ! ؟ فذلك تمييزه بين الميزان والعود ، وهذا اختياره في الأئمة ! ؟ وحال على عليه السلام في ذكائه وقطلته وتوقد حبه وصدق حسه معلومة مشهورة ، فاذا جاز أن يصح إسلام ابن عمر ويقال عنه انه عرف تلك الأمور التي سردها الجاحظ ونسبها وأظهر فصاحته وتصادقه فيها ، فلي بمرقة ذلك أحق وبصحة

إسلامه أولى . وإن قال : لم يكن ابن عمر يعلم ويصرف ذلك . أبطل اسلامه وطعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث حكم بصحة إسلامه وأجازه يوم الخندق لأنه عليه الصلاة والسلام كان قال : لا أحيز إلا البالغ الماقل . ولذلك لم يحزه يوم أحد

ثم يقال له : إن ما قوله في بلوغ على عليه السلام الحد الذي يحسن فيه التكليف العقلي بل يجب وهو ابن عشر سنين ليس بأعجب من مجيء الولد سنة أشهر ؟ وقد صحح ذلك أهل العلم واستنبطوه من الكتاب . وإن كان خارجاً عن التعارف والتجارب والمادة ! وكذلك مجيء الولد لستين خارجاً أيضاً عن التعارف والمادة ؟ وقد صححه الفقهاء والناس . ويروى أن معاذاً لما نهي عمر عن رجم الحامل تركها حتى ولدت غلاماً قد نبئت ثيئته قتل أبوه : إني ورب الكعبة . ثبت ذلك سنة يسلم بها الفقهاء . وقد وجدنا المادة قضى بأن الجارية تحيض لاثنتي عشرة سنة وأنه أقل سن تحيض فيه المرأة ، وقد يكون في الأقل نساء يحضن لعشر ولتسع ، وقد ذكر ذلك الفقهاء ، وقد قال الشافعي في اللعان : لو جاءت امرأة بحمل وزوجها صبي له دون عشر سنين لم يكن ولداً له لأن من لم يبلغ عشر سنين من الصبيان لا يولد له ، وإن كان له عشر سنين جاز أن يكون الولد له وكان بينهما لعان إذا لم يقر به . وقال الفقهاء أيضاً : إن نساء تهامة يحضن لتسع سنين ، لشدة الحر يبلادهن

قال أبو جعفر :

٤ — إن مثل الجاحظ في فضله وعلمه لا ينبغي عليه كذب هذه الدعوى وفادها ، ولكنه يقول ما يقول تصبياً وعناداً . وقد روى الناس كافة افتخار على عليه السلام بالسبق إلى الإسلام ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم استنبح يوم الاثنين وأسلم على يوم الثلاثاء ، وأنه كان يقول : صليت قبل الناس سبع سنين ، وأنه مازال يقول : أنا أول من أسلم ويفتخر بذلك ويفتخر له به أولياؤه ومادحوه

وشيعته في عصره . وبعد وفاته ، والأمر في ذلك أشهر من كل شهر . وقد قدمنا منه طرفا . وما علمنا أحدا من الناس فيما خلا استخف بإسلام على عليه السلام ولاهاون به ولازعم أنه أسلم إسلام حدث غريو وطفل صغير . ومن العجب أن يكون مثل العباس وحمة ينتظران أبا طالب وقوله ليصدرا عن رأي ثم يختلفه على ابنه لغير رغبة ولا رهبة ، يؤثر القلة على الكثرة ، والقل على العزة ، من غير علم ولا معرفة بالسابقة ؟ وكيف ينكر الجاحظ والعمانية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه إلى الإسلام وكلفه التصديق ؟ ! وروي في الخبر الصحيح أنه كلفه في مبدأ الدعوة قبل ظهور مكة الإسلام وانتشارها بمكة أن يصنع له طعاما وأن يدعو له نبي عبد المطلب . فصنع له الطعام ودعاهم له فخرجوا ذلك اليوم ولم يتنذرهم صلى الله عليه وسلم لكلمة قالها عمه أبو لهب . فكلفه اليوم الثاني أن يصنع مثل ذلك الطعام وأن يدعوهم ثانية . فصنعه ودعاهم فأكلوا ثم كلهم صلى الله عليه وسلم فدعاهم إلى الدين ودعاه معهم لأنه من نبي عبد المطلب ثم ضمن لمن يوازره منهم ويفضره على قوله أن يجعله أخاه في الدين ووصيه بعد موته وخليفته من بعده . فأمسكوا كلهم وأجابوه هو وحده وقال : أنا أنصرك على ما جئت به وأوازرك وأبايكم . فقال لهم لما رأى منهم الخذلان ومنه النصر ، وشاهد منهم العصية ومنه الطاعة ، وعابن منهم الأباة ومنه الإجابة : هذا أخي ووصي وخليفتي من بعدي . فقاموا يسخرون ويضعكون ويقولون لأبي طالب : أطلع ابنك قد أمره عليك ؟؟ فهل يكلف عمل الطعام ودعاء القوم صغير غير مميز وغر غير عاقل ؟ وهل يؤتمن على سر النبوة طفل ابن خمس سنين أو ابن سبع ؟ وهل يدعى في جملة الشيوخ والكهول إلا عاقل لبيب ؟ وهل يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في يده ويعطيه صفقة يمينه بالأخوة والوصية والخلافة إلا وهو أهل لذلك بالغ حد التكليف محتمل للولاية الله وعداوة أعدائه ؟ وما بال هذا الطفل لم يأنس بأقرانه ولم يلصق بأشكاله ولم يرمع الصبيان في ملاعبهم بعد إسلامه وهو كأحدكم في طبيقته وكبعضهم

في معرفته ؟ وكيف لم ينزع إليهم في ساعة من ساعاته يقال دعاه بعض الصبا وخاطر
من خواطر الدنيا وحملتة الفترة والحدائث على حضور لموم والخنول في حالهم ؟ بل
مارأيناه إلا ماضيا على إسلامه مصما في أمره محققا لقوله بفضل ، قد صدق إسلامه
بصفاة وزهده ولصق برسول الله صلى الله عليه وسلم من بين جميع من بحضرته
فهو أمينه وأليفه في دنياه وآخرته . وقد قهر شهوته وجاذب خواطره صابرا على
ذلك نفسه لما يرجو من فوز الماقب وثواب الآخرة . وقد ذكر هو في كلامه وخطبه
بده حاله وافتتاح أمره حيث أسلم لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الشجرة
فأقبلت تحت الأرض فقالت قریش : ساحر خفي السحر . فقال على عليه السلام :
يا رسول الله أنا أول من يؤمن بك ، آمنت بالله ورسوله وصدقت بك فيما حث
به وأنا أشهد أن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تصديقا لتبوتك وبرهاننا على
صحة دعوتك . فهل يكون إيمان قط أصح من هذا الإيمان وأوثق عقدة وأحكم
مرة ؟ ولكن حق التمانية وضيظهم وعصبية الجاحظ وانحرافه مما لاحيلة فيه .

ثم لينظر النصف وليدع الهوى جانبنا ليعلم نعمة الله على على عليه السلام
بالإسلام حيث أسلم على الوضع الذي أسلم عليه فإنه لولا الأنطاف التي خص
بها والهداية التي منحها لما كان إلا كبيض أقارب محمد صلى الله عليه وسلم فقد
كان يمازجها كما زجته ومخالطها كخالطة كثير من أهله ورهطه ولم يستجب
منهم أحد له إلا بحدحين ، ومنهم من لم يستجب له أصلا ، فإن جعفرأ كان ملتصقا
به ولم يسلم حينئذ ، وكان عتبة بن أبي لهب ابن عمه وصهره زوج ابنته ولم يصدقه
بل كان شديدا عليه ، وكان خديجة بنون من غيره ولم يسلموا حينئذ وهم ربابه
ومعه في دار واحدة ، وكان أبو طالب أباه في الحقيقة وكافله وناصره والحامي عنه
ومن لولاه لم تقم له قائمة ومع ذلك لم يسلم — في أغلب الروايات — وكان
العباس عمه وصنوايه وكأثرين له في الولادة والمنشأ والقرية ولم يستجب له
إلا بعد حين طويل . وكان أبو لهب عمه وكلمه ولحه ولم يسلم وكان شديدا عليه

فكيف ينسب إسلام على عليه السلام إلى الإلصاق والترية والقرابة واللحمة والتلقين والحضانة والدار الجامعة وطول العشرة والأنس والخلفة ، وقد كان كل ذلك حاصلًا لهؤلاء أولئك كثير منهم ولم يهتد أحد منهم إذ ذاك ؟ بل كانوا بين جعد وكفر ، ومنهم من مات على كفره ، ومن أبطأ وتأخر وسبق بالإسلام وجاء سكينًا وقد فاز بالنزلة غيره . وهل يدل تأمل حال على عليه السلام مع الإنصاف إلا على أنه أسلم لأنه شاهد الأعلام ورأى المعجزات وشم ريح النبوة ورأى نور الرسالة وثبت اليقين في قلبه بمعرفة وعلم ونظر صحيح لا بتقليد ولا حمية ولا رغبة ولا رهبة . إلا فيما يتعلق بأمور الآخرة .. !

قال أبو جعفر :

٥ - — ينبغي أن ينظر أهل الانصاف هذا الفصل ، ويقفوا على قول الجاحظ والأصم في نصرته الثمانية واجتهادهما في القصد إلى فضائل هذا الرجل وتهجينها ، فمرة يطلان منها ، ومرة يتوصلان إلى حط قدرها . فلينظر في كل باب اعتراض فيه أين بلغت حيلتهما وما صنعا في احتيالهما في قصصهما وسجسهما ! أليس إذا تأملتها علمت أنها ألفاظ ملفقة بلا معنى وأنها عليها شجى وبلاء ؟ وإلا فاعسى أن تبليغ حيلة الحاسد وينفى كيد الكائد الثاني . لمن قد جل قدره عن النقص وأضاءت فضائه إضاءة الشمس ؟

وأين قول الجاحظ من دلائل السماء وبراهين الأنبياء ، وقد علم الصغير والكبير والعالم والجاهل ممن بلغه ذكر على عليه السلام وعلم مبعث النبي صلى الله عليه وسلم أن عليًا لم يولد في دار الإسلام ، ولا غدى في حجر الإيمان ، وإنما استضافه النبي صلى الله عليه وسلم إلى نفسه سنة التقط والجماعة وعمره يومئذ ثماني سنين فكث مع سبع سنين حتى أناه جبريل بالرسالة فدعاه وهو بالغ كامل العقل إلى الإسلام فأسلم بعد مشاهدة المعجزة وبعد إعمال النظر والفكرة . وإن كان

قد ورد في كلامه أنه صلى سبع سنين قبل الناس كلهم قائما يعني ما بين الثمان والخمس عشر ، ولم يكن حينئذ دعوة ولا رسالة ولا ادعاء نبوة ، وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد على مله إبراهيم ودين الحنيفية ويتحنث ويحاسب الناس ويمتزل ويطلب الخلوة وينقطع في جبل حراء ، وكان على عليه السلام معه كالتابع والتليف ، فلما بلغ الحلم وجاءت النبي صلى الله عليه وسلم الملائكة وبشرته بالرسالة دعه فأجابه عن فطر ومعرفة بالأعلام المعجزة . فكيف يقول الجاحظ إن إسلامه لم يكن مقتضياً ، وإن كان إسلامه ينقص عن إسلام غيره في المضيلة لما كان يبرن عليه من التمدد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الدعوة ليكون طاعة كثير من المكلفين أفضل من طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمثلة من المعصومين ! لأن الصمة عند أهل العدل لطف يمنع من اختصاصه من ارتكاب التبعيض . فمن اختص بذلك اللطف كانت الطاعة عليه أسهل ، فوجب أن يكون ثوابه أقص من ثواب من أطاع مع [عدم] تلك الأنطاف .

وكيف يقول الجاحظ إن إسلامه ناقص عن إسلام غيره وقد جاء في الخبر أنه أسلم يوم الثلاثاء واستنبح النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ؟ فمن هذه حاله لم تكثر حجج الرسالة على سمعه ، ولا تواترت أعلام النبوة على مشاهدته ، ولا تطاول الوقت عليه لتخف محنته ويسقط عمل تكليفه ، بل بان فضله ، وظهر حسن اختياره لنفسه ، إذ أسلم في حال بلوغه وما عانى نوازغ طبعه ولم يؤخر ذلك بعد سماعة .

وقد غمر الجاحظ في كتابه هذا أن أبا بكر كان قبل إسلامه مذكوراً ورئيساً معروفاً ، يجتمع إليه كثير من أهل مكة فينشدون الأشعار ويتذاكرون الأخبار ويشربون الخمر ، وقد سمع دلائل النبوة وحجج الرسالة وسافر إلى البلدان ، ووصل إليه الأخبار ، وعرف دعوى الكهنة وحيل السحرة ، ومن كان كذلك كانت انكشاف الأمور له أظهر والإسلام عليه أسهل والخواطر على قلبه أقل اعتلاجاً ، وكل

ذلك عون لأنبي بكر على الاسلام ومسهل إليه سبيله ، ولذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : أتيت بيت المقدس ، سأله أبو بكر عن المسجد ومواضع فصدقه وبأن له أمره وخفت مؤنته لما تقدم من معرفته بالبيت . فخرج إذاً إسلام أبي بكر على قول الملاحظ من معنى المقتضب . وفي ذلك رويتم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا وكان له تردد ونبوة إلا ما كان من أبي بكر فإنه لم يتلمش حتى هجم به اليقين إلى المعرفة والاسلام . فأين هذا وإسلام من خلى وعقله وألمح إلى نظره مع صفر سنه واضلاع الخواطر على قلبه ونشأته في ضد ما دخل فيه ؟ والغالب على أمثاله وأقرانه حب الله واليهو ؟ فلجأ إلى ما ظهر له من دلائل الدعوة ولم يتأخر إسلامه فيلزمه التقصير بالمصية ، فمهر شهوته وغالب خواطره وخرج من عادته وما كان غدى به لصحة نظره ولطافة فكره وغامض فهمه . فمظم استنباطه ورجح فضله وشرف قدر إسلامه ، ولم يأخذ من الدنيا بتصيب ، ولا تنعم فيها بنعيم حدثاً ولا كبيراً ، وحى شه عن الهوى ، وكسر شيرة حدثاته بالتقوى ، واشتغل بهم الذين عن نعيم الدنيا ، وأشغلهم الآخرة قلبه ووجهه إليه رغبته ، فسلامه هو السبيل الذي لم يعلم عليه أحد غيره

وما سبيله في ذلك إلا كسبيل الانبياء ليعلم أن منزلته من النبي صلى الله عليه وسلم كمنزلة هرون من موسى ، وأنه وإن لم يكن نبياً فقد كان في سبيل الانبياء سالكا ولنهاجهم متبعا ، وكانت حاله كحل إبراهيم عليه السلام . فان أهل العلم ذكروا أنه لما كان صغيراً جعلته أمه في سرب لم يطلع عليه أحد ، فلما نشأ ودرج وعقل قل لأمه : من ربى ؟ قالت : أبوك . قل : فمن رب أبي ؟ فزيرته ونهرته . إلى أن طلع من السرب فرأى كوكبا فقال : هذا ربى . فلما أفل قال : لا أصبه الآفلين . فلما رأى القمر بازعا قال : هذا ربى . فلما أفل قال : لن لم يهدى ربى لا كون من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى . فلما أفلت قال : يا قوم إني برى بما تشركون ، إني وجهت وجهي

لَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَهَذَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه : « وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » وعلى هذا كان إسلام الصديق الأكبر عليه السلام .
لسنا نقول : إنه كان مساويا له في النضية ! ولكن كان مقتديا بطريقه على ما قال الله تعالى : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ »

وأما اعتلال الجاحظ بأن له ظهراً كأبي طالب ورداً كبنی هاشم ، فإنه يوجب عليه أن يكون محمداً أبي بكر وبلال وثوابهما وفضل إسلامهما أعظم مما لرسول الله صلى الله عليه وسلم الآن أبا طالب ظهره وبنی هاشم رذوه ! وحسبك جهلا من معاند لم يستطع حط قدر على عليه السلام إلا بحطه من قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ولم يكن أحد أشد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرابته الأذى منهم فالأذى كأبي لهب عمه ، وامرأة أبي لهب وهي أم جميل بنت حرب ابن أمية واحدى أولاد عبد مناف ، ثم ما كان من عُقبة بن أبي معيط وهو ابن عمه ، وما كان من النضر بن الحارث وهو من بنی عبد الدار بن قصي وهو ابن عمه أيضا ، وغير هؤلاء ممن يطول تعداده . وكلهم كان بطرح الأذى في طريقه وينقل أخباره ويرميه بالحجارة ويرمي الكرش والفرث عليه . وكانوا يؤذون عليا عليه السلام كأذاه ، ويجهتدون في غمه ويستهزئون به . وما كان لأبي بكر قرابة تؤذيه كقرابة علي ، ولما كان بين علي وبين النبي صلى الله عليه وسلم من الاتحاد والإلف والاتفاق أحجم المناقون بالدينة عن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفا من سيفه ، وأنه صاحب الدار والجيش وأمره مطاع وقوله نافذ ، تخافوا على دمايتهم منه فاقوه وأمسكوا عن إظهار بغضه وأظهروا بغض علي عليه السلام وشأنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حقه - في الخبر الذي روى في جميع الصحاح - : لا يجنبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق . وقال كثير من

أعلام الصحابة - كما روى في الخبر المشهور بين الحديثين - : ما كنا نعرف المناقنين إلا يتنص على بن أبي طالب . وأين كان ظهر أبي طالب عن جعفر وقد أزعجه الأذى عن وطنه حتى هاجر إلى بلاد الحبشة وركب البحر ؟ أيتمم الجاحظ أن أبا طالب نصر عليا وخذل جعفرا ؟

قال أبو جعفر :

٦ - أما ما ذكر من كثرة المال والصدق واستفاضة الذكر وبعد الصيت وكبر السن ، فكله عليه لاله . وذلك لأنه قد علم أن من سيرة الرب وأخلاقها حفظ الصديق والوفاء بالقيام والتبليغ لدى الثروة واحترام ذي السن العالية ، وفي كل هذا ظهر شديد وسند وثقة يستمد عليها عند المحن ، ولذا كان الرب منهم إذا تمكن من مديقه أقر عليه واسجيا منه وكان ذلك سببا لتجاراته والمغفرة عنه وعلى أن على بن أبي طالب إن لم يكن شهره سنة فقد شهره نسبة وموضعه من بني هاشم ، وإن لم يستنص ذكره بلقاء الرجال وكثرة الأسفار استفاد من أبي طالب ، فأنتم تعلمون أنه ليس تيم في بعد الصيت كهاشم ، ولا أبو صفانة كابي طالب ، وعلى حسب ذلك يملو ذكر التقى على ذي السن ويعد صيت الحدث على الشيخ . ومعلوم أيضا أن عليا على أعناق الشركين أثقل إذ كان هاشميا وأن كان أبوه حامى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنازع لحوزته ، وعلى هو الذى فتح على العرب باب الخلاف واستهان بهم بما أظهر من لاسلام والصلاة وخاف رده على وعشيرته وأطاع ابن عمه فيما لم يعرف من قبل ولا عهد له نظير ، كما قال تعالى : وَلِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فِيهِمْ غَافِلُونَ ، ثم كان بعد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشتكى حزنه وأنيبه فى خلوته وجليسه وأليفه فى أيامه كلها ، وكل هذا يوجب التحريض عليه ومعاداة العرب له

ثم أنتم معاشر العمانية تثبتون لابي بكر فضيلة بصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب ودخوله معه فى النار فقلتم مرتبة شريفة ، وحالة جليلة ،

إذ كان شريكاً في الهجرة وأنيب في الوحشة فأبى هذه من صعبة على له في خلوته
وحيث لا يجد أنيساً غيره ليله ونهاره أيام مقامه بمكة يبعد الله عنه سرا ويتكلف
له الحاجة جهراً ، ويخدمه كالمد يخدم مولاه ، ويشفق عليه ويحوطه ، وكلولديه
والله ويهطف عليه ؟ ولا سئلت عائشة : من كان أحب الناس إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : أما من الرجال فلي ، وأما من النساء ففاطمة .

قال أبو جعفر

٧ - أما القول فممكن ، والعوي سهلة ، سيما على مثل الجاحظ ، فإنه
ليس على لسانه من دينه وعقله رقيب ، وهو من دعوى الباطل غير بعيد . فنهاه
نزر ، وقوله لنوء ومطلبه سجع ، وكلامه لعب وهو يقول الشيء وخلافه ، ويحس
القول وضده ، ليس له من نفسه واعظ ، ولا لدعواه حد قائم ، وإلا فكيف تجلس
على القول بأن علياً حينئذ لم يكن مطلوباً ولا طالباً ؟ وقد بينا بالأخبار الصحيحة
والحديث المرفوع المسند أنه كان يوم أسلم بالثأ كالمنايا بلسانه وقلبه لمشركي
قريش ، ثم على قلوبهم ، وهو المخصوص دون أبي بكر بالحصار في الشعب ،
وصاحب الخلوات برسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الظلمات ، التي تجزع لنقص
المرار من أبي لهب وأبي جهل وغيرهما ، والمصطفى لكل مكروه ، والشريك لنبيه
في كل أذى ، قد نهض بالجلل الثقيل ، وبان بالأمر الجليل . ومن الذي كان يخرج
ليلاً من الشعب على هيئة السارق ويخفي نفسه ويضائل شخصه حتى يأتي إلى من
يشه إليه أبو طالب من كبار قريش كطعم بن عدى وغيره ، فيحمل لبني هاشم
على ظهره أعدال البقيق والقصح ، وهو على أشد خوف من أعدائهم كأبي جهل
 وغيره لو ظفروا به لأراقوا دمه . أعلى كان يفعل ذلك أيام الحصار في الشعب أم
أبو بكر ؟ وقد ذكر هو عليه السلام حاله يومئذ فقال في خطبة له مشهورة : فتماقدوا
ألا يملولنا ولا يتأكولنا وأوقدت الحرب علينا غيرنا واضطربنا إلى جبل وعمر ،
مؤمناً يرجو الثواب وكافراً يحصى عن الأصل ، ولقد كانت القبائل كلها اجتمعت

عليهم وقطعوا عنهم المائدة والميرة فكانوا يتوقعون الموت جوعاً صباحاً ومساءً ، لا يرون وجهاً ولا فرجاً ، قد اضطلع عزمهم واقطع رجائهم . فن الذي خلص إليه مكروه تلك المحن بمد محمد صلى الله عليه وسلم إلا على عليه السلام وحده ؟ وما عسى أن يقول الواصف والمطنب في هذه القضية من قصص معانيها وبلوغ غاية كنهها وقضية الصابر عندها ؟ ودامت هذه المحنة عليهم ثلاث سنين حتى أخرجت عنهم قصة الصعيفة . والقصة مشهورة .

وكيف يستحسن الجاحظ لنفسه أن يقول في على عليه السلام أنه قبل الهجرة كان وادعاً رافقاً لم يكن مطلوباً ولا طالباً وهو صاحب التراش الذي فدا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ووقاه بهجته واحتمل السيوف ووضخ بالحجارة دونه ؟ وهل ينتهى الواصف وإن أظنّب ، والدلاح وإن أسهب ، إلى الإبانة عن مقدار هذه القضية ، والإيضاح بجزية هذه الخبيصة ؟

فأما قوله إن أبا بكر عذب بمكة فانا لا نعلم أن العذاب كان واقعاً إلا ببعد أبو عبيد أولئك لا عشرة له تتمه ؟ فأتى في أبي بكر بين أمرين تارة يحملونه دخيلاً ساقطاً وهجيناً رذيلاً ومستضعفاً ذليلاً ، وتارة يحملونه رئيساً متبجحاً وكبيراً معظماً ؟ فاعتمدوا على أحد القولين لتكلمكم بحسب ما تختارونه لأنفسكم . ولو كان الفضل في الفتنة والعذاب لكان عمارٌ وخبابٌ وبلالٌ وكل منبذ بمكة أفضل من أبو بكر ، لأنهم كانوا من العذاب في أكثر مما كان فيه ، ونزل فيهم من القرآن ما لم ينزل فيه ! كقوله تعالى : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَدَا غُلُوفًا » قالوا : نزلت في خباب وبلال ، ونزل في عمار قوله « إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر على عمار وأبيه وأمه وهم يهذبون ، يهذبهم بنو مخزوم لأنهم كانوا حلفاءهم ، فيقول : صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة . وكان بلال يلقب على الرضاء وهو يقول : أحد أحد . وما سمعنا لأبي بكر في شيء من ذلك ذكرًا . ولقد كان لملي عليه السلام عنده يد غراء . - إن صح ما رووه

فَوَعَدَيْنِ - لِأَنَّهُ قَتَلَ نَوْفَلَ بْنَ حُوَيْلِدٍ وَعُمَيْرَ بْنَ عَثْمَانَ يَوْمَ بَدْرَ . ضَرَبَ نَوْفَلَ قَطْعَ سَاقِهِ فَقَالَ : أَذْكَرَكَ اللَّهُ وَالرَّحِمَ ! فَقَالَ : قَدْ قَطَعَ اللَّهُ كُلَّ رَحِمٍ وَصَهَرَ إِلَّا مَنْ كَانَ تَابِعًا لِمُحَمَّدٍ . ثُمَّ ضَرَبَهُ أُخْرَى فَفَاضَتْ نَفْسُهُ . وَصَدَّ لِعُمَيْرِ بْنِ عَثْمَانَ التَّبَسُّمُ فَوَجَدَهُ يَوْمَ الْحَرْبِ وَقَدْ أَرْتَجَ عَلَيْهِ الْمَسْلُوكُ فَضَرَبَهُ عَلَى شَرَاسِيفِ صَدْرِهِ فَصَارَ نَفْصُهُ الْأَعْلَى بَيْنَ رِجْلَيْهِ . وَلَيْسَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَطْلُبْ بَنَاءَهُ مِنْهُمْ وَيَجْتَهِدُ لَكِنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يَضِلَّ فَضَلَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَبَانَ عَلَى بَضْعِهِ دُونَهُ

قال أبو جعفر

٨ - لَا أَشْكُ أَنَّ الْبَاطِلَ خَانَ أَبَا عَثْمَانَ وَالْخَطَأَ أَقْبَدَهُ ، وَالْخَذْلَانَ أَصَارَهُ إِلَى الْحَيَرَةِ فَاَعْلَمَ وَعَرَفَ حَتَّى قَالَ مَا قَالَ ، فَرَزَعُمْ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ الْهَجْرَةِ لَمْ يَتَمَتَّعْ وَلَمْ يَكْبُدِ الْمَشَاقَّ ، وَأَنَّهُ إِذَا قَامَ إِلَى مَشَاقِّ التَّكْلِيفِ وَمَعْنَى الْإِجْلَاءِ مِنْذُ يَوْمِ بَدْرٍ ، وَنَسَى الْحَصَارَ فِي الشَّعْبِ وَمَا مَنِي بِهِ مِنْهُ ، وَأَبُو بَكْرٍ وَادِعَ رَأْيَهُ بِأَنَّ كُلَّ مَا يَرِيدُ وَيَجْلِسُ مَعَهُ مِنْ يَحِبُّ مُخْلِئَ سِرِّهِ طَيِّبَةً نَفْسُهُ ، سَاكِنًا قَلْبَهُ ، وَعَنِ يَمَانِي الْقِمَرَاتِ وَيَكْبُدِ الْأَهْوَالَ وَيَجُوعُ وَيُظْلَمُ ، وَيَتَوَقَّعُ الْقَتْلَ صَبَاحًا وَمَسَاءً ، لِأَنَّهُ كَانَ هُوَ الْمُتَوَصِّلُ الْمُحْتَالُ فِي إِحْضَارِ قُوَّةِ زَهِيدٍ مِنْ شَيْخِ قُرَيْشٍ وَعَقْلَانِهَا سِرًّا لِيَقِيمَ بِهِ رَمَقَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَنَى هَاشِمٌ وَمِنْ فِي الْحَصَارِ وَلَا يَأْمَنُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَفَاجَأَةَ أَعْدَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ بِالْقَتْلِ ، كَأَبِي جَهْلٍ بْنُ هَاشِمٍ وَعُقَيْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُنِيرَةِ وَعَتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَغَيْرُهُمْ مِنْ فِرَاعَةِ قُرَيْشٍ وَجِبَابِهَا وَلَقَدْ كَانَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ وَيَطْعَمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَادَهُ ، وَيُظْمِئُ نَفْسَهُ وَيَقْبِيهِ مَاءَهُ ، وَهُوَ كَانَ الْمَلَلُ لَهُ إِذَا مَرَضَ ، وَالْمُؤَسَّسُ لَهُ إِذَا اسْتَوْحَشَ ، وَأَبُو بَكْرٍ بَنَجْوَةً عَنْ ذَلِكَ لَا يَمْسُهُ مِمَّا يَمْسُهُمْ أَلَمٌ ، وَلَمْ يَلْحَقْهُ مِمَّا يَلْحَقُهُمْ مَشَقَّةٌ ، وَلَا يَلْمُ بَشَيْءٍ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ دُونَ التَّفْصِيلِ ثَلَاثَ سِنِينَ مُحَرِّمَةً مَعَامَلَتِهِمْ وَمُنَاسَكَتَهُمْ وَمَجَالَسَتَهُمْ بِحَبُوسٍ مَحْصُورِينَ مَمْنُوعِينَ مِنَ الْخُرُوجِ وَالتَّصَرُّفِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَكَيْفَ أَهْمَلُ

المحافظ هذه القضية ونسى هذه الخبيصة ولا نظير لها ؟ ولكن لا يزال المحافظ
 بعد أن يسوغ له لفظه ، وتتسق له خطابه ما يضع من المعنى ويرجع عليه من الخطأ
 فأما قوله : وعلموا أن العاقبة للمتقين ، فيه إشارة إلى معنى غامض قصد
 المحافظ ، يعني أن لافضيلة لملى عليه السلام في الجهاد لأن الرسول كان أعلمه
 أنه منصور وأن العاقبة له ، وهذا من دسائس المحافظ وهمزاته ولزاته ، وليس بحق
 ما قاله ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم أصحابه جملة أن العاقبة لهم ولم
 يعلم واحدا منهم بينه أنه لا يقتل ، ولا عليا ولا غيره ، وإن صح أنه كان أعلمه
 أنه لا يقتل فلم يعلم أنه لا يقطع عضو من أعضائه ، ولم يعلم أنه لا يمس ألم الجرح في
 جسده ، ولم يعلم أنه لا يناله الضرب الشديد ؟ وعلى أن رسول الله صلى الله عليه
 عليه وسلم قد أعلم أصحابه قبل يوم بدر وهو يومئذ بمكة أن العاقبة لهم كما أعلم
 أصحابه بعد الهجرة ذلك ؟ فإن لم يكن لملى والمجاهدين فضيلة في الجهاد وبعد الهجرة
 لا علامه إليهم ذلك فلا فضيلة لأبي بكر وغيره في احتمال الشاق قبل الهجرة لا علامه
 إليهم بذلك ؟ قد جاء في الخبر أنه وعد أبا بكر قبل الهجرة بالنصر ، وأنه قال له :
 أرسلت إلى هؤلاء بالهجرة وأن الله سيفتقنا أموالهم ويمسكنا ديارهم . فالتول
 في الموضعين متساو ومتفق

قال أبو جعفر :

٩ - ما نرى المحافظ احتج لكون أبي بكر أعظمهم وأشدهم محنة إلا بقوله
 لأنه أقام بمكة مدة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم بها ، وهذه الحجة لا تخص
 أبا بكر وحده لأن عليا أقام معه هذه المدة وكذلك طلحة وزيد وعبد الرحمن وبلال
 وغيرهم وقد كان الواجب عليه أن يخص أبا بكر وحده بمحنة تدل على أنه كان
 أعظم الجماعة وأشدهم محنة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا احتجاج في نفسه
 فاسد ، ثم يقال له : ما بالك أهملت أمر مبيت علي على الفراش بمكة ليلة الهجرة ؟
 هل نسيته أم تناسيته فإنها المحنة العظيمة والفضيلة الشريفة التي متى امتحنها الناظر

وأجال فكره فيها رأى تحتها فضائل متفرقة ، ومتنقبة متقاورة ، وذلك أنه لا استقر الخبر عند المشركين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع على الخروج من بينهم الهجرة إلى غيرهم قعدوا معاجلة وتعاقدوا على أن يبيتوه في فراشه وأن يضربوه بأسيايف كثيرة يد كل صاحب قبيلة من قريش سيف منها ليضع دمه بين الشعوب ويفرق بين القبائل ، ولا يطلب بنو هاشم دمه قبيلة واحدة بينها من بطون قريش ، وتحالفوا على تلك اليلة واجتمعوا عليها . فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من أمرهم دعا أوثق الناس عنده وأمثلهم في نفسه وأبلغهم في ذات الله لهجته وأسرعهم إجابة إلى طاعته ، فقال له : إن قريشاً قد تحالفت على أن تبيتني هذه اليلة ، فامض إلى فراشي ونم في مضجعي والتف في بردي الحضرمي ليروا آتي لم أخرج ، وإني خارج إن شاء الله . فنه أولا من التعرّض وإعمال الحيلة ، وصده عن الاستظهار لنفسه بنوع من أنواع المكاييد والجهات التي يحتاط بها الناس لنفوسهم ، وألجأه إلى أن يمرض منه لطبات السيوف الشحينة من أيدي أرباب الحق والصفينة . فأجاب إلى ذلك سلماً مطيعاً طيبة بها نفسه ، ونلم على فراشه صابراً محتسباً وإتياله بمهجته ، ينتظر القتل . ولا نلم فوق بذل النفس درجة يلتزمها صابر ولا يئله طالب ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود . ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علم أنه أهل لتلك لما أهله ، ولو كان عنده قص في صبره أو في شجاعته أو في مناصحته لابن عمه واختير لتلك لكان من اختاره صلى الله عليه وسلم متقوماً في رأيه مضراً في اختياره ، ولا يجوز أن يقول هذا أحد من أهل الأسلام . وكلهم مجمعون على أن الرسول صلى الله عليه وسلم عمل الصواب وأحسن في الاختيار . ثم في ذلك إذا تأمل التأمل وجوه من الفضل :

منها أنه وإن كان عنده في موضع الثقة فإنه غير مأمون عليه أن لا يضبط السر فيفسد التدبير بإفشائه تلك اليلة إلى من يلتزمه إلى الأعداء .

ومنها أنه وإن كان صابلاً للسرمة عند من اختاره فغير مأمون عليه الجبن

عند مفاجأة المكروه ومباشرة الأحوال ، فيفر من القرش فيقطن لموضع الحيلة ويطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيظفر به .

ومنها أنه وإن كان ممة ضابطا للشر شجاعا نجدا قلعله غير محتمل للمبيت على القرش لأن هذا أمر خارج عن الشجاعة إذ كان قد أقامه مقام المكتوف المنوع بل هو أشد مشقة من المكتوف المنوع ، لأن المكتوف المنوع يعلم من نفسه أنه لا سبيل له إلى الهرب وهذا يجد السبيل إلى الهرب وإلى الفزع عن نفسه ولا يهرب ولا يقاتع .

ومنها أنه وإن كان ممة عنده ضابطا للشر شجاعا محتملا للمبيت على القرش فإنه غير مأمون أن يذهب صبره عند القوة الواقعة والذئاب النازلة بساحته حتى ييوح بما عنده ويصير إلى الإقرار بما يله ، وهو أنه أخذ طريق كذا ، فيطلب فيؤخذ .

فهذا قال علماء المسلمين : إن فضيلة عليّ تلك الحيلة لا نعلم أحدا من البشر نال مثلها إلا ما كان من إسحق وإبراهيم عند استسلامه للذبح . ولولا أن الأنبياء لا يفضلهم غيرهم لقلنا إن محنة عليّ أعظم ، لأنه قد روى أن إسحق تلكا لما أمره أن يضطجع وبكى على نفسه ، وقد كان أبوه يعلم أن عنده في ذلك وقعة ، ولذلك قال له : فانظر ماذا ترى . وحال عليّ بخلاف ذلك لأنه ما تلكا ولا تمنع ولا تغير لونه ولا اضطربت أعضاؤه . ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يشيرون عليه بالرأى المخالف لما كان أمر به وتقدم فيه فيتركه ويعمل بما أشاروا به كما جرى يوم الخندق في معانته الأحزاب بثلاث تمر المدينة ، فإنهم أشاروا عليه بترك ذلك فتركه . وهذه كانت قاعدته معهم وعلاته بينهم وقد كان لعل أن يتل بلة وأن يقف ويقول يا رسول الله أكون ملك أحيك من العدو وأذب بسيفي عنك فلست مستغنيا في خروجك عن مثلي ، ونجمل عبدا من عبيدنا في فراشك قائما مقامك يتوم التوم برويته نائما في يردك أنك لم تخرج ولم تارق مركزك . فلم يقل ذلك

ولا تحبس ولا توقف ولا تلثم ، وذلك لعل كل واحد منهما أن أحدا لا يصبر على تحمل هذه الحنة ولا يتورط هذه الملحة إلا من خصه الله تعالى بالصبر على مشقتها والتور بفضيلتها

وله من جنس ذلك أفعال كثيرة ، كيوم دعا عمرو بن عبد ود المسلمين إلى المبارزة فأحجم الناس كلهم عنه لما علموا من بأسه وشدة ثم كر النداء فقام على فقال : أنا أبرز إليه ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه عمرو ! قال : نعم وأنا على ! فأمره بالخروج إليه فلما خرج قال صلى الله عليه وسلم : أبرز الإيعان كله إلى الشرك كله . وكيوم أخذ حيث حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبطال قريش وهم يقصدون قتله فقتلهم دونه حتى قال جبريل : يا محمد إن هذه هي المواساة ! قال : إنه مني وأنا منه . فقال جبريل : وأنا منكما . ولو عددنا أيامه ومقاماته التي شرى فيها نفسه لله تعالى لأطلنا وأسهبنا

قال أبو جعفر :

١٠ — هذا فرق غير مؤثر ، لأنه قد ثبت بالتواتر حديث القرائن فلا فرق بينه وبين ما ذكر في نص الكتاب ولا يجده إلا مجنون أو غير مختلط لأهل اللذة . أرايت كون الصلوات خسا ، وكون زكاة الذهب ربع العشر ، وكون خروج الربح ناقضا للطهارة ، وأمثال ذلك مما هو معلوم بالتواتر حكمه ، هل هو مخالف لما نص في الكتاب عليه من الأحكام ؟ هذا مما لا يقوله رشيد ولا عاقل ! على أن الله تعالى لم يذكر اسم أبي بكر في الكتاب ، وإنما قال : « إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ » وإنما علمنا أنه أبو بكر بالخبر وما ورد في السير ، وقد قل أهل التفسير : إن قوله تعالى « وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » كناية عن علي ، لأنه مكر بهم . وأول الآية « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » أنزلت في ليلة الهجرة ، ومكرهم كان توزيع السيوف على بطون قريش ، ومكر الله تعالى هو منام علي على القرائن ، فلا فرق

بين الموضعين في أنهما مذ كوران كناية لا تصرحاً. وقد روى المفسرون كلهم أن قول الله تعالى « وَمَنْ يَشْرِهِ قَسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ » أنزلت في علي ليلة البيت على القرائن. فهذه مثل قوله تعالى « إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ » لافرق بينهما قال أبو جعفر :

١١- هذا هو الكذب الصراح والتحريف والإدخال في الرواية ما ليس منها ، والمعروف النقول أنه صلى الله عليه وسلم قال له : اذهب فاضطجع في مضجعي وتتش يبردى الحصرى فان القوم سيفقدوني ولا يشهدون مضجعي فظلمهم إذا رأوك يسكنهم ذلك حتى يصبحوا ، فإذا أصبحت فاغد في أدا ، أمانتي ، ولم ينقل ما ذكره الجاحظ ، وإنما والله أبو بكر الأصم وأخذه الجاحظ ولا أصل له . ولو كان هذا صحيحاً لم يصل إليه منهم مكروه ، وقد وقع الاتفاق على أنه ضرب ورمى بالحجارة قبل أن يملأوا من هو حتى تضور ، وأنهم قالوا له : رأينا تضورك ، فإنا كنا نرمي محمداً ولا يتضور . ولأن لفظة المكروه — إن كان قالها — إنما يراد بها القتل فهب أنه أمن القتل كيف يأمن من الضرب والموان ومن أن يقطع بعض أعضائه وإن سلمت نفسه ؟ أليس الله تعالى قال لنبيه « بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » ؟ ومع ذلك فقد كُسرَت رباعيته وشُجَّ وجهه وأدميت ساقه . وذلك لأنها عصمة من القتل خاصة . وكذلك المكروه الذي أو من على منه — إن كان صح ذلك في الحديث — إنما هو مكروه القتل . ثم يقال له : وأبو بكر لا فضيلة له أيضاً في كونه في النار ! لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » ومن يكن الله معه فهو آمن لمحنة من كل سوء . فكيف قلت ولم ينقل ناقل أنه قال لأبي بكر في الغار مثل ذلك ؟ فكل ما يجيب به عن هذا فهو جوابنا عما أوردته فتقول له : هذا ينقلب عليك في النبي صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى وعده بظهور دينه وعاقبته ! فيجب على قولك أن لا يكون مثاباً عند الله تعالى على ما يحتمله من المكروه ولا ما يصيبه من الأذى إذ كان قد أيقن بالسلامة والفتح في عِدته !

قال أبو جعفر

١٢ — إن أبا عثمان يجر على نفسه مالا طاعة له به من مطاعن الشيعة ، ولقد كان في غنية عن التعلق بما تعلق به . لأن الشيعة تزعم أن هذه الآية بأن تكون طعناً وعباً على أبي بكر أولى من أن تكون فضيلة ومتقبة له . لأنه لما قال : لا تحزن . دل على أنه قد كان حزن وقنط وأشفق على نفسه . وليس هذا من صفات المؤمنين الصابرين . ولا يجوز أن يكون حزنه طاعة لأن الله تعالى لا ينهي عن الطاعة . فلو لم يكن ذنباً لم ينه عنه . وقوله إن الله معنا . أي إن الله عالم بحالنا وما نضمره من اليقين أو الشك ، كما يقول الرجل لصاحبه : لا تضمرن سوءاً ولا تنوين قبيحاً فإن الله تعالى يعلم ما نسرّه وما نملنه . وهذا مثل قوله تعالى « ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » أي هو عالم بهم . وأما السكينة فكيف يقول إنها ليست راحة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبمدها قوله « وأيدهم بجنود لم تروها » أترى المؤيد بالجنود كان أبا بكر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وقوله إنه مستغن عنها ليس بصحيح ، ولا يستغنى أحد عن ألطاف الله وتوفيقه وتأيدته وثبوت قلبه . وقد قال الله تعالى في قصة حُنين « وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينة على رسوله » وأما المصحة فلا تدل إلا على المراقبة والاصطحاب لا غير ، وقد تكون حيث لا إيمان كما قال الله تعالى « قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك » ونحن وإن كنا نفتقد لإخلاص أبي بكر وإيمانه الصحيح السليم وفضيلته الثلمة إلا أننا لا نخرج له بمثل ما اضجع به الجاحظ من الحجج الواهية . ولا تعلق بما يجر علينا دواهي الشيعة ومطاعنها !

قل أبو جعفر :

١٣ — أما كثرة المستجيبين فالفضل فيها راجع إلى الجيب لا إلى الجلب . على أنا قد علمنا أن من استجاب لموسى أكثر ممن استجاب لنوح عليهما السلام .

وثواب نوح أكثر بصره على الأعداء ومقاساة خلافهم وعنتهم. وأنا إناق المال فأين محنة الفنى من محنة الفقر؟ وأين يتبدل إسلام من أسلم وهو غنى إن جاع أو كل وإن أعيار كعب وإن عرى لبس، قد وثق بيساره واستغنى بماله واستعان على نوائب الدنيا بثروته، بمن لا يجد قوت يومه، وإن وجد لم يستأثر به؟ فكان الفقر شامره. وفي ذلك قيل: الفقر شعار المؤمن. وقال الله تعالى لموسى: يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا قل: مرحبا بشعار الصالحين. وفي الحديث: إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بحمسة مائة عام. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ألهم احشرونى فى زمرة الفقراء. ولذلك أرسل الله محمد صلى الله عليه وسلم قديراً، وكان بالفقر سيداً، فقامى محنة الفقر ومكابدة الجوع حتى شد الحجر على بطنه، وحسبك بالفقر فضيلة فى دين الله لمن صبر عليه، فإنك لا تجد صاحب الدنيا يتمناه لأنه مناف لمال الدنيا وأهلها، وإنما هو شعار أهل الآخرة. وأما طاعة على عليه السلام وكون الجاحظ زعم أنها كانت لأن فى عز محمد عزه وعز ربه طه بخلاف طاعة أبى بكر. فهذا يفتح عليه أن يكون جهاد حمزة كذلك، وجهاد عبيدة ابن الحارث وهجرة جعفر إلى الحبشة، بل لى محاماة المهاجرين من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لأن فى دولته دولتهم، وفى نصرته استجداد ملك لهم، وهذا يجر إلى الالتئام ويفتح باب الزندقة ويفضى إلى الطعن فى الاسلام والنبوة

قال أبو جعفر:

١٤ — قد بينا فضيلة البيت على الناس على فضيلة الصحبة فى النار بما هو واضح لمن أنصف وتزيد ههنا تأكيذا بما لم نذكره فيما تقدم فنقول:

إن فضيلة البيت على الناس على الصحبة فى المارلوجين:

أحدهما: إن علما عليه السلام قد كان أنس بالنبي صلى الله عليه وسلم وحصل له بمصاحبته قديما أنس عظيم وإلف شديد، فلما فارقه علم ذلك الأنس وحصل

عليه أبو بكر فكان مايجده على من الوحشة وألم الفرة موجيا زيادة ثوابه ، لأن الثواب على قدر المشقة

وثانيهما ، أن أبا بكر كان يؤثر الخروج من مكة ، وقد كان خرج من قبل فرد ، فازداد كراهية للمقام ، فلما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وافق ذلك هوى قلبه ومحبوب نفسه ، فلم يكن له في الفضيلة ما يوازي فضيلة من احتمل المشقة العظيمة وعرض نفسه لوقع السيوف ، ورأسه لرضح الحجارة ، لأنه على قدر سهولة العبادة يكون قصان الثواب

قال أبو جعفر :

١٥ - كيف كانت بنو جمح تؤذى عثمان بن مظعون وتضر به وهو فيهم ذو سطوة وقدر وترك أبا بكر يبنى مسجدا يفضل فيه ما ذكرتم ، وأنتم الذين رويتهم عن ابن مسعود أنه قال : ما صلينا ظاهرين حتى أسلم عمر بن الخطاب ؟ والذي تذكرونه من بناء المسجد كان قبل إسلام عمر ؟ فكيف هذا ؟ وأما ما ذكرتم من رقة صوته وعنت وجهه ، فكيف يكون ذلك وقد روى الواقدي وغيره أن عائشة رأت رجلا من العرب خفيف المارضين ، معروق الخدين ، غائر العينين ، أجنى لا يمسك إزاره قالت : ما رأيت أشبه بأبي بكر من هذا ! فلا نراها دلت على شيء من الجمال في صفته

قال أبو جعفر :

١٦ - هذا الكلام وهجر السكران سواء في تقارب الخرج واضطراب المعنى . وذلك أن قريشا لم تقدر على أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو طالب حتى يمنه ، فلما مات طلبته لتقتله فخرج تارة إلى بني عامر ، وتارة إلى ثيف ، وتارة إلى بني شيبان ، ولم يكن يتجسر على المقام بمكة إلا مستترا حتى أجاره مطعم ابن عدي . ثم خرج إلى المدينة فبذلت فيه مائة بئر لثمة حنقها عليه حين فاتها فلم تقدر عليه . فاجلها فبذلت في أبي بكر مائة بئر أخرى وقد كان رد الجوار ونقي

بينهم فرداً لا ناصر له ولا دافع عنه يصنعون به ما يريدون ؟ إما أن يكونوا أجهل
للبرية كلها ، أو يكون الثمانية أكلب حيل في الأرض وأوقعه وجهاً . وهذا مما لم
يذكر في سيرة ولا روي في أثر ولا سمع به بشر ولا سبق الجاحظ به أحد

قال أبو جعفر

١٧ - ما أعجب هذا القول إذ تدعى الثمانية لأبي بكر الرفق في الدعاء
وحسن الاحتجاج ، وقد أسلم ومعه في منزله ابنه عبد الرحمن ، فما قدر أن يدخله
في الاسلام طوعاً بوقعه ولطف احتجابه ، ولا كرها بقطع النفقة عنه وإدخاله
المكره عليه ، ولا كان لأبي بكر عند ابنه عبد الرحمن من القدر ما يطعمه فيما يأمره
به ويدعوه إليه . كما روى أن أبا طالب قد النبي صلى الله عليه وسلم يوماً - وكان
يخاف عليه من قريش أن يقتلوه - فخرج ومعه ابنه جعفر يطلبانه فوجده قائماً
في بعض شعاب مكة يصلي وعلىَّ معه عن يمينه فلما رآهما أبو طالب قال لجعفر :
تقدم وصل جناح ابن عمك . فقام جعفر عن يسار محمد صلى الله عليه وسلم . فلما
صاروا ثلاثة تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأخرا الاخوان . فبكى أبو طالب وقال :

إِنَّ عَلِيًّا وَجَعْفَرًا مَقِيَّ عِنْدَ مُلِمِّ الْخُطُوبِ وَالنُّوْبِ
لَا تَخْذِلَا وَانصُرَا ابْنَ عَمِّكُمْ أَخِي لَأُمِّي مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَبِي
وَاللَّهِ لَا أَخْذِلُ النَّبِيَّ وَلَا يَخْذِلُهُ مِنْ بَنِي دَوْ حَسَبٍ

فتذكر الرواة أن جعفرًا أسلم منذ ذلك اليوم ، لأن أباه أمره بذلك وأطاع
أمره . وأبو بكر لم يقدر على إدخال ابنه عبد الرحمن في الاسلام حتى أقام بمكة
على كفره ثلاث عشرة سنة وخرج يوم أحد في عسكر المشركين ينادي : أنا عبد
الرحمن بن عتيق ، هل من مبارز ؟ ثم مكث بعد ذلك على كفره حتى أسلم عام
الفتح ، وهو اليوم الذي دخلت فيه قريش في الاسلام طوعاً وكرهاً ولم يجد أحد منها
على ترك ذلك سبيلاً . وأين كان رفيق أبي بكر وحسن احتجابه عند أبيه أبي

حقاهن وهما في دار واحدة ؟ هلا رفق ودعاه إلى الاسلام فأسلم ؟ وقد علم أنه بقي على الكفر إلى يوم الفتح فأحضره ابنه عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو شيخ كبير رأسه كالنخلة ففر رسول الله صلى الله عليه وسلم منه وقال : غيروا هذا فغضبوه ثم حاولوا به مرة أخرى فأسلم . وكان أبو حنيفة فقيراً مدقاً سىء الحال ، وأبو بكر عندهم كان مثيراً فأنض المال فلم يمكنه استمالته إلى الاسلام بالنفقة والاحسان . وقد كانت امرأة أبي بكر أم عبد الله ابنته — واسمها غلة بنت عبد العزي بن أسد عبد ود البامية — لم تسلم وأقامت على شركها بكملة وهاجر أبو بكر وهي كافرة . فلما نزل قوله تعالى « وَلَا تُسْكُوا يَصَّمِ الْكُوفَرِ » فطلقها أبو بكر . فن عجز عن ابنه وأبيه وامراته فهو عن غيرهم من الثرياء أعجز . ومن لم يشل منه أبوه وأبنته وامراته لا يرفق واحتجاج ولا خوفاً من قطع النفقة عنهم وإدخال المكروه عليهم فغيرهم أقل قبولاً منه وأكثر خلافاً عليه

١٨ — أخبرونا من هذا الذي أسلم في ذلك اليوم من أهل بيت أبي بكر إذا كانت امراته لم تسلم ، وابنته عبد الرحمن لم تسلم ، وأبو حنيفة لم يسلم ، وأخته أم فروة لم تسلم ، وعائشة لم تكن قد ولدت في ذلك الوقت لأنها ولدت بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بخمس سنين ، ومحمد بن أبي بكر ولد بعد مبعث الرسول بثلاث وعشرين سنة لأنه ولد في حجة الوداع ، وأسمها بنت أبي بكر التي قد روى الجاحظ هذا الخبر عنها كانت يوم مبعث رسول الله بنت أربع سنين ، وفي رواية من يقول بنت سنتين . فمن الذي أسلم من أهل بيته يوم أسلم ؟ ! نعوذ بالله من الجهل والكنب والمكابرة . وكيف أسلم سعد والزبير وعبد الرحمن بدعاء أبي بكر وليسوا من رهطه ولا من أترابه ولا من جلالته ولا كانت بينهم قبل ذلك صداقة متقدمة ولا أنس وكيد ؟ وكيف ترك أبو بكر عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة لم يدخلهما في الاسلام برفقه وحسن دعائه ، وقد زعمتم أنهما كانا يملسان إليه لعله وطريف حديثه ؟ وما بالله لم يدخل جبير بن مطعم في الاسلام وقد ذكرت أنه

أدبه وخرجه ومنه أخذ جبير العلم بأنساب قريش وماثرها ؟ فكيف عجز عن هؤلاء الذين عددناهم وهم منه بالحال التي وصفنا ، ودعاهم لم يكن بينه وبينه أنس ولا معرفة إلا معرفة عيان ؟ وكيف لم يقبل منه عمر بن الخطاب وقد كان شكله وأقرب الناس شبا به في أغلب أخلاقه ؟ وإن رجعت إلى الانصاف لتعلم أن هؤلاء لم يكن إسلامهم إلا بدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لم وعلى يديه أسلموا . ولو فكركم في حسن التآخي في الدعاء ليصحن لأبي طالب في ذلك كل شركه أضاعف ما ذكرتموه لأبي بكر ! لأنكم رويتم أن أبا طالب قال لعل : يا بني الزمه فإنه لن يدعوك إلا إلى خير . وقال لجعفر : صل جناح ابن عمك . فأسلم بقوله . ولأجله أصفق بنو عبد مناف على نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة من بني مخزوم وبني سهم وبني جحج ، ولأجله صبر بنوها شم على الحصار في الشعب . وبدعائه وإقباله على محمد صلى الله عليه وسلم أسلمت امرأته فاطمة بنت أسد ، فهو أحسن رفقاً وأمين قبيبة من أبي بكر وغيره . وما منته عن الإسلام إن ثبت أنه لم يسلم إلا قية . وأبو بكر لم يكن له إلا ابن واحد وهو عبد الرحمن فلم يمكنه أن يدخله في الإسلام ولا أمكنه إذ لم يقبل منه الإسلام أن يحمله كعبض مشركي قريش . في قلة الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه أنزل « وَأَقْدَى قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفٍّ لَكُمْ أَتَمَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَلْبِي وَهَمَّا يَسْتَفِيئَانِ اللَّهَ وَيَلْتَكِ آيِنٌ لِيْ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا . فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين » وإنما يعرف حسن رفق الرجل وتأنيبه بأن يصلح أولاً أمر بيته وأهله ثم يدعو الأقرب فالأقرب ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بثت كان أول من دعا زوجته خديجة ، ثم مكفوله وابن عمه عليا ، ثم مولاه زيداً . ثم لم يمين خالته هـ فهل رأيتم أحداً ممن كان يأوى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدارع ؟ وهل الثالث عليه أحد من هؤلاء ؟ فهكذا يكون حسن التآخي والرفق في الدعاء . هذا ورسول الله مقل وهو من جملة عيال خديجة حين بعثه الله تعالى ، وأبو بكر عندكم كانه

موسراً وكان أبوه مُقْتَرَأً وكذلك ابنه وامرأته أم عبد الله ، والموسر في فطرة العقول
أولى أن يتبع من المقتر. وإنما حسن التأتى والرفق في الدعاء ما صنعه مصعب بن
عمير لسعد بن معاذ لما دعه ، وما صنع سعد بن معاذ بين عبد الأشهل لما دعاهم ،
وما صنع بُريدة بن الحصيص بأسلم لما دعاهم ، قالوا : أسلم بدعائه ثمانون بيتاً من قومه ،
وأسلم بنو عبد الأشهل بدعاء سعد في يوم واحد . وأما من لم يسلم ابنه ولا امرأته ولا
أبوه ولا أخته بدعائه فهيئات أن يوصف ويذكر بالرفق في الدعاء وحسن التأتى والأناة
١٩ — أما بلال وعامر بن فهيرة فإنما اعتقهما رسول الله صلى الله عليه وسلم
— روى ذلك الواقدي وابن اسحق وغيرها — وأما باقي موالهم الأربعة فإن
سأعناكم في دعواكم لم يبلغ ثمنهم في تلك الحال لشدة بغض موالهم لهم إلا ما تدرم
أو نحوها ، فأى فخر في هذا ؟ وأما الآية فإن ابن عباس قال في تفسيرها « وأما من
أعطى وأتى وصديق الحسنى فسيبره اليسرى » أى لأن يود . وقال غيره :
نزلت في مصعب بن عمير

٢٠ — أخبرونا على أى نواصب الاسلام أتق هذا المال ، وفي أى وجه
وضعه ! فإنه ليس بمجائز أن يخفى ذلك ويدرس حتى يغوت حفظه وينسى ذكره
وأنتم فلم تتفوا على شيء أكثر من عتقه يزعمكم ست رطب لملها لا يبلغ ثمنها في
ذلك العصر مائة درهم . وكيف يدعى له الاطلاق الجليل وقد باع من رسول الله
صلى الله عليه وسلم بغيرين عند خروجه إلى يثرب وأخذ منه الثمن في مثل تلك
الحال ؟ وروى ذلك جميع المحدثين . وقد رويتم أيضاً أنه كان حيث كان بالمدينة
غنياً موسراً . ورويت عن عائشة أنها قالت : هاجر أبو بكر وعنده عشرة آلاف
درهم ، فقام ابن الله تعالى أنزل فيه « وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا
أُولَى الْقُرْبَى » قلتم : هم في أبي بكر وسطح بن أمية . فأين للقرى القى زعمتم أنه
أتق حتى تحلل بالعبادة ؟ وقد رويتم أن الله تعالى في سيائه ملائكة قد تحلوا بالعباءة ،
وإن النبي صلى الله عليه وسلم رآهم ليلة الاسراء فآل جبريل عنهم فقال : هؤلاء

ملائكة تأسوا بأبي بكر بن أبي قحافة صديقك في الأرض فإنه سينفق عليك
 ماله حتى يخل عباؤه في عنته . وأنتم أيضاً رويتم أن الله تعالى لما أنزل آية النجوى
 قال « يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك
 خير لكم » الآية . لم يصل بها إلا على بن أبي طالب وحده مع إقراركم بقره وقلة
 ذات يده ، وأبو بكر في الحال الذي ذكرنا من السنة أمسك عن مناجاته فصائب
 الله المؤمنين في ذلك قال « أَلَسْتُمْ أَنْ تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ
 لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ » فجعله سبحانه ذنباً يتوب عليهم منه ، وهو إيسا كهـم
 عن تقديم الصدقة ، فكيف سخط نفسه باسحاق أربعين ألفاً وأمسك عن مناجاة
 الرسول وإنما كان محتاج فيها إلى إخراج درهمين ؟؟ وأما ما ذكر من كثرة عياله
 وثقتهم عليهم فليس في ذلك دليل على تفضيله ، لأن ثقته على عياله واجبة . مع أن
 أرباب السير ذكروا أنه لم يكن يتفق على أبيه شيئاً وأنه كان أجيراً لابن جُدعان
 على مائته يطرد عنها القباب

٢١ - إننا لا ننكر فضل الصحابة وسوابقهم ، ولنا كالأمامية الذين يحملهم
 الهوى على جحد الأمور الملوثة ، ولكننا ننكر تفضيل أحد من الصحابة على على
 ابن أبي طالب . ولنا ننكر غير ذلك ، وننكر تمصب الجاحظ للثمانية وقصده
 إلى فضائل هذا الرجل ومناقبه بالرد والابطال ، وأما حمزة فهو عندنا ذو فضل
 عظيم ومقام جليل ، وهو سيد الشهداء الذين استشهدوا على عهد رسول الله صلى
 الله عليه وسلم . وأما فضل عمر فغير منكر وكذلك الزبير وسعد . وليس فيما ذكر
 ما يقتضى كون على مفضولاً لهم أولئيرهم ، إلا قوله : وكل هذه الفضائل لم يكن لعل
 فيها ناقة ولا جمل . فإن هذا من التمصب البارد والحيف الفاحش . وقد قدمنا من
 آثار على قبل الهجرة وماله إذ ذاك من المناقب والخصائص ما هو أعظم وأشرف
 من جميع ما ذكر لهؤلاء . على أن أرباب السير يقولون إن الشجة التي شجها سعد
 وإن السيف الذي سلّه الزبير هو الذي جلب الحصار في الشعب على النبي صلى الله

عليه وسلم وبني هاشم ، وهو الذي سير جعفرًا وأصحابه إلى الحبشة . وسل السيف في الوقت الذي لم يؤمر المسلمون فيه بسل السيف غير جائز . قال تعالى : « أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ فَتَيْنِ أَنْ التَّكْلِيفَ لَهُ أَوْ قَاتَ فَنَهَا وَقْتُ لَا يَصْلَحُ فِيهِ سِلَ السِّيفِ ، وَمِنْهَا وَقْتُ يَصْلَحُ فِيهِ وَمَجِبٌ . فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَتَى » قَدْ ذَكَرْنَا مَا عِنْدَنَا مِنْ دَعَوَامِ لِأَبِي بَكْرٍ إِتَاقَ الْمَالِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَذْكُرْ إِتَاقَ الْمَالِ مُفْرَدًا وَإِنَّمَا قَرَنَ بِهِ الْقِتَالَ ، وَلَمْ يَكُنْ أَبُو بَكْرٍ صَاحِبَ قِتَالٍ وَحَرْبٍ ، فَلَا تَشْمَلُهُ الْآيَةُ . وَكَانَ عَلَى صَاحِبِ قِتَالٍ وَإِتَاقٍ قَبْلَ الْفَتْحِ . أَمَّا قِتَالُهُ فَمَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ ، وَأَمَّا إِتَاقُهُ قَدْ كَانَ عَلَى حَسَبِ حَالِهِ وَفَرِهِ ، وَهُوَ الَّذِي « أَطْعَمَ الْعَظَامَ عَلَى حَبِّهِ مَسْكِينًا وَبَيْتًا وَأَسِيرًا » وَأَنْزَلَتْ فِيهِ وَفِي زَوْجَتِهِ وَابْنِهِ سُورَةُ كَامِلَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ . وَهُوَ الَّذِي مَلَكَ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ فَأَخْرَجَ مِنْهَا دَرَاهِمًا سَرًّا وَدَرَاهِمًا عَلَانِيَةً لِيَلَا تُحْمَلُ مِنْهَا فِي النَّهَارِ دَرَاهِمًا سَرًّا وَدَرَاهِمًا عَلَانِيَةً . فَأَنْزَلَ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى « الَّذِينَ يَنْتَفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سَرًّا وَعَلَانِيَةً » وَهُوَ الَّذِي قَسَمَ بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاهُ صَدَقَةَ دُونَ الْمُسْلِمِينَ كَافَةً ، وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِخَاتَمِهِ وَهُوَ رَأْسُ كَمِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ »

٢٢ - لقد أعطى أبو عثمان مقولا وحرم مقولا ، إن كان يقول هذا على اعتقاد وجد ، ولم يذهب به مذهب اللعب واللهو ، أو على طريق التناصح والتشادق وإظهار القوة والسلطة وذلاقة اللسان وحدة الخاطر والقوة على جدال الخصوم . ألم يعلم أبو عثمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أشجع البشر وأنه خاض الحروب وثبت في المواقف التي طاشت فيها الألباب وبلغت القلوب الحناجر ؟؟ فيها يوم أحد ووقوفه بعد أن فر المسلمون بأجمعهم ولم يبق معه إلا أربعة على والزيه وطلحة وأبو دجانة ، قاتل ورمى بالنبل حتى فنيته نبله وانكسرت سيرة قوسه واقطع وتره ، فأمر عكاشة بن محصن أن يوترها فقال : يا رسول الله ، لا يبلغ الوتر ؟

قال : أوتر ما بلغ . قال عكاشة : فوالقدي بشه بالحق لقد أوترت حتى بلغ وطويت
 حته شبراً على سية القوس ، ثم أخذها فإزال يومهم حتى نظرت إلى قوسه قد
 تحطمت . وبارز أبي بن خلف فقال له أصحابه : إن شئت عطف عليه بسننا
 فأبى وتناول الحربة من المارث بين الصمة ثم انتفض بأصحابه كما ينتفض البعير
 قالوا : فتطايرونا عنه تطاير الشعار بين فطمة بالحربة فجعل يمحور كما يمحور الثور . ولو لم
 يدل على ثباته حين انهزم أصحابه وتركوه إلا قوله « إذ تُصدون ولا تكون على أحد
 والرسول يدعوكم في أخراكم » فكونه صلى الله عليه وسلم في أخراهم وهم يصعدون
 ولا يكون هاربين دائل على أنه ثبت ولم يفر . وثبت يوم حنين في تسعة من أهله
 وزوجته الأدين ، وقد فر المسلمون كلهم والنفر التسعة محلقون به ، العباس أخذ
 بحمكة بنته ، وعلى بين يديه مصلت سيفه ، والباقون حول بنته يمنة ويسرة ، وقد
 انهزم المهاجرون والأنصار ، وكأفروا أقدم هو صلى الله عليه وسلم وصمم مستقيماً
 يلقي السيوف والنبال بنحره وصدره ، ثم أخذ كفاً من البطحاء وحصب المشركين
 وقال : شأنت الوجوه . والخبر المشهور عن علي وهو أشجع البشر : كنا إذا اشتد
 البأس وحمي الوطيس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ولقدنا به . فكيف
 يقول الجاحظ إنه ما خاض الحروب ولا خالط الصفوف ! وأى فرية أعظم من فرية
 من نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الاحجام واعتزال الحرب اثم أى مناسبة
 بين أبي بكر ورسول الله في هذا المعنى ليقبسه وينسبه إلى رسول الله صاحب الجيش
 والدعوة ورئيس الاسلام والملة والمصوِّط بين أصحابه وأعدائه بالسيادة وإليه الايمان
 والاشارة وهو الذي أحق قريناً والعرب وورى أكبادهم بالبرامة من ألهمهم وعيب
 دينهم وتضليل أسلافهم ، ثم ورم فيا بعد بقتل رؤسائهم وأكابرهم ؟ وحق لئله
 إذا تنعى عن الحرب واعتزل أن يقتنى ويقتل ، لأن ذلك شأن الملوك والرؤساء
 إذ كان الجيش منوطاً بهم ويقائمهم ، ففى هلك الملك هلك الجيش ومتى سلم الملك
 أمكن أن يبقى عليه ملكه وإن عطب حيثه بأن يستجد جيتاً آخر . ولذلك نهى

الحكام أن يباشر الملك الحرب بنفسه . وخطأوا الاسكندر لما بارز فور ملك الهند وتسبوه إلى مجانبة الحكمة ومفارقة الصواب والحزم . فليقل لنا الجاحظ : أي مدخل لأبي بكر في هذا المعنى ؟ ومن الذي كان يعرفه من أعداء الاسلام ليقصده بالقتل ؟ وهل هو إلا واحد من عرض المهاجرين حكه حكم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما ؟ بل كان عثمان أكثر منه ميثاً وأشرف منه مركباً والعبود إليه أطمح والعدو عليه أحنق وأكلب . ولو قتل أبو بكر في بعض تلك المارك هل كان يؤثر قتله في الاسلام ضعفاً أو يحدث وهناً ، أو يخاف على الملة لو قتل أبو بكر في بعض تلك الحروب أن تندرس وتنفى آثارها وتنطمس منارها ؟ ليقول الجاحظ إن أبا بكر كان حكه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجانبة الحروب واعتزالها ؟ نموذ بالله من الخذلان . وقد علم العقلاء كلهم بمن له بالسيرة معرفة وبالأثار والأخبار ممارسة حال حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت وحاله عليه الصلاة والسلام فيها كيف كان ، ووقوفه حيث وقف ، وحر به حيث حارب ، وجلسه في العريش يوم جلس ، وأن وقوفه صلى الله عليه وسلم وقوف رئاسة وتدير ، ووقوف ظهر وسند يتعرف أمور أصحابه ويحوس صغيرهم وكبيرهم بوقوفه من ذرائعهم وتخلفه عن التقدم في أوائلهم ، لأنهم متى علموا أنه في أخراهم اطمانت قلوبهم ولم تتعلق بأمره نفوسهم ، فيشتتلوا بالاهتمام به عن عدوم ، ولا يكون لهم فئة يلجئون إليها وظهراً يرجعون إليه ، ويلطون أنه متى كان خلفهم تفقد أمورهم وعلم مواقفهم وآوى كل إنسان مكانه في الحماية والنكاية وعند النازلة في الكر والجله ، فكان وقوفه حيث وقف أصلح لأمرهم ، وأسمى وأحرس لبيئتهم ، ولأنه المطلوب من بينهم ، إذ هو مدير أمورهم ووالى جماعتهم . ألا ترون أن موقف صاحب اللواء موقف شريف ، وأن صلاح الحرب في وقوفه ، وأن فضيلته في ترك التقدم في أكثر حالاته . فلترئيس حالات : الأولى : حالة يتخلف ويقف آخراً ليكون سنداً وقوة ورداً وعدة ، وليتولى تدير الحرب ويرف مواضع الخلل . والحالة

الثانية : يتقدم فيها في وسط الصف ليقوى الضعيف ويشجع الناكس . وحالة ثالثة : وهي إذا اصطدم القيلقان وتكافح السيفان ، اعتمد ما يقتضيه الحال من الوقوف حيث يستلصح ، أو من مباشرة الحرب بنفسه فأبها آخر المنازل وفيها تظهر شجاعة الشجاع النجد وفساة الجبان الموه . فأين مقام الرئاسة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأين منزلة أبي بكر ليسوى بين المنزلتين ويناسب بين الحاليتين ؟ ولو كان أبو بكر شريكاً لرسول الله في الرسالة ومنحوا من الله بفضيلة النبوة وكانت قریش والعرب تطلبه كما تطلب محمداً صلى الله عليه وسلم لكان للجاحظ أن يقول ذلك . فأما وحاله حاله وهو أضف المسلمين جناحاً وأقلهم عند العرب ترة لم يرم قط بسهم ولا سل سيفاً ولا أراق دماً ، وهو أحد الأتباع غير مشهور ولا معروف ولا طالب ولا مطلوب ، فكيف يجوز أن يحمل مقامه ومنزلته مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنزلته ؟ ولقد خرج ابنه عبد الرحمن مع المشركين يوم أحد فراه أبو بكر قمام مغيظاً عليه فسل من السيف مقدار أصبح يروم البروز إليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر ، شمس سيفك وأمتنا بنفسك . ولم يقل له وأمتنا بنفسك إلا لملفه بأنه ليس أهلاً للعرب وملاقة الرجل ، وأنه لو بارز لقتل .

وكيف يقول الجاحظ : لأفضلية لمباشرة الحروب ولقاء الأقران وقتل أبطال الشرك ؟ وهل قامت عند الإسلام إلا على ذلك ؟ وهل ثبت الدين واستقر إلا بذلك ؟ أترأه لم يسمع قول الله تعالى « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » والحببة من الله تعالى هي إرادة الثواب ، فكل من كان أشد ثبوتاً في هذا الصف وأعظم قتالاً كان أحب إلى الله ، ومعنى الأفضل هو الأكثر ثواباً . فلي عليه السلام إذاً هو أحب المسلمين إلى الله لأنه أثبتهم قدماً في الصف المرصوص لم يفر قط باجماع الأمة ، ولا بارزه قرن إلا قتله . وأترأه لم يسمع قول الله تعالى « وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً » وقوله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً

عليه حقا في التوراة والابجيل والقرآن » ثم قال سبحانه مؤكدا لهذا البيع والشراء « ومن أوفى بعهده من الله فاستشروا بيعكم الذي يابستم به وذلك هو الفوز العظيم » وقال الله تعالى « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يملأون موطئا يضيظ الكفار ولا يتألون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح » فواقف الناس في الجهاد على أحوال ، وبعضهم في ذلك أفضل من بعض ، فمن دلف إلى الأقران واستقبل السيوف والأسنة كان أفضل على أكتاف الأعداء لشدة نكايته فيهم ممن وقف في المركة وأعان ولم يقدم ، وكذلك من وقف في المركة وأعان ولم يقدم إلا أنه بحيث تناله سهام والنبل أعظم عناء وأفضل ممن وقف حيث لا يناله ذلك . ولو كان الضعيف والجبان يستحقان الرئاسة بقله بسط الكف وترك الحرب وأن ذلك يشاكل فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، لكان أوفر الناس حظا في الرئاسة وأشدهم لها استحقاقا حسان بن ثابت ! وإن بطل فضل على في الجهاد لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أقلمهم قتالا — كما زعم الجاحظ — ليبطلن على هذا القياس فضل أبي بكر في الإتيان ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أقلمهم مالا ؟ وأنت إذا تأملت أمر العرب وقريش ونظرت السير وقرأت الأخبار عرفت أنها كانت تطلب محمدا صلى الله عليه وسلم وتقصده وتروم قتله ، فإن أعجزها وقاتها طلبت عليا وأرادت قتله ، لأنه كان أشبههم بالرسول حالا وأقربهم منه قريبا وأشدهم عنه دفا ، وأنهم متى قصدوا عليا قتلوه أضغوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وكسروا شوكته ، إذ كان أعلى من ينصره في البأس والقوة والشجاعة والنجدة والإقدام والبسالة . ألا ترى إلى قول عتبة بن ربيعة يوم بدر — وقد خرج هو وأخوه شيبة وابنه الوليد بن عتبة ، فأخرج إليهم الرسول قرا من الأنصار فاستنصبهم فاستنبوا لهم فقالوا : ارجعوا إلى قومكم ، ثم نادوا : يا محمد — : أخرج إلينا أكفأنا من قومنا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الأذنين : قوموا يا بني هاشم فانصروا حقكم الذي آتاكم الله على باطل

هؤلاء ، قم يا علي ، قم يا حمزة ، قم يا عبيدة ؟ ألا ترى ما جعلت هند بنت عتبة ابن قتله يوم أحد لأنه اشترك هو وحمزة في قتل أبيها يوم بدر ؟ ألم تسمع قول هند ترى أهلها :

مَا كَانَ لِي عَنْ عُنْتَةٍ مِنْ صَبْرٍ أَبِي ، وَعَمِّي ، وَشَقِيقِ صَدْرِي
أَخِي الَّذِي كَانَ كَضَوْءِ الْبَدْرِ بِهِمْ كَثُرَتْ يَا عَلِيُّ ظَهْرِي

وذلك لأنه قتل أخاها الوليد بن عتبة وشرك في قتل أبيها عتبة ، وأما عمها شيبه فإن حمزة قُتِلَ بقتله . وقال جبير بن مطعم لو حشي مولاه يوم أحد : إن قتلت محمداً فأنت حر ، وإن قتلت علياً فأنت حر ، وإن قتلت حمزة فأنت حر ، قال : أما محمد فسيمنعه أصحابه ، وأما علي فرجل حذر كثير الالتفات في الحرب ، ولكني سأقتل حمزة . قصد له وزقه بالحربة فقتله .

ولما قلنا من مقارنة حال علي في هذا الباب لحال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومناسبتها إياه ما وجدناه في السير والأخبار من إشفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذره عليه ودعائه له بالحفظ والسلامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وقد برز علي إلى عمرو ورفع يديه إلى السماء بمحض من أصحابه : اللهم إنك أخذت مني حمزة يوم أحد ، وعبيدة يوم بدر ، فاحفظ اليوم علياً ، رب لا تغدرني فرداً وأنت خير الوارثين . وقدكضن به عن مبارزة عمرو حين دها عمرو الناس إلى نفسه مراراً في كلها يحجمون ويقدم على فيسأل الإذن له في البراز حتى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إله عمرو ! قال : وأنا علي ! فأذن له وقبله وعمه بمأتمته وخرج معه خطوات كالودع له القلق لحاله المنتظر لما يكون منه . ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم رافعاً يديه إلى السماء مستقبلاً لما يوجهه والمسلمون صوته حوله كأنما على رؤسهم الطير حتى ثارت الغبرة وسموا التكبير من تحتها فسلموا أن علياً قتل عمرًا . فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر المسلمون تكبيرة سمعها من وراء الخندق من عساكر المشركين . ولذلك قال

حذيفة بن اليمان : لو قسمت فضيلة على يقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين بأجمعهم لوسعتهم . وقال ابن عباس في قوله تعالى « وكفى الله المؤمنين القتال » قال : بلى بن أبي طالب .

٢٣ - فيقال للجاحظ : فلي أيها كان مشى على بن أبي طالب إلى الاقتران بالسيف ؟ فأما قلت من ذلك بانت عداوتك لله تعالى ورسوله ، وإن كان مشيه ليس على وجه مما ذكرت وإنما كان على وجه النصرة والقصد إلى المسابقة إلى ثواب الآخرة والجهاد في سبيل الله وإعزاز الدين كنت بجميع ما قلت معانداً وعن سبيل الانصاف خارجاً وفي إمام المسلمين طاعناً ، وإن تطرق مثل هذا الهم على على ليتطرقن مثله على أعيان المهاجرين والأنصار أرباب الجهاد والقتال للذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفسهم ووقوه بمجهم وفدوه بأبائهم وآبائهم ، فلعل ذلك كان لعله من اللعل المذكورة ؟! وفي ذلك الطعن في الدين وفي جماعة المسلمين ! ولو جاز أن يتوهم هذا في علي وفي غيره لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى لأهل بدر « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ولا قال للى : برز الايمان كله إلى الشرك كله . ولا قال : أوجب طلحة . وقد علمنا ضرورة من دين الرسول صلى الله عليه وسلم تنظيمه للى تعظيماً دينياً لأجل جهاده ونصرته ، فالطاعن فيه طاعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ زعم أنه قد يكون جهاده لا لوجه الله تعالى بل لأمر آخر من الأمور التي عددها وبشه على التنفوه بها إغواء الشيطان وكيد الإفرات في عداوة من أمر الله بمحبته ونهى عن بغضه وعداوته . أتري رسول الله صلى الله عليه وسلم خفى عليه من أمر على ما لاح للجاحظ والثمانية قدحه وهو غير مستحق للقدح ؟!

٢٤ - فيقال له : فلعل إضائق أبي بكر - على ما تزعم ٤٠ ألف درهم - لا ثواب له ، لأن شه ربما تكون غير معتدلة لأنه قد يكون مطبوعاً على الجود والسخاء ، ولعل خروجه مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة إلى التار لا ثواب

له فيه لأن أسبابه كانت مهيبة ودواعيه غالبة بحجة الخروج وفضي القمام ، ولعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه إلى الإسلام وإكبابه على الصلوات الخمس في جوف الليل وتدييره أمر الأمة لا ثواب له فيه ، لأنه قد تكون نفسه غير معتدلة بل يكون في طباعه الرأسة وجها والعبادة والالتذاذ بها ؟ ولقد نضب من مذهب أبي عثمان أن المعارف ضرورية وأنها تقع طباعاً ، ومن قوله بالتولد وحركة الحجر بالطبع ، حتى رأينا من قوله ما هو أعجب منه ، فزعم أنه ربما يكون جهاد على وقتله المشركين لا ثواب له فيه لأنه فعله طباعاً ! وهذا أطرف من قوله في للفرقة وفي التولد .

٢٥ - هذا راجع على الجاحظ في النبي صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى قال له « والله يصمك من الناس » فلم يكن له في جهاده كبير طاعة أو كثير طاعة ؟ وكثير من الناس يروى عنه صلى الله عليه وسلم : اقتدوا بالذين من بدى أبي بكر وعمر . فوجب أن يبطل جهادهما ! وقد قال لزيير : ستقاتل علياً وأنت ظالم له : فأشعره بذلك أنه لا يموت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال في الكتاب العزيز « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده » قالوا : نزلت في طلحة . فأعلمه بذلك أنه يبقى بعده ، فوجب أن لا يكون لما كبير ثواب في الجهاد ؟ والذي صح عندنا من الخبر وهو قوله : ستقاتل بدى لنا كثير . أنه قاله لما وضعت الحرب أوزارها ودخل الناس في دين الله أفواجا ووضعت الجزيرة وذات العرب قاطبة

٢٦ - أمر عمرو بن عبد ود أشهر وأكثر من أن يحتج له ، فليتلمح كتب الثنازي والبير وليتظر مارسته به شمراء قريش لما قتل . فن ذلك ما ذكره محمد ابن اسحق في منازية قال : وقال مسافع بن عبد مناف بن زهرة بن حذافة بن ججم يميكي عمرو بن عبد الله بن عبد ود حين قتله على بن أبي طالب مبارزة لما جزع الزار - أي قطع الخندق - :

عَمْرُو بْنُ عَبْدِ كَانَ أَوَّلَ قَارِسٍ جَزَعَ الزَّارَ وَكَانَ قَارِسَ مَلِيلٍ

سَمَحُ الْخَلَائِقِ مَاجِدُ ذُو مِرَّةٍ
وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ جِئْنَ وَلَوْ أَنَّكُمْ
حَتَّى تَكْفَهُ الْكِمَاءُ وَكُلُّهُمْ
وَلَقَدْ تَكَنَّفَتِ الْتَوَارِسُ فَارِسًا
سَأَلَ التَّرَّالَ هُنَاكَ فَارِسُ غَالِبٍ
فَازْهَبْ عَلَى مَا ظَهَرَتْ بِمِثْلِهَا
نَهَى الْعِدَاءُ لِفَارِسٍ مِنْ غَالِبٍ
أَعْنِي الَّذِي جَزَعَ الزَّارَ وَلَمْ يَكُنْ

وقال هُبيرة بن أبي وهب الحزومي يعتذر من فراره عن علي بن أبي طالب

ونوره عمراً يوم الخندق وبنيكه :

لَسَرْتُكَ مَا وَلَيْتُ ظَهْرِي مُحَمَّدًا
وَلَكِنِّي قَلْبْتُ أَمْرِي فَلَمْ أَجِدْ
وَقَفْتُ فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ لِي مَقْدَمًا
مَنْ عَطَفَهُ عَنْ قَرْنِهِ جِئْنَ لَمْ يَجِدْ
فَلَا تَبْعِدَنَّ يَا عَمْرُو حَيًّا وَهَالِكًا
وَلَا تَبْعِدَنَّ يَا عَمْرُو حَيًّا وَهَالِكًا
فَمَنْ لِيَطْرُدَ الْخَيْلَ يَرْغَبُ بِالْقَنَا
هُنَاكَ لَوْ كَانَ ابْنُ عَبْدِ وَزَارَهَا
كَفَنْتُكَ عَلَيَّ لَنْ تَرَى مِثْلَ مَوْقِفِ
فَمَا ظَهَرَتْ كَفَاكَ يَوْمًا بِمِثْلِهَا

وَأَصْحَابَهُ جِئْنَا وَلَا خِيَمَةَ الْقَتْلِ
لِسَبِي غَنَاءٍ إِنْ وَقَفْتُ وَلَا نَبِيْلِي
صَدَدْتُ كَصِرْغَامٍ هَزَبَتْ إِلَى شَيْلِي
جَبَالًا وَكَانَ الْحَزْمُ وَالرَّأْيُ مِنْ فَيْلِي
قَدْ مِتَّ مَحْمُودُ الثَّنَا مَاجِدُ النِّعْلِ
قَدْ كُنْتُ فِي حَرْبِ الْعِدَاءِ رَهْفَ النَّصْلِ
وَالْبَذْلِ يَوْمًا عِنْدَ قَرْقَرَةِ الْبُزْلِ
لَمَرَجَهَا عَنْهُمْ فَتَى غَيْرُ مَا وَغْلِي
وَقَفْتُ عَلَى شِلْوِ الْقُدَمِ كَالْمُخْلِ
أَمِنْتُ بِهَا مَاعِشَتَ مِنْ زَلَّةِ النَّعْلِ

وقال هيرة بن أبي وهب يرضى عمراً ويكيه :

لَقَدْ عَلِمْتُ عَلِيًّا لَوْ أَنَّ بَيْنَ غَالِبٍ لَقَارِسُهَا عَمَرُو إِذَا نَابَ نَائِبُ
وَقَارِسُهَا عَمَرُو إِذَا مَا يَسُوقُهُ عَلِيٌّ وَإِنَّ الْمَوْتَ لَا شَكَّ طَالِبُ
عَشِيَّةً يَدْعُوهُ عَلِيٌّ وَإِنَّهُ لَقَارِسُهَا إِذْ حَامَ عَنْهُ الْكَتَائِبُ
فَيَا لَهْفٍ قَبْلِي أَنْ عَمَرَ الْكَائِنُ يَتَرَبَّ لَا زَالَتْ هُنَاكَ الْمَصَائِبُ
لَقَدْ أَخَّرَ الْعَلِيَّا عَلِيٌّ يَقْتُلُو وَلِخَيْرٍ يَوْمًا لَا مَحَالَةَ جَالِبُ

وقال حسان بن ثابت الأنصاري يذكر عمراً :

أَمْسَى الْقَتَى عَمَرُو بْنُ عَبْدِ نَاطِرٍ كَيْفَ الْمُبُورُ وَلَيْتَهُ لَمْ يَنْظُرْ
وَلَقَدْ وَجَدْتُ سُيُوفَنَا مَشْهُورَةً وَلَقَدْ وَجَدْتُ جِلْدَنَا لَمْ تُقْصِرْ
وَلَقَدْ لَقِيتُ غَدَاةَ بَدْرِ عُصْبَةٍ ضَرْبُكَ ضَرْبًا غَيْرَ ضَرْبِ الْحَسْرِ
أَصْبَحْتُ لَا تَدْعَى لِيَوْمٍ عَظِيمَةٍ يَا عَمَرُو أَوْ لِحَسْبِهِ أَمْرٌ مُسْكِرٌ

وقال حسان أيضاً :

لَقَدْ شَقِيتَ بَنُو جَمَحٍ بَيْنَ عَمَرُو وَخَزُومٍ وَتَنَمٍ مَا يَقِيلُ
وَعَمَرُو كَالْحَسَامِ قَتَى قُرَيْشٍ كَانَ جَبِينُهُ سَيْفٌ صَقِيلُ
قَتَى مَنْ نَسَلَ قَامِرَ أَرْجَمِيٍّ تَطَاوَلَهُ الْأَمِينَةُ وَالنُّصُولُ
دَعَاهُ الْفَارِسُ الْقِدَامُ لَمَّا تَكشَفَتِ الْمَقَائِبُ وَالْخُبُولُ
أَبُو حَسَنِ قَتَنَهُ حُسَامًا جُرْأًا لَا أَوْلُ وَلَا نَكُولُ
فَنَادَرَهُ مُكِبًّا مُسَلِحِيًّا عَلَى عَمْرَاءَ لَا بَدَّ الْقَتِيلُ

فهذه الأشعار فيه بل بعض ما قيل فيه . وأما الآثار والأخبار فوجودة في كتب السير وأيام الفرسان وقائهم ، وليس أحد من أرباب هذا العلم يذكر عمراً إلا قال : كان فارس قريش وشجاعها . وإنما قال له حسان : « ولقد لقيت

غداة بدر عسبة « لأنه شهد مع المشركين بدرا وقتل قوماً من المسلمين ثم فر مع
من فر ولحق بمكة - وهو الذي كان قال وعاهد الله عند الكعبة أن لا يدعو
أحد إلى واحدة من ثلاث إلا أجابه. وآثاره في أيام الفجار مشهورة تنطق بها كتب
الأيام والوقائع ، ولكنه لم يذكر مع الفرسان الثلاثة وهم عتبية وبسطام وعامر ،
لأنهم كانوا أصحاب غارات ونهب وأهل بادية ، وقريش أهل مدينة وسأكنو مدر
وحجر لا يرون النارات ولا ينهبون غيرهم من العرب ، وهم مقتصرين على المقام
ببليدتهم وحماية حرمهم ، فلذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء . ويقال له : إذا كان
عمرؤ كما تذكر ليس هناك ، فما باله لما جزع الخندق في ستة فرسان هو أحدهم
غمار مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على أرض واحدة وهم ثلاثة آلاف ودعاهم
إلى البراز مرارا لم ينتدب أحد منهم للخروج إليه ولا سمح منهم أحد بنفسه حتى
وجعهم وقرعهم وناداهم : ألسن تزعجون أنه من قتل منا فإلى النار ومن قتل منكم
فإلى الجنة ؟ أفلا يشتاق أحدكم أن يذهب إلى الجنة أو يقدم عدوه إلى النار ؟
فجبنوا كلهم ونكلوا وملكهم للعرب والوهل ؟ ؟ ؟ فإما أن يكون هذا أشجع
الناس كما قد قيل عنه ، أو يكون السلوك كله أجبن العرب وأذلهم وأفسلهم ؟
وقد روى الناس كلهم الشعر الذي أنشد لما نكل القوم بجمعهم عنه وأنه جال

يجرسه واستدار وذهب بمنة ثم ذهب يسرة ثم وقف تجاه القوم فقال :

وَلَقَدْ بَحَثْتُ مِنَ النَّدَا لِجَمْعِكُمْ هَلْ مِنْ مُبَارَزٍ
وَوَقْتُ إِذْ جَبَنَ الْمُشِيمُ وَفَقَّ الْقِرْنِ الْمُنَاجِزُ
وَكَذَلِكَ إِنِّي لَمْ أَزَلْ مُنْشِعًا نَحْوَ الْهَزَازِ
إِنَّ الشُّجَاعَةَ فِي الْبَقَى وَالْجُودَ مِنْ خَيْرِ التَّرَازِزِ

فلما برز إليه على أجابه فقال له :

لَا تَعْجَلَنَّ قَدْ أَتَاكَ مُجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرُ عَاجِزٍ
ذُو نِيَّةٍ وَبَصِيرَةٍ تَرْجُو الْغَدَاةَ نَجَاةً فَإِنَّ

إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أُقِيمَ عَلَيْكَ نَاعِمَةَ الْجَنَائِزِ
مِنْ خَرَبَةٍ تَقْنَى وَيَبْقَى ذِكْرُهَا عِنْدَ الْمُزَاهِرِ

ولعمري لقد سبق الجاحظ بما قاله بعض جهال الأنصار لما رجع رسول الله من بدر وقال قتي من الأنصار شهد معه بدرًا : إن قتلنا إلا عجائز صلما ! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقل ذلك يا ابن أمي ، أولئك الملائكة

٢٧ — كل من دون أخبار قریش وآثار رجلها وصف الوليد بالشجاعة والبسالة وكان مع شجاعته أيدًا يصارع اللتين فيصرعهن ، وليس لأنه لم يشهد حربًا قبلها ما يجب أن يكون بطلا شجاعا ، فان عليا لم يشهد قبل بدر حربا وقد رأى الناس آثاره فيها

٢٨ — أما نبأته يوم أحد فأكثر المؤرخين وأرباب السير ينكرونها وجمهورهم يروى أنه لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا على وطلحة والزبير وأبو دُجانة . وقد روي عن ابن عباس أنه قال : ولم يخلص وهو عبد الله بن مسعود . ومنهم من أثبت سادسا وهو القناد بن عمرو . وروي يحيى بن سلمة بن كهيل قال : قلت لأبي : كم ثبت مع رسول الله يوم أحد ؟ فقال : إثنان . قلت : من هما ؟ قال : علي وأبو دُجانة . وهب أن أبا بكر ثبت يوم أحد كما يدعيه الجاحظ ، أيجوز له أن يقول ثبت كما ثبت علي فلا خسر لأحدهما على الآخر ، وهو يعلم آثار علي ذلك اليوم وأنه قتل أصحاب الأثوية من بني عبد النجار منهم طلحة بن أبي طلحة الذي رآه رسول الله في منامه أنه مردف كبشًا فأوله وقال : كبش الكتيبة قتلته . فلما قتله على مبارزة وهو أول قتيل قتل من المشركين ذلك اليوم كبر رسول الله وقال : هذا كبش الكتيبة . وما كان منه من المحاماة عن رسول الله وقد فر الناس وأسلموه فتصمد له كتيبة من قریش فيقول : يا علي أكفني هذه فيحمل عليها فيهزمها ويقتل عميدها حتى سمع المسلمون والمشركون صوتا من قبل السماء :

« لاسيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على » وحتى قال النبي عن جبريل ما قال .
أتكون هذه آثاره وأفعاله ثم يقول الجاحظ لا تخز لأحدهما طى صاحبه ! ربنا
افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين .

قال أبو جعفر :

٢٩ - ما كان أغناك يا أبا عثمان عن ذكر هذا المقام المشهور لأبي بكر
فانه لو تسمعه الامامية لضافته إلى ما عندها من المثالب لأن قول النبي له : ارجع .
دليل على أنه لا يحتمل مبارزة أحد . لأنه إذا لم يحتمل مبارزة ابنه - وأنت تعلم
حنو الابن على الأب وتبجيله له وإشفاقه عليه وكفه عنه - لم يحتمل مبارزة النريب
الأجنبي . وقوله له : ومثمتنا بنفسك . إني إذان له بأنه كان يقتل لو خرج . ورسوله
الله كان أعرف به من الجاحظ . فأين حال هذا الرجل من حال الرجل الذي
صلى بالحرب ومضى إلى السيف بالسيف قتل السادة والقادة والفرسان والرجال ؟!

٣٠ - أما قوله إنه بذل الجهد فقد صدق ، وأما قوله لا حال أشرف من حالة
فقد أخطأ ، لأن حال من بلغت قوته أضما ف قوته فأعملها في قتل المشركين أشرف
من حال من قصت قوته عن بلوغ الغاية . ألا ترى أن حال الرجل أشرف في
الجهاد من حال المرأة ، وحال البالغ الأيد أشرف من حال الصبي الضعيف !



من كتاب فضل هاشم على عبد شمس

قال أبو عثمان :

إن أشرف خصال قریش فی الجاهلیة : ألواء والتندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابة ، وهذه الخصال مقسومة فی الجاهلیة لبني هاشم وعبد المار وعبد العزی .
دون بني عبد شمس . علی أن معظم ذلك صار شرفه فی الاسلام إلى بني هاشم .
لأن النبی صلی الله علیه وسلم لما ملك مكة صار مفتاح الکعبة یدیه ، فدفعه إلى عثمان بن طلحة . فالتشرف راجع إلى من ملك المفتاح لا إلى من دفع إلیه . وكذلك دفع رسول الله صلی الله علیه وسلم إلى مصعب بن عمیر [ألواء] فالتدی دفع اللواء إلیه وأخذہ مصعب من یدیه أحق بشرفه وأولی بمجده ، وشرفه راجع إلى رطل من بني هاشم . قال : وكان محمد بن عیسی الخزرجی أمیرا علی الین فهجاه أبو بن مُدْلِج قال :

قُلْ لِّاِنَّ عِيسَى الْمَسْنِيَّ	مَثَرِ مِنَ السَّهْوَةِ بِالْوُعُودَةِ
النَّاطِقِ الْعَوْرَاءِ فِي	جُلِّ الْأُمُورِ بِلاَ بَصِيرَةِ
وَلَدُ الْغَيْرَةِ نَسَةً	كَانُوا صَنَادِيدَ الْمَسِيرَةِ
وَأَبُوكَ عَشْرُهُمْ كَمَا	نَبَتَتْ مَعَ النَّخْلِ الشَّيْخَةِ
إِنَّ النَّبُوَّةَ وَالْخَلْقَ	وَالسَّقَايَةَ وَالْمَشُورَةَ
فِي غَيْرِكُمْ فَكَتَفَ إِلَيْكَ	يَدَا مَجْدَةٍ قَصِيرَةِ

قال : فأنبرى له [شاعر] من ولد كُزَيْبِ بْنِ حَبِيبِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ ، وكان

مع محمد بن عیسی بالین ، يهجو عنه ابن مُدْلِجِ فِي كَلَمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٌ قَالَ فِيهَا :

لَا لَوَاءَ يَسُدُّ بَابِي كُزَيْبِ لَا وَلَا رِفْدٌ بَيْنَهُ ذِي السَّنَاءِ

لَا حِجَابَ وَلَيْسَ فِيكُمْ سَوَى الْكَبِيرِ وَبُضْ النَّبِيِّ وَالشَّهَدَاءِ
بَيْنَ حَالِكٍ وَمُخْلَجٍ وَطَرِيدٍ وَقَتِيلٍ يَلْعَنُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ
وَلَهُمْ زَمْزَمٌ وَجِبْرَائِيلُ وَتَجِدُ السَّقَايَةَ الْقَرَاءَ

قال أبو عثمان : فالشهداء : علي وحمة وجعفر . والحالكي والمخلج هو الحكم
ابن أبي العاص ، كان يحكي مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت يوما فرآه
فدعا عليه ، فلم يزل يخلج المشية عقوبة من الله تعالى . والطريد : إثنان ، الحكم
ابن أبي العاص ومعاوية بن النخيلة بن أبي العاص . وما جدا عبد الملك بن مروان
من قبل أمه وأبيه . وكان النبي صلى الله عليه وسلم طرد معاوية بن النخيلة هذا من
المدينة وأجله ثلاثا فخير الله ولم يزل يتردد في ضلله حتى بسث في أثره عليا وعمارا
فقتلاه . فأما القتلى فكثير : نحو شيبة وعتبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة وحظلة
ابن أبي سفيان وعتبة بن أبي ميط والعاص بن سعيد بن أمية ومعاوية بن النخيلة وغيرهم
قال أبو عثمان : وكان اسم هاشم عمراً ، وهاشم لقب . وكان أيضا يقال له
القمر . وفي ذلك يقول مطرود الخزاعي :

إِلَى الْقَمَرِ السَّارِي الْمُنِيرِ دَعَوْتُهُ وَمُطْعِمِهِمْ فِي الْأَزَلِ مِنْ قَمَعِ الْجَزْرِ

قال ذلك في شيء . كان بينه وبين بعض قريش ، فدعاه مطرود إلى المحاكمة
إلى هاشم . وقال ابن الزبير :

كَانَتْ قُرَيْشٌ بَيْضَةً فَتَغَلَّقَتْ فَالْحُحُ خَالِصُهُ لِعَبِيدٍ مَنَافٍ
الرَّائِثُونَ وَلَيْسَ يَوْجَدُ رَائِثٌ وَالْقَاتِلُونَ هَامٌ لِلْأَضْيَافِ
عَمَرُوا الْعَلَى هَشْمَ الثَّرِيدِ لِقَوْمِهِ وَرَجَالُ مَكَّةَ مُسْتَنْتُونَ عَجَافُ

فمن كاترى أهل مكة بالأزل والعجف وجهه الذي هشم لم الخبز ثريدا ، فطلب
هذا اللقب على اسمه حتى صار لا يعرف إلا به . وليس لعبد شمس لقب كريم
ولا اشتق له من صالح أعماله اسم شريف ، ولم يكن لعبد شمس ابن يأخذ بضمه

ويرفع من قدره ويزيد في ذكره ، ولهاشم عبد المطلب سيد الوادى غير مدافع ،
أجل الناس جمالا وأظهرهم جودا وأكلهم كالا ، وهو صاحب القيل واليلد الأبايل
صاحب زمزم وساقى الحجيج . وولد عبد شمس أمية بن عبد شمس ، وأميه في
نفسه ليس هناك وإنما ذكر بأولاده ولا لقب له . ولعبد المطلب لقب شهير واسم

شريف : شعبة الحمد . قال مطرود الخزاعي في مدحه :

بِشَيْبَةِ الْحَدِّ الْبَدِيِّ ثَقِي لَهُ أَيَّامُهُ مِنْ خَيْرِ ذُرِّ الذَّائِرِ
الْحَدُّ مَا حَبَّتْ قُرَيْشُ بَيْتَهُ وَدَعَا هَدِيلٌ فَوْقَ غَضَنِ نَازِرِ
وَاللَّهِ لَا أَنَا كُمْ وَفَالِكُمْ حَتَّى أَغَيَّبَ فِي سَفَاةِ الْقَائِرِ
وقال حذافة بن غاث المدوى وهو يمدح أبا لهب ويوصى ابنه خارجة بن

حذافة بالإناء إلى نفي هاشم :

أَخَارِجُ إِنَّمَا أَهْلِكُنْ فَلَا تَزَلْ لَهْمُ شَاكِرٍ أَوْ حَتَّى تُسَيَّبَ فِي الْقَبْرِ
بَنِي شَيْبَةَ الْحَدِّ الْكَرِيمِ فَهَالَهُ يُضِيءُ ظِلَامَ اللَّيْلِ كَالْقَمَرِ الْبَدْرِ
لِسَاقِي الْحَجِيجِ ثُمَّ الشَّيْخِ هَاشِمِ وَعَبْدِ مَنْافٍ ذَلِكَ السَّيِّدُ الْقَمَرِ
أَبُو عَتْبَةَ الْمَلَقَى إِلَى جِوَارِهِ أَعْرُ هِجَانُ اللَّوْنِ مِنْ نَفَرٍ غَرِ
أَبُوهم قَصَى كَانَ يُدْعَى مَجْمَاً بِهِ جَمَعَ اللَّهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فِهْرِ
فأبو عتبة هو أبو لهب بن عبد المطلب بن عبد المطلب بن هاشم وابناه
عتبة وعتيبة : وقال العبدى حين احتفل في الجاهلية فلم يترك :

لَا تَرَى فِي النَّاسِ حَيًّا مِثْلَنَا مَا خَلَا أَوْلَادَ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ

وإنما شرف عبد شمس بأبيه عبد مناف بن قصي ، وبني ابنه أمية بن
عبد شمس . وهاشم شرف بنفسه وبأبيه عبد مناف وبأبيه عبد المطلب . والأمر في
هذا بَيِّنٌ وهو كما أوضحه الشاعر في قوله :

إِنَّمَا عَبْدُ مَنْافٍ جَوْهَرٌ زَيْنُ الْجَوْهَرِ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ

قال أبو عثمان : ولنا قول إن عبد شمس لم يكن شريفاً في نفسه ، ولكن الشرف يتفاضل ، وقد أعطى الله عبد المطلب في زمانه وأجرى على يديه وأظهر من كرامته ما لا يعرف مثله إلا لنبي مرسل ، وإن في كلامه لأثره صاحب القليل وتوعد بإياه رب السكبة وتحقيق قوله من الله تعالى ونصرة وعيده بحبس القليل وقتل أصحابه بالطير الأبايل وحجارة السجيل حتى تركوا كالصف المأكول ، لأعجب البرهانات وأسنى الكرامات ، وإنما كان ذلك إرهاباً لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأسيساً لما يريد الله به من الكرامة ، وليبطل ذلك البهائم متقدماً له ومردود عليه ، وليكون أشهر في الآفاق وأجل في صدور القرائة والجبايرة والأكسرة ، وأجدر أن يقرر الماندة ويكشف غباوة الجاهل .

وبعد ، فمن يناهض أو يناضل رجلاً ولداً ومحمداً صلى الله عليه وسلم ؟ ولو عزلنا ما أكرمه الله به من النبوة حتى تقتصر على أخلاقه ومذاهبه وشيمه لما وفيه بشيء ولا عدله شيء ؟ ولو شئنا أن نذكر ما أعطى الله عبد المطلب من تيجار العيون وينابيع الماء من تحت كل كل بمبره وأخفائه بالأرض القسي وبما أعطى يوم المساهمة وعند المقارة من الأمور العجيبة والحاصل البائنة قلنا ولكننا أحببنا أن لا نحتج عليكم إلا بالوجود في القرآن الحكيم والمشهور في الشعر القديم الظاهر على السنة الخاصة والعامة ورواة الأخبار وحال الآثار . قال : وما هو مذكور في القرآن — عدا حديث القليل — قوله تعالى « لا يلاف قريش » ولقد أجمعت الرواة على أن أول من أخذ اللاف اللاف قريش هاشم بن عبد مناف . فلما مات قام أخوه المطلب مقامه ، فلما مات قام عبد شمس مقامه ، فلما مات قام نوفل مقامه — وكان أصغرهم — واللاف هو أن هاشم كان رجلاً كثير السفر والتجارة فكان يسافر في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام ، وشريك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ومن ملوك اليمن نحو المبالهة باليمن واليكوم من بلاد الحبشة ونحو ملوك الروم بالشام ، فجعل لهم معه رجلاً فنياً يربح وساق لهم إبلا مع إبلا فكتفاهم مؤنة الأسفار على أن يكفوه مؤنة الأعداء في طريقه ومنصرفه ، فكان في ذلك صلاح علم للفرقيين ، وكان

المقيم راجعا والمسافر محفوظا . فأخصبت قريش بذلك وحملت معه أموالها وأتاتها ! لخير من البلاد السافلة والسالية وحسنت حالها وطلب عيشها . قال : وقد ذكر حديث الإيلاف الحارث بن الحنشل السلي وهو خال هاشم والمطلب وعبد شمس فقال : -

إِنَّ أَخِي هَاشِمًا لَيْسَ أَخًا وَاحِدٍ الْآخِذِ الْإِيْلَافَ وَالْقَائِمِ لِلْقَاعِدِ

قال أبو عبيان : وقيل إن تفسير قوله تعالى « وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » هو خوف من كان هؤلاء الاخوة يبرون به من القبائل والأعداء وهم مغتربون ومعهم الاموال وهذا هو ما فسرنا به الإيلاف آتاه وقد فسرهم قوم بشير ذلك قالوا : إن هاشما جعل على رؤساء القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحصى بها أهل مكة ، فإن ذوبان العرب وصالحك الأحياء وأصحاب الغارات وطلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على الحرم لا سبيا وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدرا ، مثل طيء ، وخثعم وقضاعة وبض بلعرب بن كعب ، وكيفما كان الإيلاف فإن هاشما كان القائم به دون غيره من إخوته .

قال أبو عبيان : ثم حلف الفضول وجلالته وعظمته ، وهو أشرف حلف كان في العرب كلها وأكرم عقد عقده قريش في قديها وحديثها قبل الاسلام . لم يكن لبنى عبد شمس فيه نصيب ، قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يذكر حلف الفضول : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا لودعيت إلى مثل في الاسلام لأجبت . ويكنى في جلالته وشرفه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهده وهو غلام . وكان عتبة بن ربيعة يقول : لو أن رجلا خرج مما عليه قومه لتخلت في حلف الفضول لما أرى من كلاله وشرفه ولما أعلم من قدره وفضيلته . قال : ولفضل ذلك الحلف وفضيلة أهله سمي « حلف الفضول » وسميت تلك القبائل « الفضول » فكان هذا الحلف في بنى هاشم وبنى المطلب وبنى أسد بن عبد العزى وبنى زهرة وبنى تيم بن مرة . فاتفقوا في دار ابن جدعان في شهر حرلم قياما يتماشون بأفهم

صدا لِيَكُونُنْ مع المظلوم حتى يودوا إِلَيْهِ حقه ما بل بحر صوفة ، وفي التآسى في
المأش والتسام بالمال . وكانت النباهة في هذا الحلف للزُّبير بن عبدالمطلب ولعبد
الله بن جدعان . أما ابن جدعان فلأن الحلف عقد في داره ، وأما الزُّبير فلا أنه
هو الذى نهض فيه ودعا إِلَيْهِ وحث عليه ، وهو الذى سباه « حلف الفضول »
وذلك لأنه لما سمع الزُّبير المظلوم ثمن سلته قد أوفى على أبى قيس قبل طلوع
الشمس راضاً عفيرة ، وقرش في أُنْدِيْهَا ، قائلا :

يَا لِرَجَالٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتُهُ بِيْطُنٍ مَّكَّةَ نَانِيٍّ الْخِيَّ وَالْتَفَرِ
إِنَّ الْحَرَامَ لَنْ تَمُتَ حَرَامَتُهُ وَلَا حَرَامَ لَثَوْبِيْ لَابِسِ الْفَدْرِ

حمي وحلف ليعقدن حلفاً بينه وبين بطون من قرش يمنون القوى من ظلم
الضعيف ، والتاطن من عنف الغريب . ثم قال :

حَلَفْتُ لَتُعْقِدَنَّ حِلْفًا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنَّا جَبِيحًا أَهْلَ دَارِ
نُسَمِيهِ الْقُضُولَ إِذَا عَقَدْنَا يَرْثِيْهِ الْغَرِيبُ لَدَى الْجَوَارِ
وَيَعْلَمُ مَنْ يَطْلُوفُ الْبَيْتَ أَنَا أَبَاؤُ الصَّمِّ نَهَجُرُ كُلَّ عَارِ

فبنو هاشم هم الذين سموا ذلك الحلف « حلف الفضول » وهم كانوا سبيه
والقائمين به دون جميع القبائل العاقدة له والشاهدة لأمره ، فاعلمتكم بمن شهده ولم
يقم بأمره ؟

قال أبو عثمان : وكان الزُّبير بن عبد المطلب شجاعاً أياً وجيلاً بهياً ، وكان
خطيباً شاعراً وسيداً جواداً ، وهو الذى يقول :

وَلَوْلَا الْحُسْنُ لَمْ يَلْبَسْ رِجَالُ ثِيَابَ أَعَزَّةٍ حَتَّى يَمُوتُوا
ثِيَابُهُمْ شِمَالُ أَوْ عِبَاءُ بِهَا دَسُّ كَا دَسِ الْحَيْثُ
وَلَكِنَّا خُلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا لَنَا الْخَبَرَاتُ وَالْمَسْكُ الْفَتِيَتْ
وَكُلُّنَا لَوْ تَبَيَّنْ لَهُمْ كَلَامَا لَقَالَتْ إِيْمَا لَهُمْ سُبَيْتُ

تُبِينُ لَنَا الْفَدَىٰ إِنْ كَانَ فِيهَا رَصِينُ الْحِلْمِ يَشْرِبُهَا هَبِيتُ
وَيَقْطَعُ نَحْوَةَ الْمُخْتَالِ عَنَّا رِقَاقُ الْحَدِّ ضَرْبَتُهُ صَوْتُ
يَكْفُ مُجَرَّبٍ لَا عَيْبَ فِيهِ إِذَا لَقِيَ الْكَرْهَةَ يَسْتَمِيتُ
قال : والزبيرُ هو الذي يقول :

وَأَسْتَحِمُ مِنْ رَاحِ الْعِرَاقِ مُمَلَّاهُ مُحِيطٌ عَلَيْهِ الْخَيْشُ جِلْدُ مَرَاثِرِهِ
صَبَّحْتُ بِهِ طَلْقًا رَاسِحٌ إِلَى النَّدَىٰ إِذَا مَا لَنْتَنِي لَمْ يَخْتَصِرْهُ مَعَا فِرُهُ
ضَعِيفٌ بِجَنْبِ الْكَاسِ قَبْضُ بَنَاهُ كَلِيلٌ عَلَى جِلْدِ النَّدِيمِ أَظَا فِرُهُ

قال : وهو هاشم هم الذين ردوا على الزبيرى ثمن بضاعته ، وكانت عند
العاص بن وائل ، وأخذوا للبارقى ثمن سلحته من أبي بن خلف الجمحي ، وفي ذلك
يقول البارقى :

وَيَا أَبَى لَكُمْ حِلْفُ الْقُصُولِ ظِلَامَتِي بَنَى مُجَمِّعٍ وَالْعَقُ يُؤْخَذُ بِالنَّصَبِ
وَمَنْ الَّذِينَ انْتَزَعُوا مِنْ نُبَيْتِ بْنِ الْحِجَابِ قَتْلَ الْحَسَاءِ بَنَتِ التَّاجِرَ الْحَشْمِيَّ
وَكَانَ كَابِرُهُ عَلَيْهَا حِينَ رَأَى جَمَلَهَا . وفي ذلك يقول نُبَيْتُ بْنُ الْحِجَابِ :
وَحَشِيتُ الْقُصُولَ حِينَ أَتَوْنِي قَدْ أَرَانِي وَلَا أَخَافُ الْقُصُولَا
إِنِّي وَالَّذِي يَحِجُّ لَهُ شُمُطُ إِنَائِدٍ وَهَلَّلُوا تَهْلِيلَا
لِبَرَاءَةٍ مِنِّي قُتِيلَةٍ يَا لِنَاسٍ هَلْ يَبْتَغُونَ إِلَّا الْقَتُولَا
وفيها أيضا يقول :

لَوْ لَا الْقُصُولُ وَأَنَّهُ لَا أَمْنٌ مِنْ عُدَوَائِهَا
لَدَنَوْتُ مِنْ أَيْبَائِهَا وَلَطَفْتُ حَوْلَ خِيَابِهَا

في كلمته التي يقول فيها :

حَتَّى الْبَحِيلَةَ إِذْ نَأَتْ مِنَّا عَلَى عُدَوَائِهَا
لَا بِالْعِرَاقِ تُبْلِلُنَا شَيْئًا وَلَا يُلْقَانَا

حَلَّتْ بِمَكَّةَ حَلَّةً فِي مَشْيِهَا وَوِطَائِهَا

في رجال كثير اشتهروا منهم الظلمات . ولم يكن يظلم بمكة إلا رجال أنوفاء
ولهم العدد والعارضة ، منهم من ذكرنا قصته .

قال أبو عثمان : ولهاشم أخرى لا يد أحد مثلها ولا يأتي بما يتعلق بها . وذلك
أن رؤساء قبائل قريش خرجوا إلى حرب بني عامر متساندين ، فكان حرب بن
أمية على بني عبد شمس ، وكان الزبير بن عبد المطلب على بني هاشم ، وكان
عبد الله بن جدعان على بني تيم ، وكان هشام بن المغيرة على بني مخزوم . وكان
على كل قبيلة رئيس منها ، فهم متكافئون في التساند ولم يحقق واحد منهم الرأسه
على الجميع . ثم أب هاشم بما لا يبلغه يد متناول ولا يطعم فيه طامع ، وذلك أن النبي صلى
الله عليه وسلم قال : شهدت التجار وأنا غلام فكنت أنبل فيه على عموقي . فنفى
مقامه عليه الصلاة والسلام أن تكون قريش هي التي فجرت ، فسميت تلك الحرب
« حرب التجار » وثبت أن الفجور إنما كان ممن حاربهم . وصاروا يمينه ويركته
ولما يريد الله من إعزاز أمره وإعظام الغالبين المألين . ولم يكن الله ليشهده فجرة
ولا غدره ؟ فصار مشهده نصراً وموضه فيهم حجة ودليلاً .

قال أبو عثمان : وشرف هاشم متصل ، من حيث عدت كان الشرف معه
كأبرأ عن كابر ، وليس بنو عبد شمس كذلك ، فإن الحكم بن أبي العاص
كان عارياً في الاسلام ولم يكن له سناء في الحاهلية . وأما أمية فلم يكن في نفسه
هناك ، وإنما رضه أبوه ، وكان مضعوقاً وكان صاحب عمار ، يدل على ذلك قول
قيل بن عدى جد عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حرب بن أمية وعبد المطلب
ابن هاشم ، ففر عبد المطلب وتجنب من إقدام حرب عليه وقال له :

أَبُوكَ مُكَاهِرٌ وَأَبُوهُ عَفٌّ وَذَاكَ الْقَتِيلُ مَنْ بَلَكَ حَرَامٌ

وذلك أن أمية كان تعرض لامرأة من بني زهرة فصر به رجل منهم بالسيف ،
فأراد بنو أمية ومن تبعهم إخراج بني زهرة من مكة قدام دولهم قيس بن عدى

السهمي ، وكانوا أحواله ، وكان منيع الجانب شديد العارضة حَمِيَّ الأُفَّ أبي النفس
قام دونهم وصاح : أصبح ليل . فذهبت مثلاً . ونادى : الآن الظاعن مقبم .
وفي هذه القصة يقول وَهْبُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ زُهْرَةَ :

مَهْلَأُمِي فَإِنَّ الْبَنَى مَهْلَكَةٌ لَا يُكَيِّبَنَّكَ يَوْمَ شَرِّهِ ذَكَرُ

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِمَةٌ يُصَبُّ فِي الْكَاسِ مِنْهُ الصَّابُ وَالْقَرِ (١)

قال أبو عَمَان : وصنع أمية في الجاهلية شيئاً لم يصنعه أحد من العرب ، زوج
ابنه أبا عمرو امرأته في حياته منه ، فأولمها أبا مُعَيْطَ بْنِ أَبِي عَمْرٍو بْنِ أُمِيَّة . والقيتون
في الإسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم . فاما أن يتزوجها في حياة
الأب ويبنى عليها وهو يراه فإنه شيء . لم يكن قط .

قال أبو عَمَان : وقد أقر مُعَاوِيَةُ عَلَى تَهٍ وَرَهْطِهِ لَبْنِي هَاشِمٍ حِينَ قِيلَ لَهُ :
أَيُّهَا كَانَ أَسْوَدُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، أَنْتُمْ أَمْ بَنُو هَاشِمٍ ؟ قَالَ : كَانُوا أَسْوَدَ مَنَاوَحًا ، وَكَتْنَا
أَكْثَرَهُمْ سَيِّدًا . فَأَقْرَوَادَعِي ، فَهَوِيَ إِقْرَارُهُ بِالْمُخَصِّمِ ، وَفِي ادْعَاةِ الْفَضْلِ خَصِيمٍ
وَقَالَ جَعَشُ بْنُ رَبَابٍ الْأَسَدِيُّ حِينَ نَزَلَ مَكَّةَ بَعْدَ مَوْتِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ : وَاللَّهِ
لَأَتَزَوَّجَنَّ ابْنَةَ أَكْرَمِ أَهْلِ هَذَا الْوَادِي وَلَأُحَالِفَنَّ أَعْزَمَ . فَتَزَوَّجَ أُمِيَّةَ بِنْتَ
عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَحَالَفَ أَبَاسُفِيَانَ بْنَ حَرْبٍ . وَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَعْزَمُ لَيْسَ
بِأَكْرَمِهِمْ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمُهُمْ لَيْسَ بِأَعْزَمٍ . وَقَدْ أَقْرَأَ أَبُو جَهْلٍ عَلَى
تَهٍ وَرَهْطِهِ مِنْ بَنِي مُعْزُومٍ حِينَ قَالَ : تَحَارَبْنَا نَحْنُ وَهُمْ حَتَّى إِذَا صَرْنَا كَهَاتَيْنِ جَاءَنَا
نَبِيٌّ . فَأَقْرَأَ بِالْمُخَصِّمِ ثُمَّ ادَّعَى الْمُسَاوَاةَ ، أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ أَقْرَأَ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَطْلُبُ شَأْؤَهُمْ
ثُمَّ ادَّعَى أَنَّهُ لِحَقْمِهِمْ ؟ فَهُوَ مُخَصِّمٌ فِي إِقْرَارِهِ ، خَصِيمٌ فِي دَعْوَاهُ . وَقَدْ حَكَّمَ لِهَاشِمٍ
دَغْفَلَ بْنُ حَنْظَلَةَ النَّسَابَةَ حِينَ سَأَلَهُ مُعَاوِيَةُ عَنْ بَنِي هَاشِمٍ فَقَالَ : هُمْ أَطْعَمُ لِلطَّلَامِ
وَأَضْرَبُ لِلِهَامِ . وَهَاتَانِ خَصْمَتَانِ يَجْحَمَانِ أَكْثَرَ الشَّرَفِ .

قال أبو عَمَان : والعجب من منافرة حرب بن أمية عبد المطلب بن هاشم وقد

لطم حرب جارا خلف بن أسعد جد طلحة الطلحات فجاء جاره فشكا ذلك إليه ،
فقتل خلف إلى حرب وهو جالس عند الحجر فلطم وجهه عنوة من غير تحاكم
ولا تراض ، فاستطاع فيه عزان . ثم قام أبو سفيان بن حرب مقام أبيه بعد
موته فخلفه أبو الأزهر الهوسى ، وكان عظيم الشأن فى الأزد ، وكانت بينه وبين
بنى الوليد بن المغيرة محاربة فى مصاهرة كانت بين الوليد وبينه ، فجاء هشام
ابن الوليد وأبو الأزهر قاعد فى مقعد أبي سفيان بذى الحجاز فضرب عنقه ، فلم يدرك
به أبو سفيان عقلا ولا قودا فى بنى المغيرة . وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك :

غدا أهل حصنى ذى الحجاز بـُعريرةٍ وجارُ ابنِ حربٍ لا يروحُ ولا يندُ
كذلكَ هشامُ بنُ الوليدِ ريباً بهُ فأبلى وأخلقَ مثلها جُداً بـُندُ

قال أبو عبيان : فإن قلت أمية : لنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان
ابن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى . أربعة
خلفاء فى نسق . قلنا لم : ولبنى هاشم : هرون الوائلى بن محمد المصم بن هرون
الرشيدي بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد الكامل بن طلى السجاء —
كان يصلى كل يوم ليلة ألف ركعة ، فكان يقال له السجاء لمبادئه وفضله ، وكان
أجل قترتى على وجه الأرض وأوصمه ، وليلة قتل على بن أبى طالب فسبى باسمه وكفى
بكينيته فقال عبد الملك : لا والله لا أحتمل لك الاسم والكنية فغير أحدهما ؟
فغير الكنية فغيرها أباً محمد — ابن عبد الله وهو البحر وهو جبر قريش وهو
المقته فى الدين العلم التأويل ، ابن العباس ذى الرأى وحليم قريش ، ابن شعبة
الحمد وهو عبد المطلب سيد الوادى ، ابن عمرو وهو هاشم هشام الأريد وهو القبر
سمى بذلك لجلاله ولائهم كانوا يقتدون به ويهتدون برأيه ، ابن المغيرة . وهو
عبد مناف بن زيد وهو قصى وهو نجمع . فهؤلاء ثلاثة عشر سيداً لم يجرم منهم
واحد ولا قصر عن الغاية . وليس منهم واحد إلا وهو ملقب بلقب اشتق له من
فضله الكريم ، ومن خلقه الجميل ، وليس منهم إلا خليفة أو موضع للخلافة أو سيد

في قديم الدهر متبع أو ناسك مقدم أو قه بارع أو حليم ظاهر الركاة . وليس هذا لأحد سوام . ومنهم خسة خلفاء في نسق ، وهم أكثر عما عدته الأموية . ولم يكن مروان كالنصور ، لأن النصور ملك البلاد ودوخ الأقطار وضبط الأطراف اثنتين وعشرين سنة ، وكانت خلافة مروان على خلاف ذلك كله ، وإنما بقي في الخلافة تسعة أشهر حتى قتلته امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية حين قال لابنها خالد من بعها الأول : يا ابن الرطبة . ولئن كان مروان مستوجبا لاسم الخلافة مع قلة الأيام وكثرة الاختلاف واضطراب البلدان فضلا عن الأطراف ، فابن الزبير أولى بذلك منه ، فقد كان ملك الأرض إلا بعض الأردن . ولكن سلطان عبد الملك وأولاده لما اتصل بسلطان مروان ، اتصل عند القوم ما قطع منه وأخفى موضع الوهن عند من لا علم له . وصنوه المهدي كانت سنى سلامة ، وما زال ملك عبد الملك في انتفاض وانتكاث ، ولم يكن ملك يزيد كملك هرون ، ولا ملك الوليد كملك المعتصم

قال أبو عثمان : وتغفر عليهم بنو هاشم بأن سنى ملكهم أكثر ومدته أطول ، فانه قد بلغت مدة ملكهم إلى اليوم أربعا وتسعين سنة . ويضخرون أيضا عليهم بأنهم ملكوا بالديار وبحق العصبية والعُومة ، وأن ملكهم في مغرس نبوة ، وأن أسبابهم غير أسباب بنى مروان ، بل ليس لبنى مروان فيها سبب ولا بينهم وبينها نسب ، إلا أن يقولوا إنا من قريش . فيساؤوا في هذا الاسم قريش الظواهر . لأن رواية الراوى : الآفة من قريش . واقصة على كل قريش . وأسباب الخلافة معروفة وما يدعيه كل حيل معلوم ، وإلى كل ذلك قد ذهب الناس فهم من ادعاه للى لاجتماع القرابة والسابقة والوصية . فإن كان الأمر كذلك فليس لآل أبي سفيان ولا لآل مروان فيها دعوى ، وإن كانت إنما تنال بالوراثة وتستحق بالعُومة وتستوجب بحق العصبة ، فليس لهم أيضا فيها دعوى ، وإن كانت لا تنال إلا بالسوابق والأعمال والجهاد ، فليس لهم في ذلك قسم مذكور ولا يوم مشهور ،

بل كانوا إذ لم يكن لهم ساجدة ولم يكن فيهم ما يستحقون به الخلافة ولم يكن فيهم ما يمنعهم منها أشد المنع لكان أهون ولكان الأمر عليهم أيسر. قد عرفنا كيف كان أبو سفيان في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وفي محاربتة له وإجلاله عليه وغزوه إياه ، وعرفنا إسلامه كيف أسلم وإخلاصه كيف أخلص ومعنى كلمته يوم الفتح حين رأى الجنود وكلامه يوم حنين وقوله يوم صعد بلال على الكعبة فأذن ، على أنه إنما أسلم على يدى العباس ، والعباس هو الذي منع الناس من قتله وجاء به ردفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم سأله فيه أن يشرفه وأن يكرمه وينوه به . وتلك يد بيضاء ونعمة غراء ومقام مشهود ، ويوم حنين غير محمود . فكان جزاء بني هاشم من بنيه أن حاربوا عليا ، وسموا الحسن وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الأتقاب حواسر وكشفوا عن عورة علي بن الحسين حين أشكل عليهم بلوغه كما يصنع بذراري المشركين إذا دخلت دورهم عنوة . وبست معاوية بُسر ابن أوطاة إلى النبي فقتل ابنه عبيد الله بن العباس ، وهما غلامان لم يبلغا الحلم . وقتل عبيد الله بن زياد يوم اللطف تسعة من صلب علي وسبعة من صلب عقيل ، ولتلك قال ناعيم :

عَيْنُ جُودِي بَصِيرَةٌ وَعَوِيلُ وَأَنْدُبِي إِنْ نَدَبَتْ آلَ الرَّسُولِ
تَسْعَةُ كَلْبُهُمْ لَصْلَبٍ عَلَى قَدْ أُصِيبُوا وَسَبْعَةُ لِعَقِيلِ

ثم إن بني أمية تزعم أن عقيلاً أعان معاوية على علي ، فإن كانوا كاذبين فما أولام بالكذب ، وإن كانوا صادقين فما جازوا عقيلاً بما صنع . وضرب عنق مسلم ابن عقيل صبرا وغدرا بعد الأمان ، وقتلوا معه هاني بن عروة لأنه آواه ونصره ، ولتلك قال الشاعر :

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَذَرِينَ تَالُوتَ فَانْظُرِي إِلَى هَانِيٍّ فِي السُّوقِ وَإِنَّ عَقِيلَ
تَرَى بَلَّاقَدَ هَيْمَ السَّيْفِ وَجْهَهُ وَآخَرَ يَهُوى مِنْ طِيَارِ قَتِيلِ
وَأَكَلَتْ هِنْدُ كَبِدَ حِمْرَةٍ فَهَمَّ أَكَلَةُ الْأَكْبَادِ ، وَمِنْهُمْ كَهْفُ التَّفَاقِ ،

ومهم من قرين ثني بالحين بالقضيب ، ومهم القاتل يوم الحرّة عون بن عبد الله بن جعفر ، ويوم الطافّ أبا بكر بن عبد الله بن جعفر ، وقتل يوم الحرّة أيضا من بني هاشم : الفضل بن عباد بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ، والعباس بن عتبة بن أبي طالب بن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن العباس بن ربيعة ابن الحرث بن عبد المطلب

قال أبو عثمان : وقالت هاشم لامية : قد علم الناس ما صنع بنا من القتل والتشريد لا لاذنب أتيناها إليكم ، ضربتم علي بن عبد الله بن عباس بالسياط مرتين على أن تزوج بنت عمه الجعفرية التي كانت عند عبد الملك وعلى أن نخلصوه قتل سليط ، وسمّم أبا هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب ، ونشّم زينا وصليتموه وأقيم رأسه في عرصة الدار توطأ بالأقدام ، وينقر دماغه الحجّاج حتى قال القاتل :

إطردوا الديك عن ذؤابة زيد طللا كان لا تطأه الدجاج
وقال شاعركم أيضا :

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة ولم نر مهديّا على الجذع يصلب
وقسم بثمان علينا سفاهة وعثمان خير من علي وأطيب

فروى أن بعض الصالحين من أهل البيت قال : اللهم إن كان كاذبا فسلط عليه كلبا من كلابك . فخرج يوما بفعله فعرض له الأسد فافترسه . وقتل الإمام جعفر الصادق ، وقتل يحيى بن زيد وسميتم قاتله ثامر مروان وناصر الدين . هذا الى ماصنع سليمان بن حبيب بن المهلب عن أمركم وقولكم ببعد الله أبي جعفر المنصور قبل الخلافة ، وماصنع مروان بابراهيم الإمام أدخل رأسه في جراب نورة حتى مات . فإن أنشدتم :

أفاض الدامع قتلى كدى وقتلى بكثوة لم تُرمس
وبلّزايين هوس ثوت وأخرى بنهر أبي فطرس

أنشدنا نحن :

وَأَذْكُرُوا مَضْرَعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدًا وَقَتِيلًا بِجَانِبِ الْمِهْرَاسِ
وَالْقَتِيلَ الَّذِي بَنَجَرَ أَنْسَى ثُلُوبًا بَيْنَ غُرْبَةٍ وَتَنَاسٍ

وقد علمت حال مروان أيكم وضعفه وأنه كان رجلا لا قه له ولم يعرف بالزهد ولا بالصلاح ولا برواية الآثار ولا بصحبة ولا بعمدة ، وإنما ولي رستاقا من رساتيق دار أجمرد لابن عامر ثم ولي البحرين لماوية . وقد كان جميع أصحابه ومن تابعه يبايع لعبد الله بن الزبير حتى رده عبيد الله بن زياد . وقال يوم مرج راهط والرؤس تندر عن كواهلها في طاعته :

وَمَا صَرَّهْمُ عِنْدَ حَيْنِ النُّفُوسِ أَيْ غَلَامِي قَرِيشٍ غَلَبُ

وهذا قول من لا يستحق أن يلى ربما من الأربع ولا خسا من الأخلس ، وهو أحد من قتله النساء لكلمة كان حثفه فيها . وأما أبوه الحكم بن أبي العاص فهو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولينته والمتخلف في مشيته الحاكى لرسول الله والمتسمع عليه ساعة خلوته ، ثم صار طريدا لأبي بكر وعمر ، امتنعا عن إعادته إلى المدينة ولم يقبلأ فيه شفاعة عثمان ، فلما ولي أدخله فكان أعظم الناس شؤما عليه ومن أكبر الحسب في قتله وخلمه من الخلافة .

فبعد الملك أبو هؤلاء الملوك الذين تفتخر الأموية بهم أعرق الناس في الكفر ، لأن أحد أبويه هذا والآخر من قبل أمه معاوية بن المغيرة بن أبي العاص كان النبي صلى الله عليه وسلم طرده من المدينة وأجله ثلاثا فخير الله حين خرج وبقي مترددا متلدا حولها لا يمتدى لسبيله حتى أرسل في أثره عليا وعمارا فقتلاه ، فأنتم أعرق الناس في الكفر ، ونحن أعرق الناس في الايمان ، ولا يكون أمير المؤمنين إلا أولام بالايمان وأقدمهم فيه .

قال أبو عثمان : وتفتخر هاشم بأن أحدا لم يجد تسعين عاما لا طواعين فيها إلا منذ ملكوا . قلوا : لو لم يكن من بركة دعوتنا إلا أن تذيب الأمراء لهال

الحراج بالتعليق والرقق والتجريد والتسهيرو والمسال والنورة والجورتين والمذراء
والجامعة والتشبيب قد ارتفع لكان ذلك خيرا كثيرا . وفي الطاعون يقول الهامي
الراجزي ذكر دولتنا :

قد رضع الله رماح الجنِّ وأذهب التعذيب والتجنى

والعرب تسمى الطواغين رماح الجن . وفي ذلك يقول الشاعر :

لمرّك ما خَشِيتُ على أبيِّ رماح بني مُقَيْدَةَ الحِمَارِ

ولكنني خَشِيتُ على أبيِّ رماح الجنِّ أو إِيَّاكَ حَارِ

يقوله بعض بني أسد لهرث النضائي الملك

قال أبو عثمان : وتقرّ هائم عليهم بأنهم لم يهدموا الكعبة ، ولم يحولوا القبلة ،
ولم يجلوا الرسول دون الخليفة ، ولم يختموا في أعناق الصحابة ، ولم يغيروا أوقات
الصلاة ، ولم ينقشوا أكف المسلمين ، ولم يأكلوا الطعام ويشربوا على منبر رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ولم يتهبوا الحرم ولم يطرؤا السلطات في دار الإسلام بالسبأ .

قال أبو عثمان : ويفخر بنو العباس على بني مروان ، وهائم على عبد شمس
بأن الملك كان في أيديهم فأنزعوه منهم وغلبوه عليه بالبطش الشديد وبالخيلة
الاعطيفة ثم لم ينزعوه إلا من يد أشجعهم شجاعة وأشدّهم تديرا وأبعدهم غورا ومن
نشأ في الحروب وربى في الثور ومن لا يعرف إلا الفتوح وسياسة الجنود ، ثم أعطى
الوفاء من أصحابه والصبر من قواده فلم يندر منهم غادر ولا قصر منهم مقصر ، كما قد
بلمك عن خنظلة بن نباتة وعامر بن ضبارة ويزيد بن عمرو بن هبيرة ولا من سائر
قواده حتى أحبابه وكتابه ، كعبد الحميد الكاتب ، ثم لم يلقه ولا لقي تلك الحروب
في عامة تلك الأيام إلا رجال ولد العباس بأنفسهم ، ولا قام بأكثر الدولة إلا ما ينجم
كعبد الله بن علي ، وصالح بن علي ، وداود بن علي ، وعبد الصمد بن علي ، وقد
قيهم المنصور قه

قال : وتغفر هاشم أيضا عليهم يقول النبي صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدق : « قلت من الأصحاب الزاكية إلى الأرحام الطاهرة وما افرقت فروقان إلا كنت في خيرهما » . وقوله : « بنت من خيرة قريش » . ومعلوم أن بنى عبد مناف افرقوا فكانت هاشم والمطلب يدا ، وعبد شمس ونوفل يدا . قال : وإن كان الفخر بكثرة العدد ، فإنه من أعظم مفاخر العرب ، فولد على ابن عبد الله بن العباس اليوم مثل جميع بنى عبد شمس . وكذلك ولد الحسين ابن على بن أبى طالب . هذا مع قرب ميلادهما . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « هاهنا ولود خير من حسناء عقيم » . وقال : « أنا مكأثر بكم الأمم » . وقد روى الشعبي عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم من سفر فأراد الرجال أن يطرقوا النساء ليلا قال : « أمهلوا حتى تمتشط الشعثة وتستحد المنيبة ، فإذا قدمت فالكيس الكيس » . قالوا : ذهب إلى طلب الولد . وكانت العرب تفخر بكثرة الولد . وتعد الفحل القبيس وتسم الماتر والعقيم . قال عامر بن الطفيل يبنى قومه :

لَيْسَ النَّبِيُّ إِنْ كُنْتُ أَعَوَزَ عَاقِرًا جَبَانًا فَمَا عُذْرِي لَدَى كُلِّ مُحْضَرٍ
وقال علقمة بن علاثة يفض على عامر : آمنت وكفر ، ووفيت وغدر ، وولدت وعقر ..
وقال الزُّبْرَقَان :

فَأَسْأَلُ بَنِي سَعْدِ وَغَيْرَهُمْ يَوْمَ الْقِتَارِ فَمِنْهُمْ جَبْرِي
أَيُّ أَمْرِي أَنَا حِينَ يَحْضُرُنِي رَفْدُ السَّلَاةِ وَطَالِبُ النُّصْرِ
وَإِذَا هَلَكْتُ تَرَكْتُ وَسْطَهُمْ وَلَدَى الْكِبْرَامِ وَنَابِ الدُّخْرِ

وقال طرفة بن العبد :

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عُمَرَو بْنَ مَرْثَدٍ
فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَعَلَانِي بَنُونَ كِرَامٍ سَلْدَةٌ لِسُودٍ

ومدح النابغة الذبياني ناساً قال :

لَمْ يُحَرِّمُوا طِيبَ النِّسَاءِ وَأَمَّهُمْ طَفَعَتْ عَلَيْكَ بِنَاطِقٍ مَذْكَارٍ

وقال نهشل بن حري :

عَلَّ يَتَى يَشْدُ اللَّهُ عَظْمَهُمُ وَالْتَبِعُ يَنْبْتُ قُضْبَانَا فَبَكْتَهْلُ

ومكث الفرزدق زماناً لا يولد له فبصرته امرأته فقال :

قَالَتْ أَرَاهُ وَاحِدًا لَا أَخَا لَهُ يُؤْمَلُهُ فِي الْوَارِثِينَ الْأَبَاعِدُ

لَمَّاكَ يَوْمًا أَنْ تَرَبِّيَ كَأَمَّا يَتَى حَوَالَى الثُّبُوتِ الْحَوَارِدُ

فَانْ تَمِيماً قَبْلَ أَنْ يُلِدَ الْخَصَا أَقَامَ زَمَانًا وَهُوَ فِي النَّاسِ وَاحِدُ

وقال آخر - وقدمت اخوته وملا حوضه ليستقي فجاء رجل صاحب عشرة

وعشرة فأخذ بضبعه فتناه ثم قال لراعيه : إسق إبلك - :

لَوْ كَانَ حَوْضُ حِمَارٍ مَاشَرَبَتْ بِهِ إِلَّا بِإِذْنِ حِمَارٍ آخِرِ الْأَبْدِ

لَكِنَّهُ حَوْضُ مَنْ أَوْدَى بِإِخْوَتِهِ رَبُّهُ لِلنُّونِ فَأَمْسَى بَيْضَةَ الْبَلَدِ

لَوْ كَانَ يُشْكِي إِلَى الْأُمُوتِ مَلَقَى الْأَحْيَاءَ بَدَهُمْ مِنْ قِلَّةِ الْمَدَدِ

نَمْ اسْتَكَيْتَ لِأَشْكَائِي وَأَنْجَدْتِي قَبْرُ بَسِيجَارٍ أَوْ قَبْرُ عَلَى فَعَدِ

وقال الأعشى وهو يذكر الكثرة :

وَلَسْتُ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَا وَلَمَّا الْمِرَّةُ لِلْكَثَارِ

قال : وقد ولد رجال من العرب كل منهم ولد لصلبه أكثر من مائة ،

فصاروا بذلك مفزراً ، منهم : عبد الله بن عمير الليثي ، وأنس بن مالك الأنصاري

وخليفة بن ير السعدي . أتى على عاتقهم الموت الجارف . ومات جعفر بن سليمان

بن علي بن عبد الله بن العباس عن ثلاثة وأربعين ذكراً وخمس وثلاثين امرأة

كلهم لصلبه ، فما ظنك بمن مات من واهة في حياته ؟ وليس طبقة من طبقات

الأسنان ألموت إليها أسرع وفيها أعم وأفشى من سن الطفولية. وأمر جعفر بن سليمان قد عاينه عالم من الناس وعلمتهم أحياء . وليس خبر جعفر كخبر غيره من الناس . قال الهيثم بن عدي : أفضى الملك إلى ولد العباس وجميع ولد العباس يومئذ من الذكور ثلاثة وأربعون رجلاً ، ومات جعفر بن سليمان وحده عن مثل هذا العدد من الرجال . وعن قرب ميلاده وكثر نسله حتى صار كبعض القبائل والعشائر : أبو بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمهلب بن أبي صفرة ، ومسلم بن عمرو الباهلي ، وزيد بن عبيد أمير العراق ، ومالك بن مسعم . وولد جعفر بن سليمان اليوم أكثر عدداً من أهل هذه القبائل . وأربعة من قريش ترك كل واحد منهم عشرة بنين معروفين ، وهم : عبد المطلب بن هاشم ، والمطلب بن عبدمناف ، وأممية ابن عبد شمس ، والمغيرة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . وليس على ظهر الأرض هاشي إلا من ولد عبد المطلب . ولا يشك أحد أن عدد الهاشميين شبيه بعدد الجميع . فهذا مافي الكثرة والقلة .

قال : وإن كان الفخر ببذل الرأي وصواب القول ، فمن مثل عباس بن عبد المطلب وعبد الله بن العباس ؟ وإن كان في الحكم والسؤدد وأصالة الرأي والفناء العظيم ، فمن مثل عبد المطلب ؟ وإن كان إلى الفقه والعلم بالتأويل ومعرفة التنزيل ، وإلى القياس السديد وإلى الأئسنة الحداد والخطب الطوال ، فمن مثل علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس ؟ قالوا : خطبنا عبد الله بن عباس خطبة بمكة أيام حصار عثمان لو شهدها التترك والديلم لأسلحوا . وفي عبد الله بن العباس يقول حسان بن ثابت :

إِذَا قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالاً لِقَائِلِ
عَلَّتْ عَطَابٌ لَا تَرَى بَيْنَهَا فَصْلًا
شَقِيٌّ وَكَفَى مَا فِي النَّفُوسِ فَلَمْ يَدْعُ
قَدِي إِذْ بَعَثَ فِي الْقَوْلِ جِدًّا وَلَا هَزْلًا

وهو البحر ، وهو الخبر ، وكان عمر يقول له في حديثه عند إجابة الرأي : غص غواص . وكان يقدمه على جلة السلف .

قال : وإن كان الغر في البسالة والنجدة وقتل الأقران وجزر للفرسان ، فمن
أحزمة بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب ؟ وكان الأخنف إذا ذكر حمزة قال :
أليس . وكان لا يرضى أن يقول شجاع ، لأن العرب كانت تجعل ذلك أربع طبقات
فتقول : شجاع . فإذا كان فوق ذلك قالت : بطل . فإذا كان فوق ذلك قالت :
بُهمة . فإذا كان فوق ذلك قالت : أليس . وقال الحجاج : « أليس عن حوابعه
سُخى » . وهل أكثر ما يمد الناس من جرحاهما ومرعاهما إلا ساداتكم وأعلامكم ؟
قتل حمزة وعلى عتبة والوليد ، وقتلا شعبة أيضاً شركا عبدة بن الحارث فيه ،
وقتل على حنظلة بن أبي سفيان . فأما آباء ملوككم من بني مروان فانهم كما قال
عبد الله بن الزبير لما أنه خبر المصعب : إنا والله ما نموت جبجا كما يموت آل أبي
المص ، والله ما قتل منهم قتيل في جاهلية ولا إسلام ، وما نموت إلا قتلا ، قصبا بالرمح
وموتاً تحت ظلال السيوف . قال أبو عبيد : كأنه لم يعد قتل معاوية بن النخيلة
ابن أبي المص قتل ، إذ كان إنما قتل في غير معركة ، وكذلك قتل عبيد بن عوف
إذا كان إنما قتل محاصراً ، ولا قتل مروان بن الحكم لأنه قتل خنقاً خنقه النساء ؟
قال : وإنما قتل عبد الله بن الزبير بما في بني أسد بن عبد المطلب من القتل ، لأن
من شأن العرب أن تتفخر بذلك كيف كانوا قاتلين أو مقتولين . ألا ترى أنك
لا تصيب كثرة القتل إلا في القوم المروفين بالبأس والنجدة وبكثرة اللقاء والمجاربة ؟
كأن أبي طالب ، وآل الزبير ، وآل المهلب ؟ قال : وفي آل الزبير خاصة سبعة
مقتولون في نسق ، ولم يوجد ذلك في غيرهم : قتل عمارة وحمزة ابنا عبد الله بن
الزبير يوم قُدَيْد في المعركة ، قتلهما الأباضية ، وقتل عبد الله بن الزبير في محاربة
الحجاج ، وقتل مصعب بن الزبير بدير الجلائق في المعركة أكرم قتل ، وبازائه
عبد الملك بن مروان ، وقتل الزبير بوادي السباع منصرفه من وقعة الجمل ، وقتل
العوام بن خويلد في حرب القبار ، وقتل خويلد بن أسد بن عبد المطلب في حرب
خزاعة . فهؤلاء سبعة في نسق . قال : وفي بني أسد بن عبد المطلب قتلى كثيرون

غير هؤلاء : قتل المنذر بن الزبير بمكة ، قتله أهل الشام في حرب الحجاج وهو على بطل ورد كان قربه فأصعد به في الجبل . وإياه يعني يزيد بن مفرغ الجبيري وهو يهجو صاحبكم عبيد الله بن زياد ويعيره بفراره يوم البصرة :

لَا بِنَ الْزُبَيْرِ غَدَاةٌ تَدْمُرُ مُنْذِرًا أَوْ لِي بِكُلِّ خَفِيطَةٍ وَزَمَاعٍ

وقتل عمرو بن الزبير قتله أخوه عبد الله بن الزبير وكان في جوار أخيه عبيدة ابن الزبير فلم يبق عنه ، قال الشاعر يحرض عبيدة على قتل أخيه عبد الله بن الزبير ويعيره بإخفائه جوار عمرو أخيهما :

أَعْبَيْدُ لَوْ كَانَ الْجَبْرِ لَوَلَوْتَ بَدَنَ الْهُدَى بِرَنَةٍ أَسَاهُ
أَعْبَيْدُ إِنَّكَ قَدْ أَجَرْتَ وَجَارُكُمْ تَحْتَ الصَّفِيحِ تَنُوبُهُ الْأَصْدَاهُ
إِضْرِبْ بِسَيْفِكَ ضَرْبَةً مَذْكُورَةً فِيهَا أَدَاهُ أَمَانَةٌ وَوَقَاهُ

وقتل بجير بن العوام أخو الزبير بن العوام ، قتله سعد بن صفح الهوسى جد أبي هريرة من قبل أنه بناحية الجامة ، وقتل معه أصرم وبعلك اثني العوام بن خويلد . وقد قتل منهم في محاربة النبي صلى الله عليه وسلم قوم متهورون منهم : زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، وكان شريفاً ، قتل يوم بدر . وأبوه الأسود كان المثل يضرب بمزته بمكة ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر عاقرة الناقة : كان عزيزاً منيعاً كالأبي زمعة ويكفي زمعة بن الأسود أباحكية . وقتل الحرث بن الأسود بن المطلب يوم بدر أيضاً ، وقتل عبد الله بن حميد بن زهير بن الحرث بن الأسود بن المطلب بن أسد يوم بدر أيضاً ، وقتل نوفل بن خويلد يوم بدر أيضاً ، قتله علي بن أبي طالب ، وقتل يوم الحرة يزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود ، ضرب عنقه مسرف بن عقبة صبراً ، قال له : يا معي لا أمير المؤمنين يزيد بن معاوية على أنك عيّدقن له ؟ قال : بل أبيامه على آبي أخوه وابن عمه . فحضر عنقه . وقتل إسماعيل بن هبار بن الأسود ليلاً وكان دعى حيلة فخرج مصرخاً لمن استصرخه قتل فاتهم به مصعب بن عبد الله بن عبد

الرحمن فأحلفه معاوية خمسين يمينا وخطى سبيله . قال الشاعر :

وَلَا أُحِبُّ بَلِيلَ دَاعِيَا أَبَا أَسْحَى الثَّرُورَ كَأَعْرَ ابْنِ هَبَّارٍ
بَاتُوا يَجْرُونَ فِي الثَّخْبِ مُنْعَرًا بِسَ الْمَدِيَّةِ لِابْنِ الْعَمِّ وَالْجَارِ

وقتل عبد الرحمن بن العوام بن خويلد في خلافة عمر بن الخطاب في بعض المغازي . وقاتل ابنه عبد الله يوم الحار مع عثمان . فبذل الله بن عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، قتيل بن قتيل بن قتيل ، أربعة في نسق . ومن قتلهم : عيسى بن مصعب بن الزبير ، قتل بين يدي أبيه بسكن في حرب عبد الملك ، وكان مصعب يكنى أبا عيسى ، وعيسى كلالما : موالى قرش كهلها وصبيها . ومنهم مصعب بن عكاشة بن مصعب بن الزبير ، قتل يوم قديد في حرب الخوارج وقد ذكره الشاعر :

قُتِنَ فَاذْنُيْنَ رَجَالًا قُتِلُوا بَقْدِيدٍ وَلَنَقَمَانِ الْعَدَدُ
نَمَ لَا تَدْلُنَ فِيهَا مُصْعَبًا حِينَ يُبْكِي مِنْ قَتِيلٍ بِأَعْدُ
أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهَا بَاسِلًا صَارِمًا يُقَدِّمُ إِقْدَامَ الْأَسَدِ

ومنهم خالد بن عثمان بن خالد بن الزبير ، خرج مع محمد بن عبد الله بن حسن ابن حسن فقتله أبو جعفر وصلبه . ومنهم عتيق بن عامر بن عبد الله بن الزبير ، قتل بقديد أيضا ، وسمى عتيقا باسم جده أبي بكر الصديق .

قال : وإن كان الفضل والفضل في الجود والسخاء ، فمن مثل عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب ؟ ومن مثل عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ؟ — وقد اعترضت الأموية هذا الموضع فقالت : إنما كان عبد الله بن جعفر يهيم بما كان معاوية ويزيد يهبانه له ، فمن فضل جودنا جاد ، قالوا : ومعاوية أول رجل في الأرض وهب ألف ألف درهم ، وابنه يزيد أول من ضاعف ذلك . فإنه كان يميز الحسن والحسين ابني طي في كل عام لكل واحد منهما بألف ألف درهم ، وكذلك كان يميز عبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر ، فلما مات وقام يزيد وقد عليه عبد الله بن

جعفر فقال له : إن أمير المؤمنين معاوية كان يصل رجلي في كل سنة بألف ألف درهم ؟ قل : فلك ألفا ألف درهم ! فقال : بأبي أنت وأمي ؟ أما إنني ماقتها لابن أنثى قبلك ! قال : فلك أربعة آلاف ألف درهم — وهذا الاعتراض سقط ، لأن ذلك إن صح لم يعد جوداً ولا جائزة ولا صلة رحم ، هؤلاء قوم كان يخافهم على ملكه ويعرف حقهم فيه وموقفهم من قلوب الأمة ، فكان يذبر في ذلك تديراً ويرغب أمورا ويصانع عن دولته وملكه . ونحن لم نقد قط ما أعطى خلفاء بني هاشم قوادم وكتائبهم وبني عمهم جوداً ، فقد وهب المأمون للحسن بن سهل غلة عشرة آلاف ألف فما عد ذلك منه مكرمة ، وكذلك كل ما يكون داخل في باب التجارة واستالة القلوب وتدير الدولة ، وإنما يكون الجود ما يدفعه الملوك إلى الوفود والخطباء والشعراء والأشراف والأدباء والسيار ونحوهم ؟ ولولا ذلك لكان الخليفة إذا وفى الجند أعطياتهم احتسب ذلك في جوده ! فالعالمات شيء . والإعطاء على دفع المكروه شيء ، والتفضل والجود شيء .

ثم إن القين أعطاهم معاوية ويزيد هو بعض حقهم ، والثاني فضل عليهما أكثر مما خرج منهما . وإن أريد الموازنة بين ملوك بني السباس وملوك بني أمية في المعطاء اقتضح بنو أمية وناصروهم فضيحة ظاهرة . فإن نساء خلفاء بني العباس أكثر معروفاً من رجال بني أمية ، ولو ذكرت معروف أم جعفر وحدها لآثى ذلك على جميع صنائع بني مروان . وذلك معروف . ولو ذكرت معروف الخيزران وسليد الملات الطوامير الكثيرة به ، وما فظن خالصة مولاهم إلا فوق أجواد أجوادهم . وإن شئت أن تذكر مولاهم وكتائبهم فاذا ذكر عيسى بن ماهان ، وابنه علياً ، وخاله بن برمك ، وابنه يحيى ، وابنيه جعفر والفضل ، وكتائبهم منصور بن زياد ، ومحمد بن منصور قتي المسكر ، فإني لك تجد لكل واحد من هؤلاء ما يحيط بجميع صنائع بني عبد شمس

فأما ملوك الأموية فليس منهم إلا من كان يبخل على الطعام — وكان

جعفر بن سليمان كثيرا ما يذكر ذلك - وكان معاوية ينفذ الرجل النهم على مائنته. وكان النصور إذا ذكرهم يقول : كان عبد الملك جبارا لا يبالي ما صنع . وكان الوليد مجنونا ، وكان سليمان همه بطنه وفرجه ، وكان عمر أعور بين عميان ، وكان هشام رجل القوم . وكان لا يذكر ابن عاتكة . ولقد كان هشام - مع ما استثناء به - يقال هو الأحول السراق ، مازال يدخل أعطيات الجند شهرا في شهر وشهرا في شهر حتى أخذ لنفسه مقدار رزق سنة . وأنشده أبو النجم العجلي أرجوزته التي أولها « الحمد لله الوهوب المجزل » فما زال يصنق بيديه استحسانا لها حتى صار إلى ذكر الشمس فقال « والشمس في الأفق كمين الأحول » فأمر بوجع عنقه وإخراجه . وهذا ضف شديد وجهل عظيم . وقال خاله إبراهيم بن هشام الخزومي : ما رأيت من هشام خطأ قط إلا مرتين : حدا به الحادي مرة فقال :

إِنَّ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْبُخْتِيُّ أَكْرَمُ مَنْ عَشِيَ بِهِ الْمَطِيُّ

قال : صدقت ! وقال مرة : والله لا أشكون سليمان يوم القيامة إلى أمير المؤمنين . عبد الملك ! وهذا ضف شديد وجهل مفرط

قال أبو عثمان : وكان هشام يقول : والله إنني لأستحي أن أعطي رجلا أكثر من أربعة آلاف درهم . ثم أعطى عبد الله بن الحسن أربعة آلاف دينار فاعتدها في جوده وتوسعه . وإنما اشترى بها ملكه وحصن بها عن نفسه وما في يديه . قال له أخوه مسلمة : أنطع أن تلي الخلافة وأنت تجيل جيان ؟ فقال : ولكي حلیم عفيف . فاعترف بالجبن والبخل . وهل تقوم الخلافة مع واحد منهما ؟ وإن قامت فلا تقوم إلا مع الخطير العظيم والفرير الشديد ، ولو سلمت من الفساد لم تلم من العيب . ولقد قسم النصور عليهم عمر بن عبد العزيز بقوله : أعور بين عميان . وزعم أنه كان ناسكا ورعا قتيلا ، فكيف وقد جلد خبيب بن عبد الله بن الزبير مائة جلدة وصب على رأسه جرة من ماء بارد في يوم شلت حتى كثر فئات ، فما أقر بدمه ولا خرج لي وليه من حقه ولا أعطى عقلا ولا قودا ، ولا كان خبيب ممن أمنت عليه حدود .

الله وأحكامه وقصاصه فيقال كان مطيعاً بإقامتها وأنه أزهق الحد منه ؟ واحسبوا
الضرب كان أدباً وتزييراً فما عذره في الماء البارد في الشتاء على إثر جلد شديد ؟
ولقد بلغه أن سليمان بن عبد الملك يوصى فجاء حتى جلس على طريق من يجلس
عنده أو يدخل إليه فقال لرجاء بن حيوة في بعض ما يدخل وما يخرج من شأنه :
نشدتك الله أن تذكرني لهذا الأمر وتشير بي في هذا الشأن فوالله مالى عليه من
حلاقة ؟ فقال له رجاء : قاتلك الله ما أحرصك عليها ! ولما جاء الوليد بن عبد الملك
بنى الحجاج قال له الوليد : مات الحجاج يا أبا حفص ؟ قال : وهل كان الحجاج
إلا رجلاً منا أهل البيت ؟ وقال في خلافته : لولا ريعة في أعناق الناس ليزيد بن
عاتكة لجعلت هذا الأمر شورى بين صاحب الأعوام لإسماعيل بن أمية بن
عمر بن سعيد الأشدق ، وبين أحسن قريش القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وبين
سالم بن عبد الله بن عمر . فما كان عليه من الضرر والحر ، وكان عليه من الوكف
والنقص لو قال : بين على بن عبد الله بن عباس ، وعلى بن الحسين بن علي ؟
على أنه لم يرد التيسر ولا العدوى ، وإنما دبر الأمر للأموى . ولم يكن عنده
أحد من هاشم يصلح للشورى ثم دبر الأمر ليبيع لأخيه أبي بكر بن عبد العزيز
من بعده حتى عوجل بالسهم ؟ وقدم عليه عبدالله بن حسن بن حسن فلما رأى كلاله
وبيانه وعرف نسيه ومركبه وموضعه وكيف ذلك من قلوب المسلمين وفي صدور
المؤمنين لم يدعه بيت بالشام ليلة واحدة وقال له : الحق بأهلك فإنك لم تمنهم
شيئاً هو أقر منك ولا أرد عليهم من حياتك ، أخاف عليك طواعين الشام ،
وستلحقك الحوائج على ما تشتهى وتحب . وإنما كره أن يروه ويسمعوا كلامه
فلعله أن يذفر في قلوبهم بذراً ، ويضرب في صدورهم غرساً . وكان أعظم خلق الله
قولاً بالجبر حتى يتجاوز الجمية ويربى على كل ذى غاية صاحب شعبة ، وكان يصنع
في ذلك الكتب مع جملة بالكلام وقلة اختلافه إلى أهل النظر . وقال له شاذب
الخارجي : لم لا تلن رهطك وتذكر أباك إن كانوا عندك ظلة فجرة ؟ قال عمر :

مضى عهدك بلعن فرعون ؟ قال : مالى به عهد - قال : أفيسلك أن تمسك عن لعن فرعون ولا يسحق أن أمسك عن لعن آبائي ؟ ؟ ؟ فرأى أنه قد خصمه وقطع حجته ، وكذلك يظن كل من قصر عن مقدار العالم وجاوز مقدار الجاهل ! وأى شبه لفرعون بآل مروان وأكل أبى سفيان ؟ هؤلاء قوم لهم حزب وشيعة وناس كثير يدينون بتفضيلهم وقد اعتورتهم الشبهة في أمرهم ، وفرعون طى خلاف ذلك وضده ، لا شيعة له ولا حزب ولا نسل ولا موالى ولا صنائع ولا في أمره شبهة ؟ ثم إن عمر ظنين في أمر أهله فيحتاج إلى غسل ذلك عنه بالبراءة منهم . وشوذب ليس بظنين في أمر فرعون . وليس الإمساك عن لعن فرعون والبراءة منه مما يعرفه الخوارج . فكيف استويا عنده ؟ ؟ . وشكا إليه رجل من رهطه ديناً قادحاً وعيلاً كثيراً فاعتل عليه ، فقال له : هلا اعتقلت على عبد الله بن الحسن ؟ قال : ومتى شاورتك في أمري ؟ قال : أومشيراً ترى ؟ قال : وهل أعطيتني إلا بض حقه ؟ قال : ولم قصرت عن كله ؟ ؟ فأمر بإخراجه وما زال إلى أن مات محروماً منه . وكان عمال أهله على البلاد عماله وأصحابه . والذين حسن أمره وشبهه على الأغنياء حاله أنه قام بقبض قوم قد بدلوا عامة شرائع الدين وسنن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الناس قبله من الظلم والجور والتهاون بالاسلام في أمر صغر في جنبه ما عاينوا منه وآلفوه عليه . فجعلوه بما نقص من تلك الأمور الفظيعة ، في عداد الآفة الراشدين . وحسبك من ذلك أنهم كانوا يلعنون علياً على منابرهم فلما نهى عمر عن ذلك عد محسناً . ويشهد لذلك قول كثير فيه :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتُمْ عَلَيَّ وَلَمْ تُضِعْ بَرِيًّا وَلَمْ تَنْبِغْ مَقَالَةَ مُجَرِّمٍ

وهذا الشعر يدل على أن شتم علي قد كان لهم عادة حتى مدح من كف عنه . ولا ولي خالد بن عبد الله القسري مكة - وكان إذا خطب بها لعن علياً والحسن والحسين - قال عبيد الله بن كثير السهمي :

لَعَنَ اللَّهُ مَنْ يَسُبُّ عَلِيًّا وَحُسَيْنًا مِنْ سَوْقَةٍ وَإِمَامٍ

أَيْسَبُ الطُّهْرُونَ جُدُودًا وَالْكَرَامُ الْأَبَاءُ وَالْأَتْعَمُ
يَأْمَنُ الطَّيْرُ وَالْحَلُمُ وَلَا يَأْمَنُ الْرَسُولُ عِنْدَ الْمَقَامِ
طَيَّبَتْ بَيْنَنَا وَطَابَ أَهْلُكَ أَهْلًا أَهْلُ بَيْتِ النَّبِيِّ وَالْإِسْلَامِ
رَحِمَةُ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِمْ كُلُّمَا قَامَ قَامَتْ بِسَلَامٍ

وقام عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان — وكان ممن يتأله بزعمهم —
لى هشام بن عبد الملك وهو يخطب على المنبر برفة فقال : يا أمير المؤمنين ،
هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لمن أبى تراب ؟ فقال هشام : ليس لهذا
جنا . ألا ترى أن ذلك يدل على أنه قد كان لمنه فيهم فاشيا ظاهرا ؟ وكان عبد الله
ابن الوليد هذا يلحن عليا ويقول : قتل جدى " جميعا الزبير وعثمان " وقال الغيرة
وهو عامل معاوية يومئذ لصمصمة بن صوحان : قم فالمن عليا ؟ ققام فقال : إن
أميركم هذا أمرنى أن ألحن عليا فالمنوه لعنه الله — وهو يضرر الغيرة .

وأما عبد الملك فحسبك من جهله بتدليل شرائع الدين والاسلام وهو يريد أن
على أمور أصحابها بذلك الدين بينه ! وحسبك من جهله أنه رأى من أبلغ التدبير
فى منع بنى هاشم الخلافة أن يلحن على بن أبى طالب على منابره ويرى بالتجور
فى مجالسه ، وهذا قرة عين عدوه وعير عين وليه ، وحسبك من جهله قيامه على
منبر الخلافة قائلا : إبنى والله ما أنا بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة للداهن ،
ولا بالخليفة المأفون . وهؤلاء سلفه وأئمة ، وبشفهم قام ذلك المقام ، وبقتدhem
وتأسيسهم نال تلك الرأسة ، ولولا القادة المتقدمة والأجناد المجتدة والصنائع القائمة
لكان أبعد خلق الله من ذلك المقام وأقرهم إلى الملكة إن رام ذلك الشرف ..
وعنى بالمستضعف عثمان ، وبالدهن معاوية ، وبالمأفون يزيد بن معاوية . وهذا
الكلام قرض لسلطانه ، وعداوة لأهله ، وإفساد لقلوب شيعته ، ولو لم يكن من
عجز رأيه إلا إنه لم يقدر على إظهار قوته إلا بأن يظهر عجز أئمة لكفالك ذلك
منه ... فهذا ما ذكرته هاشم لأتسها .

قالت أمية : لنا من فوادر الرجال في القل والبهاء والأرب والنكر ما ليس لأحد. ولنا من الأجواد وأصحاب الصنائع ما ليس لأحد. زعم الناس أن البهاء أربعة : معاوية بن أبي سفيان ، وزيد ، وعمر بن العاص ، والمغيرة بن شعبة . فثنا رجلان ومن سائر الناس رجلان . ولنا في الأجواد : سعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، لم يوجد لها نظير إلى الساعة . وأما فوادر الرجال في الرأي والتدبير : فأبو سفيان بن حرب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الملك بن مروان ، ومسلمة ابن عبد الملك . وعلى أنهم يعدون في الحياء والرؤساء . فأهل الحجاز يضرئون المثل في الحلم بمعاوية كما يضرِب أهل العراق المثل فيه بالأخف . فأما الفتوح والتدبير في الحرب فللمعاوية غير مدافع ، وكان خطيباً مصقفاً ونحيراً بمظفر ، وكان يجيد قول الشعر إذا أثر أن يقوله . وكان عبد الملك خطيباً حازماً نجراً بمظفر . وكان مسلمة شجاعاً مديراً وسائماً مقدماً ، وكثير الفتوح كثير الادب . وكان يزيد ابن معاوية خطيباً شاعراً . وكان الوليد بن يزيد خطيباً شاعراً . وكان مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن الحكم شاعرين . وكان بشر بن مروان شاعراً ناسباً وأديباً علماً . وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً وجيد الرأي أريباً كثير الادب حكماً ، وكان أول من أعطى الترجمة والفلسفة وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات . وقالوا : وإن ذكرت البأس والشجاعة فالعباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان بن محمد ، وأبو محمد بن مروان بن الحكم وهو صاحب مصب . وهؤلاء قوم لهم آثار بالروم لا تنجمل وأثاراً برمينة لا تنكر ، ولهم يوم القدر شهده مسلمة والعباس بن الوليد . قالوا : ولنا الفتوح العظام ، ولنا فارس وخراسان ، وإرمينية وسجستان ، وأفريقية وجميع فتوح عثمان . فأما فتوح بني مروان فأكثروا وأعم وأشهر من أن يحتاج إلى عد أو إلى شاهد ، والذين بلغوا في ذلك الزمان أقصى ما يمكن صاحب خف وحافر أن يبلغه ، حتى

لم يحتجر منهم إلا بحر أو خليج بحر أو غياض أو عقاب أو حصون وصياصي
ثلاثة رجال : قتيبة بن مسلم بخراسان ، وموسى بن نصير بأفريقية ، والقاسم بن
محمد بن القاسم الثقفي بالسند والمند. وهؤلاء كلهم عمالنا وصنائسنا . ويقال : إن
البصرة كانت صنائع ثلاثة رجال : عبد الله بن عمر ، وزيد ، والحجاج .
فرجلان من أنفسنا والثالث صنيعتنا . قالوا : ولنا في الأجواد وأهل الأقدار : عبد الله
ابن خالد بن أسيد بن أمية ، وأخوه خالد ، وفي خالد يقول الشاعر :

إِلَى خَالِدٍ حَتَّى أَنْخَنَّا بِخَالِدٍ فَتَنِمَ الْقَتَى يُرْجَى وَنَسِمَ لِلْوَمَلِ

ولنا سعيد بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وهو عقيد الندى ، كان
يسبت ستة أشهر ويغيب ستة أشهر ، ويرى كعيلا من غيرا كعتال ، ودهينا
من غير قدهين ، وله يقول : موسى شهوك :

أَبَا خَالِدٍ أَعْنِي سَعِيدَ بْنَ خَالِدٍ أَخَا الرَّفِ لَا أَعْنِي ابْنَ بَنَتِ سَعِيدٍ
وَلَكِنِّي أَعْنِي ابْنَ عَائِشَةَ الَّتِي أَبُو أَبِيهِ خَالِدُ ابْنُ أَسِيدٍ
عَقِيدُ النَّدَى مَا عَاشَ يَرَى بِهِ النَّدَى فَإِنْ مَاتَ لَمْ يَرْضَ النَّدَى بِعَقِيدٍ

قالوا : وإنما تمكن فينا الشعر وجد ليس من قبل أن الذين مدحونا ما كانوا
غير من مدح الناس ، ولكن لما وجدوا فينا مما يتسع لأجله القول ويصدق فيه
القاتل . قد مدح عبید الله بن قيس الرقيات من الناس آل الزبير عبد الله
ومصعبا وغيرهما . فكان يقول كما يقول غيره . فلما صار إلينا قال :

مَا تَمَوُّا مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ إِلَّا أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهُمْ مَطْنُ الْمُلُوكِ فَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ

وقال نصيب :

مَنْ النَّفَرِ الشَّمَّ الَّذِينَ إِذَا انْتَجَوْا أَقْرَبَ لِنَجْوَاهُمْ لَوْثُ مَنْ غَلَبَ
يُحْيُونَ بِأَمِينٍ طَوْرًا وَتَارَةً يَحْيُونَ عَبَّاسِينَ شَوْسَ الْحَوَاجِبِ

وقال الأخطل :

سَمْسُ الْمَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَخْلَامًا إِذَا قَدَرُوا
قالوا : وفيما يقول شاعركم والتشيع لكم الكيت بن زيد :

فَالآنَ صِرْتُ إِلَى أُمِيَّةٍ وَالْأُمُورُ لَهَا مَصَايِرُ
وفي معاوية يقول أبو الجهم المدوي :

قُلُّبُهُ لَنَخْبَرُ حَالَتِهِ فَنَخْبِرُ مِنْهَا كَرَمًا وَلِينًا
نَمِيلُ عَلَى جَوَانِيهِ كَانَا إِذَا مَلْنَا نَمِيلُ عَلَى أَيْدِينَا

وفيه يقول :

تُرِيخُ إِلَيْهِ هُوَادِي السَّكَاكِمِ إِذَا ضَلَّ حُطْبَتَهُ الْمِهْدَرُ
قالوا : وإذا نظرتكم في امتداح الشعراء عبد العزيز بن مروان عرقم صدق .
ما قوله .

قالوا : وفي إرسال النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة عثمان واستماله
عتاب بن أسيد وهو ابن اثنين وعشرين سنة دليل على موضع المنعة ومن تهاب
العرب وتمزق قريش . وقال النبي صلى الله عليه وسلم قبل الفتح : « فَتَيَانُ أَضْنُ بِهِمَا
على النار عتاب بن أسيد وجبير بن مطعم » فولى عتاباً وترك جبير بن مطعم .
وقال الشعبي : لو ولد لي مائة ابن لسميتهم كلهم « عبد الرحمن » لذي رأيت .
في قريش من أصحاب هذا الاسم . ثم عد : عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ،
وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي الناصب .
فأما عبد الرحمن بن عتاب فإنه صاحب الخيل يوم الجمل ، وهو صاحب الكف
والخاتم ، وهو الذي مر به على وهو قتيل فقال . لهني عليك يسوب قريش ! هذا
الباب الحضي من بني عبدمناف ! فقال له قاتل : لئسما أبنته اليوم يا أمير المؤمنين !
قال : إنه قام عني وعنه نسوة لم يقمن عنك .

قالوا : ولنا من الخطباء معاوية بن أبي سفيان ، أخطب الناس قائماً وقاعداً

وعلى منبر وفي خطبة نكاح ! وقال عمر بن الخطاب : ما يتصدقني شيء من الكلام كما تصعدني خطبة النكاح . وقد يكون خطيباً من ليس عنده في حديثه ووصفه لشيء واحتجابه في الأمر لسان بارع . وكان معاوية يجرى مع ذلك كله قالوا : ومن خطبائنا يزيد بن معاوية ، كان أعراي اللسان بدوى اللهجة . قال معاوية - وخطب عنده خطيب فأجاد - لأرمينه بالخطيب الأشدق . يريد يزيد بن معاوية . ومن خطبائنا سعيد بن العاص ، لم يوجد كتحديره تحبير ولا كارتجاله ارتجال . ومناعمر بن سعيد الأشدق ، لقب بذلك لأنه حيث دخل على معاوية وهو غلام بعد وفاة أبيه فسمع كلامه فقال : إن ابن سعيد هذا لأشدق . وقال له معاوية : إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : إن أبي أوصى إلى . ولم يوص بي ! قال : فم أوصى إليك ؟ قال : أن لا يفقد إخوانه منه إلا وجهه .

قالوا : ومن سعيد بن عمرو بن سعيد ، خطيب بن خطيب . تكلم الناس عند عبد الملك قياماً وتكلم قاعداً ، قال عبد الملك : فتكلم وأنا والله أحب عمرته وإسكاته ، فأحسن حتى استنطقته واستردته . وكان عبد الملك خطيباً خطب الناس مرة فقال : ما أنصفتمونا مشر رعيتنا ، طلبتم منا أن نسير فيكم وفي أنفسنا سيرة أبي بكر وعمر في أنفسهما ورعيتهما ، ولم تسيروا فينا ولا في أنفسكم سيرة رعية أبي بكر وعمر فيهما وفي أنفسهما ، ولكل من النصفة نصيب . قالوا : فكافت خطبته نافسة .

قالوا : ولنا زياد وعبيد الله بن زياد ، وكانا غايتين في صحة المال في وجوده النقط . ولهما كلام كثير محفوظ .

قالوا : ومن خطبائنا سليمان بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك . ومن خطبائنا ونسا كنا يزيد بن الوليد الناقص . قال عيسى بن حاصر : قلت لعمرو ابن عبيد : ما قولك في عمر بن عبد العزيز ؟ فكلح ثم صرف وجهه عني . قلت : فما قولك في يزيد الناقص ؟ فقال : أو الكامل ، قال بالعدل وعمل بالعدل وبذل

فنه وشري وقتل ابن عمه في طاعة ربه ، وكان نكالا لأهله ، وقص من أعطيتهم مازدته الجيابة ، وأظهر البراءة من آياته ، وجعل في عهده شرطا ولم يحمله جزما . لا والله لكانه ينطق عن لسان أبي سعيد — يريد الحسن البصري — قال : وكان الحسن من أنطق الناس . قالوا : وقد قرىء في الكتب القديمة : يابنر الكنوز ، وإساجدًا بالأسعار ، كانت ولايتك رحمة وعليهم حجة . قالوا : هو يزيد بن الوليد . ومن خطبائنا ثم من ولد سعيد بن العاص : عمرو بن خولة كان ناسبا فصيحاً خطيباً . وقال ابن عائشة الأكبر : ماشهد خطيباً قط إلا لجلج هية له ومعرفة بانتقاده . ومن خطبائنا عبد الله بن عامر ، وعبد الاطلى بن عبد الله ابن عامر ، وكانا من أكرم الناس وأمين الناس . كان مسلمة بن عبد الملك يقول : إني لأتحى كور عامتي عن أذني لا أسمع كلام عبد الاطلى . وكانوا يقولون : أشبه قريش فمة وجهارة واقتداراً وينا بعمرو بن سعيد : عبد الاطلى بن عبد الله قالوا : ومن خطبائنا ورجالنا : الوليد بن عبد الملك ، وهو القتي كان يقال له « فحل بني مروان » كان يركب معه ستون رجلاً لصلبه . ومن ذوى آدابنا وعلمانا وأصحاب الأخبار ورواة الأشعار والأنساب : بشر بن مروان أمير العراق قالوا : ومن أكثر نساك الملوك منا ؟ منا معاوية بن يزيد بن معاوية ، وهو القتي قيل له في مرضه القتي مات فيه : لو أقت للناس ولي عهد ؟ قال : ومن جعل لي هذا العهد في أعناق الناس ! والله لولا خوف الفتنة لما أقت عليها طرفة عين ! والله لا أذهب بمرارتها وتذهبون بمجالاتها ! قتلت له أمه : لوددت أنك حيضة . قال : أنا والله وددت ذلك .

قالوا : ومنا سليمان بن عبد الملك القتي هدم الديلمس ورد السيرين وأخرج المسجونين وترك القريب واختار عمر بن عبد العزيز ، وكان سليمان جواداً خطيباً جيلاً صاحب سلامة ودعة وحب للعافية وقرب من الناس حتى سمى المهدي وقيلت الأشعار في ذلك .

قلوا : ولنا عمر بن عبد العزيز شبيه عمر بن الخطاب ، قد واه عمر وباسمه سمي ، وهو أشج فريش المذكور في الآثار المتقوة ، المدل في أشد الزمان ، وظلف نفسه بعد اعتياد النعم حتى صار مثلاً ومفتخراً . وقيل للحسن : أما رويت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزداد الزمان إلا شدة والناس إلا شحاً ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق » ؟ قال : بلى . قيل : فما بال عمر بن عبد العزيز وعدله وسيرته ؟ فقال : لا بد للناس من متنفس . وكان مذكوراً مع الخطباء ومع الفساك ومع الفقهاء .

قلوا : ولنا ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، كان فاسكاً زكياً طاهراً ، وكان من أتقى الناس وأحسنهم معونة لأبيه ، وكان كثيراً ما يهبط أباه وينباه .

قلوا : ولنا من لانظيره في جميع أموره ، وهو صاحب الأعواص إسماعيل ابن أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص ، وهو الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز : لو كان إلى من الأمر شيء لجلستها شورى بين القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ، وصاحب الأعواص

قلوا : ومن نسا كنا أبو حراب من بني أمية الصغرى ، قتله داود بن طي . ومن نسا كنا يزيد بن محمد بن مروان ، كان لا يهدب ثوباً ولا يصبغه ولا يتخلق بخلق ولا يختار طعاماً على طعام ما أطعم أكله ، وكان يكره التكلف وينهى عنه . قلوا : ومن نسا كنا أبو بكر بن عبد العزيز بن مروان ، أراد عمر أخوه أن يجعله ولي عهده لما رأى من فضله وزهده ، فبها جميعاً . ومن نسا كنا عبد الرحمن بن أبان ابن عثمان بن عفان ، كان يصلي كل يوم ألف ركعة وكان كثيراً الصدقة وكان إذا تصدق بصدقة قال : اللهم إن هذا لوجهك تخفف عني الموت . فانطلق حاجباً ثم أصبح بالنوم فذهبوا ينيهونه لرحيل فوجدوه ميتاً . فأقاموا عليه المأتم بالمدينة ، وجاء أشعب فدخل إلى المأتم وعلى رأسه كبة من طين فالتهم مع النساء ، وكان إليه محسناً . ومن نسا كنا عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

قالوا : فنحن نمد من الصلاح والفضل ما سمعناه ، وما لم نذكره أكثر وأنتم تقولون : أمية هي الشجرة الملعونة في القرآن وزعمتم أن الشجرة الخبيثة لاثمر الطيب كما أن الطيب لاثمر الخبيث . فإن كان الأمر كما تقولون فثمان ابن عفان ثمرة خبيثة ، وينبغي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم دفع ابتغيه الى خبيث ؟ وكذلك يزيد بن أبي سفيان صاحب مقدمة أبي بكر الصديق على جيوش الشام ؟ وينبغي لابي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون كذلك ؟ وينبغي لمحمد بن عبد الله اللدبي أن يكون كذلك وإن ولدته فاطمة عليها السلام ، لأنه من بني أمية ! وكذلك عبد الله بن عثمان سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي مات بعد أن شدن ، قر الديك عينه فمات ، لأنه من بني أمية . وكذلك ينبغي أن يكون عتاب بن أسيد بن أبي المصيص بن أمية ، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم ولده مكة أم القرى وقبلة الاسلام مع قوله صلى الله عليه وسلم : فتان أضن بهما على النار ، عتاب بن أسيد وجبير بن مطعم . كذلك وينبغي أن يكون عمر بن عبد العزيز شبيه عمر بن الخطاب ، وكذلك معاوية بن يزيد بن معاوية ، وكذلك يزيد الناقص ؟ وينبغي أن لا يكون النبي صلى الله عليه وسلم عد عثمان في العشرة الذين بشرهم بالجنة ؟ وينبغي أن يكون خالد بن سعيد بن العاص شهيد يوم مرج الصفر والحبيس في سبيل الله ووالى النبي صلى الله عليه وسلم على اليمن ووالى أبي بكر على جميع أجناد الشام وراعى أربعة في الاسلام والمهاجر إلى أرض الحبشة ، كذلك ! وكذلك أبان بن سعيد بن العاص المهاجر إلى المدينة والقديم الاسلام والحبيس على الجهاد يجب أن يكون ملحقاً خيناً ! وكذلك أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وهو بدرى من المهاجرين الأولين ، وكذلك أمانة بنت أبي العاص بن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وكذلك أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخرجها في التارزى ويضرب لها بسهم ويصلفها ؟ وكذلك فاطمة بنت أبي معيط من مهاجرة الحبشة

قالوا : وما تفخر به وليس لبي هاشم مثله أن منا رجلا ولى أربعين سنة منها عشرون سنة خليفة ، وهو معاوية بن أبي سفيان . ولنا أربعة أخوة خلفاء : الوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك . وليس لكم إلا ثلاثة : محمد وعبد الله وأبو إسحق ، أولاد هرون

قالوا : ومنا رجل وله سبعة من الخلفاء ، وهو عبد الله بن يزيد بن عبد الملك ابن مروان ، أبوه يزيد بن عائكة خليفة ، وجده عبد الملك خليفة ، وأبو جده مروان بن الحكم خليفة ، وجده من قبل عائكة ابنة يزيد بن معاوية أبوها يزيد ابن معاوية وهو خليفة ، ومعاوية بن أبي سفيان وهو خليفة . فهو لأخوة . وأم عبد الله هذا عائكة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وحفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب . فهذان خليفتان . فهذه سبعة من الخلفاء ولهموا هذا الرجل

قالوا : ومنا امرأة أبوها خليفة ، وجدها خليفة ، وابنها خليفة ، وأخوها خليفة وسملها خليفة ، فهو لأخوة . وهي عائكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان . أبوها يزيد بن معاوية خليفة ، وجدها معاوية بن أبي سفيان خليفة ، وابنها يزيد بن عبد الملك بن مروان خليفة ، وأخوها معاوية بن يزيد خليفة ، وسملها عبد الملك بن مروان خليفة .

قالوا : ومن ولد المديج محمد بن عبد الله الأصغر امرأة ولها النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير ، وهي عائكة بنت محمد ابن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وأمها خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير ، وأم عروة أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق ، وأم محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان وهو المديج ، فاطمة بنت الحسين بن علي ، وأم الحسين بن علي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأم فاطمة بنت الحسين بن علي أم اسحق بنت طلحة بن عبيد الله ، وأم عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان حفصة بنت عبد الله ابن عمر بن الخطاب .

قالوا: ولنا في الجلال والحسن ما ليس لكم . منا المديج والدياج ، قيل ذلك لجلاله ،
ومنا الطرف ، ومنا الأرجوان ، فالطرف وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان ، سمي
الطرف لجلاله ، وفيه يقول الفرزدق :

نَمَا الْقَارِقُ أَفْكَ وَابْنُ أَرَوَى أَبُوكَ فَأَنْتَ مُنْصَرِعُ النَّهَارِ

والمديج هو الدياج ، كان أطول الناس قياماً في الصلاة ، وهلك في سجن للنصور .
قالوا : ومنا ابن الخلائف الأرية ، دُعي بذلك وشهر به ، وهو المؤمل بن
العباس بن الوليد بن عبد الملك . كان هو وأخوه الحارث ابني العباس بن الوليد
من الفجاءة بنت قطرى بن الفجاءة إمام الخوارج ، وكانت سيبت فوقعت إليه ، فلما
قام عمر بن عبد العزيز أتت وجوه بني مازن وفيهم حاجب بن ذبيان المازني
الشاعر فقال حاجب :

أَتَيْنَاكَ زُورًا وَوَفَدًا إِلَى الْبَيْتِ أَصَابَتْ فَلَا يَحْفَى عَلَى النَّاسِ نُورُهَا
أَبُوهَا حَمِيدُ الْحَيِّ جَمًّا وَأُمُّهَا مِنْ الْخَنْظَلِيَّاتِ الْكَرَامِ جُجُورُهَا
فَإِنْ نَكَ صَارَتْ حِينَ صَارَتْ فَلَيْسَ إِلَيْ نَسَبِ زَاكِ كِرَامِ تَبِيرُهَا

فبعث عمر بن عبد العزيز إلى العباس بن الوليد : إما أن تردها إلى أهلها
وإما أن تزوجها . قال قاتل ذات يوم للمؤمل : يابن الخلائف الأرية ! قال :
ويك ، من الرابع ؟ قال : قطرى . فأما الثلاثة فالوليد وعبد الملك ومروان ، وأما
قطرى فبويج بالخلافة . وفيه يقول الشاعر :

وَأَبُو نَعْلَمَةَ سَيِّدُ السُّكَّارِ

قالوا : ومن أين صار محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أحق بالدعوة
والخلافة من سائر إخوته ؟ ومن أين كان له أن يضعها في بنيه دون أخوته ؟
وكيف صار بنو الأخ أحق بها من الأعمام ! قالوا : إن يكن هذا الأمر إنما
يستحق بالبررات فالأقرب إلى العباس أحق ، وإن كان بالنسب والتجربة فالعمومة
بذلك أولى !

قالوا : فقد ذكرنا جملا من حال رجالنا في الاسلام . وأما الجاهلية ، فلنا
الأعياص ، والعنابس ، ولنا ذو العصابة أبو أحيحة سعيد بن العاص ، كان إذا أتم
لم يتم بكه أحد ، ولنا حرب بن أمية رئيس يوم الفجار ، ولنا أبو سفيان بن حرب
رئيس أحد والخندق وسيد قريش كلها في زمانه . وقال أبو الجهم بن حذيفة
المدوي لعمر - حين رأى العباس وأبا سفيان على فراشه دون الناس - : ما نرانا
نستريح من بني عبد مناف على حال ؟ قال عمر : بئس أخو العذيرة أنت ؟ هذا
عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا سيد قريش !

قالوا : ولنا عتبة بن ربيعة ، ساد مملنا ولا يكون السيد إلا مترفا ، لولا مارأوا
عنده من البراعة والتبل والكمال ، وهو الذي تحاكت بحيلة وكلب في منافرة
جرير والفرافصة وتراهنوا بسوق عكاظ وضوا الرهن على يده دون جميع من شهد
على ذلك المشهد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - ونظر الى قريش مقبلة يوم
بدر - : إن يكن منهم عند أحد خير فند صاحب الجبل الأحمر ! وما ظنك بشيخ
طلبوا له من جميع العسكر عند المبارزة بيضة فلم يقدروا على بيضة يدخل رأسه فيها ؟
وقد قال الشاعر :

وَإِنَّا أَنَا سُمُومٌ يَمَلُّ الْبَيْضَ هَامُنَا

قالوا : وأميرة الأكبر صفنان : الأعياص والعنابس . قال الشاعر :

مِنَ الْأَعْيَاصِ أَوْ مِنْ آلِ حَرْبٍ أَغَرَّ كَثْرَةُ الْقَرَسِ الْجَوَادِ

سموا بذلك في حرب الفجار حين حفروا لأرجلهم الحفائر وثبتوا فيها وقالوا
نموت جميعا أو نظفر . وإنما سموا بالعنابس لأنها أسماء الأسود ، وإنما سموا الأعياص
لأنها أسماء الأصول . قالعنابس : حرب وأبو حرب ، وسفيان وأبو سفيان ، وعمرو .
والأعياص : العيص وأبو العيص ، والعاص وأبو العاص ، وأبو عمرو . ولم يعقب من
العنابس إلا حرب ، وما يعقب الأعياص إلا العيص . ولذلك كان معاوية يشكو

القلة . قالوا : وليس لبني هاشم والمطلب مثل هذه القصة ، ولا مثل هذا
اللقب المشهور .

قالت هاشم :

أما ما ذكرتم من البهاء والتكر ، فإن ذلك من أسماء نجار العقلاء ، وليس
من أسماء أهل الصواب في الرأي من العقلاء والأبرار . قد بلغ أبو بكر وعمر من
التدبير وصواب الرأي والخبرة بالأمور العامة ، وليس من أوصافهما ولا من أسمائهما
أن يقال كانا داهيين ولا كانا مكبرين ؟ وما عامل معاوية وعمر بن العاص عليا
قط بمعاملة إلا وكان على أعلم بها منهما ، ولكن الرجل الذي يحارب ولا يستعمل
إلا ما يحل له أقل مذاهب في وجوه الخيل والتدبير من الرجل الذي يستعمل ما يحل
وما لا يحل ؟ وكذلك من حدث وأخبر ، ألا ترى أن الكذاب ليس لكذبه غاية
ولا لما يولد ويصنع نهاية ؟ والصدوق إنما يحدث عن شيء معروف ومعنى محدود ؟
ويدل على ما قلنا أنكم عددتم أربعة في البهاء ليس واحد منهم عند المسلمين في
طريق المتقين . ولو كان البهاء مرتبة والمكر منزلة لكان تهم هؤلاء الجميع
السابقين الأولين عيباً شديداً في السابقين الأولين ، ولو أن إنساناً أراد أن يمدح أبا بكر
وعمر وعثمان وعلياً ثم قال : البهاء أربعة وعدمه ، لكان قد قال قولاً مرغوباً عنه ،
لأن البهاء والمكر ليس من صفات الصالحين ، وإن علموا من غامض الأمور ما يحمله
جميع العقلاء ! ألا ترى أنه قد يحسن أن يقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
أكرم الناس ، وأعلم الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس . ولا يجوز أن يقال :
كان أمكر الناس وأدهى الناس ؟ وإن علمنا أن علمه قد أحاط بكل مكر
وخديعة ، وبكل أرب ومكيذة ؟

وأما ما ذكرتم من جود سعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، فأين أنتم
من جود عبد الله بن جعفر وعبيد الله بن العباس ، والحسن بن علي ؟ وأين أنتم
من جود خلفاء بني العباس كحميد المهدى ، وهرون ، ومحمد بن زبيدة ، وعبد الله

المؤمن ، بل لعل جود بعض صنائع هؤلاء كبنى يرمك أعظم من جود الرجلين الذين ذكروهما ، بل من جميع ما جاء به خلفاء بنى أمية .
وأما ما ذكرتم من حلم معاوية فلو شئنا أن نجعل جميع ساداتنا حلاء لكانوا محتملين لقلك ، ولكن الوجه في هذا أن لا يشتق الرجل إسم إلا من أشرف أعماله وأكرم أخلاقه ، وإلا أن يبين بذلك عند أصحابه حتى يصير بذلك إسماً يسمى به ويصير معروفاً به كما عرف الأخنف بالحلم ، وكما عرف حاتم بالجود ، وكذلك هرم ، قالوا : هرم الجواد ؟ ولو قلتم كان أبو العاص بن أمية أحلم الناس قلنا ولعله يكون قد كان حليماً ولكن ليس كل حلم يكون صاحبه به مذكوراً ومن أشكله أثماً . وإنكم لتظلمون خصوصكم في تسميتكم معاوية بالحلم ، فكيف من دونه ؟ لأن العرب تقول : أحلم الحليين أن لا يتعرض ثم يحلم . ولم يكن في الأرض رجل أكثر تعرضاً من معاوية ؟ والتعرض هو السفه . فإن ادعيت أن الأخبار التي جاءت في تعرضه كلها باطل ، إن لقاتل أن يقول : وكل خبر رويتموه في حله باطل ! ولقد شهر الأخنف بالحلم ولكنه تكلم بكلام كثير يخرج في الحلم ويثلم في العرض . ولا يستطيع أحد أن يحكى عن العباس بن عبد المطلب ولا عن الحسن بن علي بن أبي طالب لفظاً فاحشاً ولا كلمة ساقطة ولا حرفاً واحداً مما يحكى عن الأخنف ومعاوية ! وكان المؤمن أحلم الناس ، وكان عبد الله السفاح أحلم الناس . وبعد ، فمن يستطيع أن يصف هاشماً أو عبد المطلب بالحلم دون غيره من الأخلاق والأفعال حتى يسميه بذلك ويخصه به دون كل شيء فيه من الفضل ؟ وكيف وأخلاقهما متساوية وكلها في الثناء ؟ ولو أن رجلاً كان أغلب الناس زهداً وأصدقهم للهوى لقاء ، وأصدق الناس لساناً وأجود الناس كفاً وأفصحهم منطقاً وكان بكل ذلك مشهوراً ، لمنع بعض ذلك من بعض ولما كان له إلا إسم السيد المقدم والكامل العظيم ، ولم يكن الجود أغلب على إسمه ، ولا البيان ولا النجدة . وأما ما ذكرتم من الخطابة والتصاحبة والسؤدد والعلم بالأدب والنسب ، فقد

علم الناس أن بنى هاشم في الجملة أرق ألسنة من بنى أمية . كان أبو طالب والوزير شاعرين ، وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شاعرا . ولم يكن في أولاد أمية بن عبد شمس لصلبه شاعر ، ولم يكن في أولاد أمية إلا أن تمدوا في الاسلام المرجى من ولد عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن الحكم . فنعم نحن الفضل ابن العباس بن عتبة بن أبي لهب ، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر . وإن عدتكم الخطابة والبيان والفصاحة لم تمدوا كمل بن أبي طالب ولا كعبد الله ابن العباس . ولنا من الخطباء : زيد بن علي بن الحسين ، وعبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر ، وجعفر بن الحسين بن الحسن ، وداود بن علي بن عبد الله بن العباس وداود وسليمان ابنا جعفر بن سليمان . قالوا : كان جعفر بن الحسين ابن الحسن ينازع زيد بن علي بن الحسين في الوصية ، وكان الناس يجتمعون ليستمعوا محاورتهما ، وكان سليمان بن جعفر بن سليمان بن علي والي مكة ، فكان أهل مكة يقولون : لم يرد علينا أمير إلا وسليمان أوفى منه قاعدا ، وأخطب منه قائما . وكان داود إذا خطب استحضر فلم يرد شيئا . قالوا : ولنا عبد الملك بن صالح ابن علي ، كان خطيبا بليغا ، وسأله الرشيد - وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر حاضران - فقال له كيف رأيت أرض كذا ؟ قال : مسا في ريح ومنابت شيع . قال : فأرض كذا ؟ قال : هضبات حمى ورويات عُفر . حتى أتى على جميع ما سأله عنه . فقال عيسى لسليمان : والله ما ينبغي لنا أن نرضى لأقنسنا باليون من الكلام . قالوا : وأما ما ذكرتم من نساك الملوك ، فلنا علي بن أبي طالب ، وبزهد وبيدته يضرب المثل . وإن عدتكم النساك من غير الملوك ، فأين أنتم عن علي ابن الحسين زين العابدين الذي كان يقال له : علي الخير وعلي الأغر وعلي العابد ، وما أقسم على الله بشيء إلا وأبر قسمه ؟ وأين أنتم عن علي بن عبد الله بن العباس ؟ وأين أنتم عن موسى بن جعفر بن محمد ؟ وأين أنتم عن علي بن محمد الرضا ، لا بس الصوف طول عمره مع سعة أمواله وكثرة ضياعه وغلاته ؟

وأما ما ذكرتم من الفتوح ، فلنا الفتوح العتصية التي سارت بها الركبان وضربت بها الأمثال ، ولنا فتوح الرشيد ، ولنا الآثار الشريفة في قتل بابك الحرمي بعد أن دامت فتنته في دار الاسلام نحو ثلاثين سنة .

فأما الفقه والعلم والتفسير والتأويل ، فإن ذكر نعمه لم يكن لكم فيه أحد وكان لنا فيه مثل علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن العباس ، وزيد ومحمد ابني علي بن الحسين بن علي ، وجعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وقبحه - ويقال إن أبا خنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثوري ، وحسبك بهما في هذا الباب ، ولذلك نسب سفيان إلى أنه زيدي المذهب وكذلك أبو خنيفة ومن مثل علي بن الحسين زين العابدين ، وقال الشافعي في الرسالة في إثبات خبر الواحد : وجدت علي بن الحسين - وهو أقره أهل المدينة - يقول على أخبار الآحاد . ومن مثل محمد بن الحنفية وإبنه أبي هاشم الذي قرر علوم التوحيد والعدل حتى قالت المعتزلة : غلبنا الناس كلهم بأبي هاشم الأول !

وإن ذكرتم النجدة والبسالة والنجاعة ، فن مثل علي بن أبي طالب ؟ وقد وقع اتفاق أوليائه وأعدائه على أنه أشجع البشر . ومن مثل حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله ؟ ومن مثل الحسين بن علي ! قالوا يوم الطف : ما رأينا مكثوراً قد أفرد من إخوانه وأهله وأنصاره أشجع منه ، كان كالليث المحارب يحطم الفرسان خطماً ، وما ظنك برجل أبت نفسه الدنية وأن يعطى يده فقاتل حتى قتل هو وبنيه وإخوانه وبني عمه بعد بذل الأمان لهم والتوعدة بالأيان والمناظرة ، وهو الذي سن للعرب الإياء واقتدى بعده أبناء الزبير وبني المهلب وغيرهم . ومن لكم مثل محمد وإبراهيم ابني عبد الله ؟ ومن لكم مثل زيد بن علي ، وقد علمتم كلمته التي قالها حيث خرج من عند هشام : - ما أحب الحياة إلا من ذل . فلما بلغت هشاماً قال : خارج ورب الكعبة . فخرج بالسيف ونهي عن المنكر ودعا إلى إقامة شأئر الله حتى قتل صابراً محتسباً . وقد بلغتكم شجاعة أبي إسحق المعتصم

وروقه في مشاهد الحروب بنفسه حتى فتح الفتوح الجليّة ، وبلغتكم شجاعة
عبد الله بن علي وهو الذي أزال ملك بني مروان وشهد الحروب بنفسه . وكذلك
صالح بن علي وهو الذي تبع مروان بن محمد إلى مصر حتى قتله .

قالوا : وإن كان الفضل والفخر في تواضع الشريف وإنصاف السيد وسجاجة
الخلق ولين الجانب للمعيرة والموالي ، فليس لأحد من ذلك مالبي العباس . ولقد
سألنا طارق بن المبارك - وهو مولى لبني أمية وصنيعة من صنائعهم - قلنا : أي
القبيلين أشد نخوة وأعظم كبرياء وجبرية ! أبنو مروان أم بنو العباس ؟ فقال :
والله لبنو مروان في غير دولتهم أعظم كبرياء من بني العباس في دولتهم . وقد كان
أدرك المولتين . ولذلك قال شاعرهم :

إِذَا تَأَنَّى مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ رَأَيْتَهُ يَتْبَعُهُ فَرَسٌ لِكُلِّ عَظِيمٍ
وَإِنْ تَأَنَّى سِوَاهُمْ فَلَأَمَّا يَتْبَعُهُ لِنُوكٍ أَوْ يَتْبَعُهُ لِلْوَمِ

ومن كلامهم : من لم يكن من بني أمية تياها فهو دعي .

قالوا : وإن كان الكبر مغفراً يمدح به الرجال ويمد من خصال الشرف
والفضل ، فولانا عمارة بن حمزة أعظم كبراً من كل أموي كان ويكون في الدنيا ،
وأخباره في كبره وتبته مشهورة متعالية

قالوا : وإن كان الشرف والفخر في الجمال والكمال وفي البسطة في الجسم
وتمام القوام ، فمن كان كالعباس بن عبد المطلب ! قالوا : رأينا العباس يطوف
باليث وكانه فسطاط أبيض . ومن مثل علي بن عبد الله بن العباس وولده ،
وكان كل واحد منهم إذا قام إلى جنب أبيه كان رأسه عند شحمة أذنه ، وكانوا
من أطول الناس ، وإنك لتجد ميراث ذلك اليوم في أولادهم . ثم انتهى رواه
أصحاب الأخبار وسمل الآثار في عبد المطلب من تمام القوام والجمال والبهاء ،
وما كان من لقب هاشم بالقمر لجماله ولأنهم يستضيئون برأيه ، وكما رواه الناس
أن عبد المطلب ولد عشرة كان الرجل منهم يأكل في المجلس الجذعة ويشرب

الفرق وترد أنهم قبل شفاهم ، وأن عامر بن مالك لما رآهم يطوفون بالبيت
كأنهم جمال جون قال : هؤلاء تمنع مكة وتشرف مكة ، وقد سمعتم ما ذكره
الناس من جمال السفاح وحسنه ، وكذلك المهدي ، وابنه هرون الرشيد ، وابنه
محمد بن زائدة الى الواثق ، وكان الحسن بن علي أصبح الناس وجهاً ، كان يشبه
رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذلك عبد الله بن الحسن المحض

وقالوا : ولنا ثلاثة في عصر كلهم يسمى علياً ، وكلهم كان يصلح للخلافة
بالنقمة والنسك والركب والرأى والتجربة والحال الرفيمة بين الناس : علي بن
الحسين بن علي ، وعلي بن عبد الله بن العباس ، وعلي بن عبد الله بن جعفر . كل
هؤلاء كان تاماً كاملاً بارعاً جامعاً . وكانت لبابة بنت عبد الله بن العباس عند
علي بن عبد الله بن جعفر . قالت : ما رأيته ضاحكاً قط ولا قاطباً ولا قال شيئاً
احتاج إلى أن يستدبر منه ولا ضرب عبداً قط ولا ملكه أكثر من ستة . قالوا :
وبعد هؤلاء ثلاثة بنو عم ، وهم بنو هؤلاء الثلاثة ، وكلهم يسمى محمداً ، كما أن
كل واحد من أولئك يسمى علياً ، وكلهم يصلح للخلافة بكرم النسب وشرف
الحصائل : محمد بن علي بن الحسين بن علي ، ومحمد بن علي بن عبد الله بن العباس
ومحمد بن علي بن عبد الله جعفر ، قالوا : كان محمد بن علي بن الحسين لا يسمع
المبتلى الاستمادة ، وكان ينهى الجارية والفلان أن يقولوا للمسكين : يا سائل ، وهو
سيد فقهاء الحجاز ، ومنه ومن ابنه جعفر تلم الناس الفقه ، وهو الملقب بالباقر ،
ياقر العلم ، لقبه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يخلق بعد ، وبشر به ووعده
جابر بن عبد الله برويته وقال : ستره طفلاً فإذا رأيته فأبلغه غنى السلام ، فعاش
جابر حتى رآه وقال له ما وصى به . وتوعد خالد بن عبد الله القسري هشام بن
عبد الملك في رسالة له إليه وقال : والله إني لأعرف رجلاً حجازي الأصل
شامي النار عراقي الموى ! يريد محمد بن علي بن عبد الله بن العباس .

وأما ما ذكرتم من أمر عائكة بنت يزيد بن معاوية ، فإننا نذكر فاطمة

بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى سيدة نساء العالمين ، وأما خديجة
سيدة نساء العالمين ، وبعلها على بن أبى طالب سيد المسلمين كافة ، وابن عمها
جعفر ذو الجناحين وذو المجرتين ، وابناها حسن والحسين سيدا شباب أهل
الجنة ، وجدهما أبو طالب بن عبد المطلب أشد الناس عارضة وشكياً وأجودهم
رأياً وأشهمهم نفساً وأمنهم لما وراء ظهره ، منع النبي صلى الله عليه وسلم من جميع
قريش ثم بنى هاشم وبنى المطلب ، ثم منع بنى إخوته من بنى أخواته من بنى
عززم الذين أسلموا ، وهو أحد الذين سادوا مع الإقلال . وهو مع هذا شاعر
خطيب . ومن يطبق أن يفاخر بنى أبى طالب وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم
وهى أول هاشمية ولدت لهاشمى ، وهى التى ربي رسول الله فى حجرها وكان
يدعوها : أُمى ، ونزل فى قبرها وكان يوجب حقها كما يوجب حق الأم ؟ من
يستطيع أن يباي رجالاً ولهم هاشم مرتين من قبل أبيهم ومن قبل أمهم ؟
قالوا : ومن العجائب أنها ولدت أربعة كل منهم أسن من الآخر بمشرسنين :
طالب وعقيل وجعفر وطى . ومن الذى يد من قريش أو من غيرهم ما يمدده
الطالبيون عشرة فى نسق كل واحد منهم عالم زاهد ناسك شجاع جواد طاهر
ذاك ؟ ففهم خلفاء ، ومنهم مرشحوهم ، ابن ابن ابن هكنا إلى عشرة . وم :
الحسن بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين
ابن على . وهذا لم يتفق لبيت من بيوت العرب ولا من بيوت العجم
قالوا : فإن فخرتم بأن منكم اثنتين من أمهات المؤمنين : أم حبيبة بنت أبى
سفيان وزينب بنت جحش ، فزينب امرأة من بنى أسد بن خزيمه ادعيتموها
بالحلف لآل الولادة ؟ وفيما رجل ولدت له أمان من أمهات المؤمنين : محمد بن عبد الله
ابن الحسن المحض . ولدت خديجة أم المؤمنين ، وأم سلمه أم المؤمنين ، ولدت مع
ذلك فاطمة بنت الحسين بن على ، وفاطمة سيدة نساء العالمين ابنة رسول الله ،
وفاطمة بنت أسد بن هاشم . وكان يقال : خير النساء القواطم والمواتك .
وهن أمهاته

قالوا : ونحن إذا ذكرنا إنسانا قبل أن نعلم من ولده نأتى به شريفا في نفسه
مذكورا بما فيه دون ما في غيره . قلتم : لنا عائكة بنت يزيد ، وعاتكة في نفسها
كأمرة من عرض قريش ليس فيها في نفسها خاصة أمر تستوجب به المفاخرة .
ونحن قول : منا فاطمة ، وفاطمة سيدة نساء العالمين ، وكذلك أمها خديجة الكبرى .
وإنما تذكران مع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم اللتين ذكرهما النبي صلى
الله عليه وسلم ، وذكر إحداهما في القرآن ، وهن المذكورات من جميع نساء العالم
من العرب والعجم . وقلتم : لنا عبد الله بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، ولده
سبعة من الخلفاء . وعبد الله هذا في نفسه ليس هناك . ونحن قول : منا محمد
ابن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، كلهم سيد ، وأمه
العالية بنت عبد الله بن العباس ، وأخوته : داود وصالح وسليمان وعبد الله رجال
كلهم أغر محجل ، ثم ولد الرؤساء إبراهيم الإمام وأخويه أبا العباس وأبا جعفر
ومن جاء بعدهما من خلفاء بني العباس . وقلتم : منا عبد الله بن يزيد . وقلنا :
منا الحسين بن علي سيد شباب أهل الجنة وأولى الناس بكل مكرمة وأطهرهم طهارة ،
مع النجدة والبصيرة والفقہ والصبر والحلم والأف ، وأخوه الحسن سيد شباب أهل
الجنة وأرفع الناس درجة وأشبههم برسول الله خلقا وخلقا ، وأبوهما علي بن أبي
طالب وهو الذي ترك وصفه أبلغ في وصفه ، وعمهما ذو الجناحين ، وأمهما فاطمة ،
وجدهما خديجة ، وأخوالهما : القاسم وعبد الله وإبراهيم ، وخالاتهما زينب ورقية
وأم كلثوم ، وجدهتاهما : آمنه بنت وهب والدة رسول الله ، وفاطمة بنت أسد
ابن هاشم ، وجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم المحرس لكل مفاخر والغالب
لكل منافق . قل ماشئت واذا ذكر أي باب شئت من الفضل فإنك نجدهم
قد حازوه .

قالت أمية :

نحن لا نشكر نحر بني هاشم وفضلهم في الإسلام ، ولكن لافرق بيننا في الجاهلية

إذ كان الناس في ذلك الدهر لا يقولون : هاشم وعبد شمس ، ولا هاشم وأمّية ، بل كانوا لا يزدون في الجميع على عبد مناف ، حتى كان أيام تيزم في أمر على وعثمان في الثوري ، ثم ما كان في أيام تحزبهم وحرهم مع على ومعاوية . ومن تأمل الأخبار والآثار علم أنهما كان يذكروا فرق بين البنتين ، وإنما يقال : بنو عبد مناف . ألا ترى أن أبا خافة سمع رجة شديدة وأصواتا مرتفعة — وهو يومئذ شيخ كبير مكفوف — فقال : ما هذا ! قالوا : قبض رسول الله . قال : فما صنعت قريش ؟ قالوا : ولوا الأمر ابنك . قال : وورثت بذلك عبد مناف ؟ قالوا : نعم . قال : فلا مانع لما أعطى الله ولا معطى لما منع . . ولم يقل أرضى بذلك بنو هاشم ، أرضى بذلك بنو عبد شمس ! وإنما جمعهم على عبد مناف . لأنه كذلك كان يقال . وهكذا قال أبو سفيان بن حرب لملي وقد سخط إمارة أبي بكر : أرضيتم يا بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم ؟ ! ولم يقل أرضيتم يا بني هاشم ! وكذلك قال خالد سميد ابن العاص حين قدم من اليمن وقد استخلف أبو بكر : أرضيتم معشر بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم ؟ !

قالوا : وكيف يفرقون بين هاشم وعبد شمس وهما أخوان لأب وأم ! ويدل أن أمرهما كان واحدا وأن اسمهما كان جامعا قول النبي صلى الله عليه وسلم وصنيعة حين قال : مناخير فارس في العرب عكاشة بن محصن . وكان أسديا ، وكان حليفاً لبني عبد شمس — وكل من شهد بدرًا من بني كثير بن داود وكانوا حلفاء بني عبد شمس — قال ضرار بن الأزور الأسدي : ذاك منا يا رسول الله ! فقال عليه الصلاة والسلام : بل هو منا بالحلف . فجعل حليف بني عبد شمس حليف بني هاشم . وهذا بين لا يحتاج صاحب هذه الصفة إلى أكثر منه . قالوا : ولهذا نكح هذا البيت في هذا البيت ، فكيف صرنا تتزوج بنات النبي وبنات بني هاشم على وجه الدهر إلا ونحن أكفاء وأمرنا واحد ؟ وقد سمعتم إسحق بن عيسى يقول لمحمد بن الحارث أحد بني عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد : لولا حي أكرمهم الله

بالرسالة لزعمت أنك أشرف الناس . أفلا ترى أنه لم يقدم علينا رهنه إلا بالرسالة ؟

قالت هاشم

قلتم : لولا أنا كنا أكفاءكم لما أنكحتمونا نساءكم . فقد نجد القوم يستونون في حسب الأب ويفترقون في حسب الأنس . وربما استنوا في حسب أبي القبيلة كالستواء قريش في النضر بن كنانة ، ويختلفون كاختلاف كعب بن لؤى وعامر بن لؤى ، وكاختلاف أبناء قصي عبد مناف وعبد المزار وعبد العزى . والقوم قد يساوى بعضهم بعضاً في وجوه ويفارقونهم في وجوه ويستجيزون بذلك القدر منا كحتمهم وإن كانت معاني الشرف لم تتكامل فيهم كما تكاملت فيمن زوجهم . وقد يزوج السيد ابن أخيه وهو حارص بن حارص ، على وجه صلة الرحم فيكون ذلك جائزاً عندهم . ووجوه في هذا الباب كثيرة . فليس لكم أن تزعموا أنكم أكفأوناً من كل وجه وإن كنا قد زوجناكم وضاويناكم في بعض الآباء والأجداد . وبعد ، فأنتم في الجاهلية والإسلام قد أخرجتم بناتكم إلى سائر قريش وإلى سائر العرب : أفترعمون أنهم أكفأؤكم عيناً بين ؟

وأما قولكم إن الحيين كان يقال لها عبد مناف . فقد كان يقال لها أيضاً مع غيرها من قريش وبنيها : بنو النضر . وقال الله تعالى : « وأنذر عشيرتاك الأقرين » فلم يدع النبي صلى الله عليه وسلم أحداً من بني عبد شمس ، وكانت عشيرته الأقربون بني هاشم وبني عبد المطلب ، وعشيرته فوق ذلك عبد مناف ، وفوق ذلك قصي . ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أتى ببعد الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس ، وأم عامر بن كريز أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم قال : هذا أشبه بنا منه بكم . ثم قل في فيه فأزدرده ، فقال : أرجو أن تكون مسقياً . فكان كما قال : ففي قوله : هو أشبه بنا منه بكم . خصلتان إحداهما أن عبد شمس وهاشم لو كانا شيئاً واحداً كما أن بني عبد المطلب شيء واحد لما قال هو بنا أشبه به منكم . والأخرى إن في هذا القول تفضيلاً لبني هاشم

على نبي عبد شمس ، ألا ترون أنه خرج خطيباً جواداً نبيلاً وسيداً مسقياً له مصانع وآثار كريمة . لأنه قال : هو بنا أشبه به منكم ؟ . وأتى عبد المطلب بامر بن كرز — وهو ابن ابنته أم حكيم البيضاء — فتأمله وقال : وعظام هاشم ما ولدنا ولما أحرص منه . فكان كما قال . ولم يقل : وعظام عبد مناف . لأن شرف جده عبد مناف له فيه شركاء ، وشرف هاشم أبيه خالص له .

وأما ما ذكرتم من قول أبي سفيان وخالد بن سعيد : أرضيت معشر بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم ؟ فهذه الكلمة كلمة تحريض وتهيج ، فكان الأبلغ فيما يريد من اجتباع قلوب الفريقين أن يدعوهم لأب وأن يحسمهم على واحد ، وإن كانا مفترقين . وهذا المذهب شديد وهذا التدبير صحيح . قال معاوية بن صمصة للأشهب بن ربيعة وهو نهشل ، وللفرزدق بن غالب وهو مجاشع ، وللسكين بن أنيف وهو عبدل : أرضيت معشر بني دارم أن يسب آباءكم ويشتم أعراضكم كلب بني كليب ؟ ^(١) وإنما نسهم إلى دارم الأب الأكبر المشتل على آباء قبائلهم ليستقوا في الحية ويتقوا على الأفعى ، وهذا في مثل هذا الموضع تدبير صحيح .

قالوا : ويدل على ما قلنا ما قاله الشعراء في هذا الباب قبل مقتل عثمان وقبل صفين . قال حسان بن ثابت لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :
وَأَنْتَ مَنْوُطٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْطُ خَلْفِ الرَّأْكِيبِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ
ولم يقل : نيط في آل عبد مناف ! وقال آخر :

مَا أَنْتَ مِنْ هَاشِمٍ فِي بَيْتِ مَكْرُومَةٍ وَلَا بَنِي جَمْعِ الْخَضِرِ الْجَلَاعِدِ
ولم يقل : ما أنت من آل عبد مناف . وكيف يقولون هذا وقد علم الناس أن عبد مناف ولد أربة : هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفلا ؟ وأن هاشم والمطلب كانا يدا واحدة ، وأن عبد شمس ونوفلا كانا يدا واحدة . وكان عما أبطلأ بني نوفل عن الإسلام إبطاء إخوتهم من بني عبد شمس ، وكان مما حث بني المطلب على

(١) بنو حمير بن عطية المخلف الشاعر

الإسلام فضل محبتهم لبني هاشم . لأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم كان بينا ، وإنا كانوا يمتنعون منه من طريق الحسد والبغضة . فن لم يكن فيه هذه العلة لم يكن له دون الإسلام مانع . ولعلك لم يصعب النبي صلى الله عليه وسلم من بنى نوفل أحد ، فضلا عن أن يشهدوا معه للمشهد الكريمة ، وإنا صبه حقاؤم كيلى ابن منبه ، وعتبة بن غزوان وغيرها . وبنو الحارث بن المطلب كلهم بدرى : عبيدة وطفيل وحسين . ومن بنى المطلب : مسطح بن أثانة بدرى ؟ وكيف يكون الأمر كما قلتم وأبو طالب يقول لطعم بن عدى بن نوفل فى أمر النبي لما تملأت قريش عليه :

جَزَى اللَّهُ عَنْ عَبْدِ شَمْسٍ وَنَوَفَلٍ جَزَاءَ مُسِيءٍ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلٍ
أَمُطِّمٍ إِيَّائِي التَّوَمَ خِطَّةً فَأَيُّ مَنَى أَوْكَلٍ فَلَسْتُ بِأَكَلِي
أَمُطِّمٍ أَمْ أَخَذَلْتُ فِي يَوْمٍ شِدَّةٍ وَلَا مَشْهَدٍ عِنْدَ الْأُمُورِ الْجَلِيلِ

ولقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسمة فجعلها فى بنى هاشم وبنى المطلب فأتاه عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وجبير ابن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف فقالا له : يا رسول الله إن قرابتنا منك وقرابة بنى المطلب واحدة ، فكيف أعطيتهم دوننا ؟ فقال النبي : إنا لم نزل ونهى المطلب كهاتين . وشبك بين أصابعه . فكيف تقولون كذا شيئا واحدا ، وكان الاسم الذى يجمعنا واحدا ؟ ؟

قالت هاشم :

وإن كان التغر بالأيد والقوة واهتمصار الأقران ومباطنة الرجال ، فن أين لكم كعبد بن الحنفية ! وقد سمعتم أخباره وأنه قبض على درع فاضلة فجذبها قطع ذيها ما استدار منه كله . وسمعتم حديث الأيد القوى الذى أرسله ملك الروم إلى معاوية يخبر به على العرب ، وأن محمدا قد له ليقبه فلم يستطع فكأنما يحرك جيلا ، وأن الروم قد ليقبه محمد فرفضه فوق رأسه ثم جلد به الأرض . هذه

مع الشجاعة المشهورة والفقہ فی الدین والحلم والصبر والقصاحة والعلم باللاحم والإخبار عن النيوب حتى ادعى له أنه المهدي . وقد سمعتم أحاديث أبي إسحق المتصم وأن أحمد بن أبي دواد عض ساعده بأسنانه أشد العض فلم يؤثر فيه ، وأنه قال : ما أظن الأسننة ولا السهام تؤثر في جسده ! ؟ وإن كان الفخر بالبشر وطلاقة الأوجه وسجاعة الأخلاق ، فمن مثل علي بن أبي طالب أو قد بلغ من سجاعة خلقه وطلاقة وجهه أن عيب بالدعابة . ومن الذي يسوى بين عبد شمس وهاشم في ذلك ! كان الوليد جبارا ، وكان هشام شرس الأخلاق ، وكان مروان بن محمد لا يزال قاطبا عابسا ، وكذلك كان يزيد بن الوليد الناقص . وكان المهدي بن المنصور أسرى خلق الله وأطفالهم خلقا ، وكذلك محمد الأمين وأخوه للمؤمن . وكان السفاح يضرب به التل في السرور وسجاعة الخلق .

قالوا : ولنا من أفراد الرجال من ليس لكم مثله . منا يحيى بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس ، كان شجاعا جريا ، وهو الذي ولي الموصل لأخيه السفاح فاستعرض أهلها حتى ساخت الأقدام في الدم . ومنا يعقوب بن ابراهيم بن عيسى ابن أبي جعفر المنصور ، كان شاعرا فصيحاً ، وهو المعروف بأبي الأسباط . ومنا محمد وجعفر ابنا سليمان بن علي ، كانا أعظم من ملوك بني أمية وأجل قدرا وأكثر أموالا ومكانا عند الناس . وأهدى محمد بن سليمان من البصرة إلى الخيزران مائة صيفة في يد كل واحدة منهن جام من ذهب وزنه ألف شتال ملوء مكا . وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السودان خاصة ، فكم يكون ليت شعري غيرهم من الليث ومن الإماء ! وما روى جعفر بن محمد راكباً قط إلا ظن أنه الخليفة . ومن رجالنا محمد بن السفاح ، كان جواداً أيّداً شديد البطش . قالوا : ما روى أخوان أشد قوة من محمد وريطة أخته وهى أبي العباس السفاح ، كان محمد يأخذ الحديد فيلويها فتأخذها هي قترده . ومن رجالنا محمد بن ابراهيم طباطبا صاحب أبي السرايا ، كان ناسكاً عابداً قتيها عظيم القدر عند أهل بيته وعند الزيدية . ومن رجالنا عيسى بن

موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، وهو القتيبي شيد ملك المنصور وحارب
 ابنه عبد الله بن حسن وأقام عمود الخلافة بعد اضطرابه ، وكانت فصيحاً أديباً
 شاعراً . ومن رجالنا عبد الوهاب بن إبراهيم الامام ، حج بالناس وولى الشام ،
 وكان فصيحاً خطيباً . ومن رجالنا عبد الله بن موسى الهادي ، كان أكرم الناس ،
 وجواداً ممدحاً أديباً شاعراً . وأخوه علي بن موسى الهادي ، كان أكرم
 الناس وأجود الناس ، كان يلبس الثياب وقد حدد ظفره فيخرقها بظفره لئلا
 تقاد إليه . وعبد الله بن أحمد بن عبد الله بن موسى الهادي ، كان أديباً ظريفاً
 قالوا : وقلم : لنا عاتكة بنت يزيد يكتنفها خمسة من الخلفاء . وعن قول :
 لنا زبيدة بنت جعفر يكتنفها ثمانية من الخلفاء : جدها المنصور خليفة ، وعم أبيها
 السفاح خليفة ، وعمها المهدي خليفة ، وابن عمها الهادي خليفة ، وبطلها الرشيد
 خليفة ، وابنها الأمين خليفة ، وابننا بطلها المأمون والعنصر خليفتان .
 قالوا : وأما ما ذكرتم من الأعيان والعنابر ، فلنا نصدقكم فيما زعمتموه
 أصلاً لهذه التسمية ، وإنما سمو الأعيان لكان العيص ، وأبي العيص ، والناصر
 وأبي الناصر . وهذه أسماؤهم الأعلام ليست مشتقة من أفعالهم كريمة ولا خبيثة .
 وأما العنابر فأنما سمو بذلك لأن حرب بن أمية كان اسمه عنبة ، وأما حرب
 فلقبه . ولما كان حرب أمثلهم سمو جامعهم باسمه فقيل « العنابر » كما يقال
 « المهالبة » و « المناذرة » ولهذا المعنى سى أبو سفيان بن حرب : ابن عنبة . وسى
 سعيد بن العاص : ابن عنبة .

وهذا آخر ما عثرت عليه من هذا الكتاب استخلصته بعد جهد وعناء

٣

من كتاب حجج النبوة

قال أبو عثمان :

أحمد لله الذي عرفنا نفسه وعلمنا دينه وجعلنا من الدعاة إليه والمحتجين له ،
فنحن نأله تمام النعمة والعون على أداء شكره وأن يوفقنا للحق برحمته إنه ولي
ذلك والقادر عليه والمرغوب إليه فيه ، وصلى الله على محمد وسلم
ثم إنا قائلون في الأخبار ونخبرون عن الآثار ، ومفرقون بين أسباب الشبهة
وأسباب الحجة ، ثم مفرقون بين الحجة التي تلازم الخاصة دون العامة ، ونخبرون عن
الضرب الذي يكون الخاصة فيه حجة على العامة ، وعن الموضع الذي يكون القليل
فيه أحق بالحجة من الكثير ، ولم شاع الخبر وأصله ضيف ، ولم خفي وأصله قوى ،
وما الذي يؤمن من فساده وتبديله مع قادم عصره وكثرة الطاعنين فيه ، وعن الحاجة
إلى رواية الآثار وإلى سماع الأخبار ، وعن أخلاق الناس وأبائهم ومذاهب أسلافهم ،
وعن سير الملوك قبلهم وما صنعت الأيام بهم ، وعن شرائع أنبيائهم وأعلام رسلهم ،
وعن أدب حكائهم وأقاويل أئمتهم وقهائهم ، وعن حالات من غاب عن أبصارهم
في دهرهم ، ولم كان الإخبار على الناس أخف من الكتمان ، ولم كان الصمت
أثقل عليهم من الكلام ، وما الضرب الذي يقدرون على كتمانهم وطيه والضرب
الذي لا يقدرون إلا على إذاخته ونشره ، ولم اجتمعت الأمم على الصدق في أمور
واختلفت في غيرها ، ولم حفظت أموراً ونسيت سواها ، ولم كان الصدق أكثر
من الكذب ، ولم كان الصمت أثقل والقول أفضل . والعجب من ترك الفقهاء
تمييز الآثار وترك المتكلمين القول في تصحيح الأخبار ، وبالأخبار يعرف الناس
النبي من المتنبئ والصادق من الكاذب ، وبها يعرفون الشريعة من السنة والفريضة
من النافلة والحظر من الإباحة والاجتماع من الفرقة والشذوذ من الاستفاضة والردمن
المعارضة والنار من الجنة وعامة المفسدة والصلحة . فلماذا نزلت الأخبار منازلها وقسمتها

ذكرت حجج الرسول صلى الله عليه وسلم ودلائله وشرائعه وسننه، ثم جفت الآثار على أقدارها ورتبتها في مراتبها وقربت ذلك واختصرته وأوضحت عنه وبينته، حتى يستوى في معرفتها من قل سماعه وساء حفظه، ومن كثر سماعه وجاد حفظه، بالوجوه الجليلة والأدلة الاضطرابية .

ولم أرد في هذا الكتاب جمع حجج الرسول عليه السلام وتفصيلها والقول فيها لنقص مسأ أولوهن كان في أصلها من نقلها والمخبرين عنها ، أو لأن طعن الملحدين نهكها وفرق جماعتها وقض قواها ! ولكن لأمر ساذكرها وأحججها . وكيف تنصر الحجة عن بلوغ الغاية وتنقص عن التمام والله تعالى المتوكل بها ومسخر أصناف البرية لها ومهيئ النفوس على إبلاغها ! وقد أخبر بذلك عن نفسه في محكم كتابه عز ذكره حيث قال : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وأدنى منازل الإظهار إظهار الحجة على من ضلوه وخالف عليه . وقال عز ذكره « يريدون ليظفروا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » وأخبر أنه أمر الأحمر والأصفر ، ولم يكن ليأمر الأحمق كما يأمر الأذنى ويأمر الغائب على الحاضر ، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »

فأقول : إن كل منطبق محجوج ، والحجة حجتان : عيان ظاهرة ، وخبر قاهر . فإذا تكلمنا في العيان وما يفرع منه فلا بد من التعارف في أصله وفرعه منه ، ولا بد من التصديق في أصله والتعارف في فرعه ، فالعقل هو المستدل ، والعيان والخبر معاملة الاستدلال وأصله ، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل ، وكون الاستدلال مع عدم الدليل . والعقل مضمّن بالدليل والدليل مضمّن بالعقل ، ولا بد لكل واحد منهما من صاحب ، وليس لأبطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر . والعقل نوع واحد والدليل نوعان : أحدهما شاهد عيان يدل على غائب ، والآخر مجي . خبر يدل على صدق . ثم رجع الكلام إلى الإخبار عن دلائل النبي صلى الله عليه وسلم وأعلامه

الأولياء ، وإن كان الأول أحق بالتقديم والآخر أحق بالتأخير فاذى قدموا من الاحتمال وأعطوا من الجهود ، ولا أنهم أصل هذا الأمر ونحن فرعه ، والأصل أحق بالقوة من القرع ، وهم الساجون ونحن التابون ، وهم الذين وطؤوا لنا وكلفونا ما لم نكن لنسكفه أنفسنا ، فتجرعوا دوننا المرار ومنحونا روح الكفاية ، ولأن الله تعالى اختارهم لصعبة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولأن القرآن نطق بفضيلتهم والله تعالى أعلم بمن يمدح . والذى جمع أسلافنا الذين جمعوا الناس على قراءة زيد دون أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود ، والذين رأوا من قول عبد الله في المودتين وقول أبي في سورتي (١) العرب ومن تلقى الناس بالاختلاف فكانوا لا يزالون قد رأوا الرجل يروى الحرف الشاذ ويقرأ بالحرف الذى لا يعرفونه ، فأروا أن تحصيله لا يتم إلا بعمل الناس على القروء عند المشهور فيما بينهم ، وأهم إن لم يتددوا في ذلك لم ينقطع الطمع ولم ينزجر الطير . لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغناهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة لتبين له في نظامها ومخرجها وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تجدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها ، وليس ذلك في الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين إلا ألا ترى أن الناس قد كلن يهيا في طياتهم ويمجى على أنفسهم أن يقول رجل منهم : الحمد لله وإنا لله وعلى الله توكلنا وربنا الله وحسينا الله ونم الوكيل . وهذا كله في القرآن غير أنه متفرق غير مجتمع . ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه ، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان . ورأوا بهمهم ويتوفيق الله تعالى لم أن يحصنوه بما يشكل ويمكن أن يقتل مثله من الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين . وقد كانوا عرفوا الابتداء الكثير على اللغاة والشعراء وخافوا إن هم لم يتقدموا في ذلك أن يتطرقوا عليه كما تطرقوا على الرواية ، لأنهم حين رأوا كثرة الرواية في غير ذوى السابعة ورأوا كثرة اختلافها والفرائب التى لا يعرفونها لم يكن لهم إلا تحصين الشيء الذى عليه مدار الأمر وإن كانوا يعلمون

أن الله بالغ أمره . فلي الآتية أن تحوط هذه الأمة كما حاط السلف أولها، وأن يعملوا
بظاهر الحيلة إذ كان على الناس الاجتهاد، وليس عليهم علم القيوب، وإنما ذلك
كنحو رجل أبصر نيكاً يحى الموقى فعرف صدقه، فلما انصرف سأله عنه بعض
من لم يرد ذلك ولا صح عنده فعليه أن لا يكتفه وإن كان يعلم أن الله تعالى
سيمله ذلك من قبل غيره وأنه عز ذكره سيمسحه محته على حبه وكرهه .
ورأوا أن قراءة زيد أحق بذلك إذ كانت آخر العرض، ولأن الجمع التين
سموا آخر العرض أكثر من سمع أوله . فعملوا الناس على قراءة زيد دون أبي
وعبد الله، وإن كان الكل حقا . إذ كان رب حق في بعض الزمان أقطع لقليل
والقال وأجدر أن يمت الخلاف ويحسم الطمع، فتركوا حقا إلى حق العمل به أحق .
ولو أن قتيها رأى إطباق العلماء على صوم يوم عرفة واستنكارهم الإفطار فيه فأفطر
وأظهر ذلك ليمدهم موضع الفريضة من التناقلة، أو خاف أن يلحق الفرض على تطاول
الأيام ما ليس فيه كان مصيبا، ولكن قد ترك حقا إلى أحق منه. ولحق درجات
والخلاف درجات وللحرام درجات . ألا ترى أن لولي المقتول أن يقتل أو يصفح
وأنه إن قتل قتل بحق وإن صفح صفح بحق، والصفح أفضل من القتل . ولو أن
رجلا أخرجنا كذا بيتا له أو اقتضى ديننا له عند حلول أجله أو طلق زوجته وما دخل
بها لكان ذلك له والحق فضل ؟ وغير ذلك الحق أولى به ؟ وكيف لا يكون أولى
به وهو أحسن والثواب فيه أعظم وإلى سلامة الصدر أقرب ؟ وقد يكون الأمران
حسين وأحدهما أحسن، وقد يكون الأمران قبيحين وأحدهما أقيح . وبعد فعلى
الناس طاعة الآتية في كل ما أمروا به إلا فيما تبين أنه مصيبه، فأما غير ذلك فإنه
واجب مفروض ولازم غير مدفوع . وعلموا أيضا أنهم لا يقفون إلى آخر الزمان وأن
من يحى بدم لا يقوم مقامهم ولا يفصل الأمور تفصيلهم، ولو عرفوا كبريتهم
وأرادوا ذلك كرادتهم لما أطيعوا كطاعتهم . وعلموا أن الأكل كاذب والبعد ستكثر
وأن الفتن ستفتح، وأن الفساد سيفشو فكروها أن يجملوا للمتطرفين علة ولاهل الزيف

حجة ، بل لاشك أنهم لو تركوا الناس عامة يقرؤون على حرف فلان وكما أجاز في
فلان عن فلان لألحق قوم في آخر الزمان بهم من ليس منهم ولا يجري مجرا
ولا يجوز مجازم

فصل منه في الاستعجال للجمع على قراءة زبد

ولو كان زيد من آل أبي العاص أو من عرض بني أمية لوجد ابن مسعود متعلقا
ولو كان بلل زيد عبد الرحمن بن عوف لوجد إلى القول سيلا ، ولو كان [غير]
ابن مسعود رجلا من بني هاشم لوجد للطعن موضعا ، ولو كان عثمان رضى الله تعالى
عنه استبد بذلك الرأي على علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه وسعد وطلحة والزبير
رحمهم الله وجميع المهاجرين والأنصار لوجد للتممة مساعا . فأما والأمر كما وصفنا
وبينا فما الطاعن على عثمان إلا رجل أخطأ خطة الحق وعجل على صاحبه ، ولكل
بنى آدم من الخطأ نصيب والله عز ذكره يفرقه ويوحه . والذي يخطئ عثمان في
ذلك قد خطأ عليا وعبد الرحمن وسعدا والزبير وطلحة وما عليه الصحابة . ولو لم
يكن ذلك رأى على لغيره ، ولو لم يمكنه التفسير لقال فيه ، ولو لم يمكنه في زمن
عثمان لأمكنه في زمن نفسه ، وكان لا أقل من إظهار الحجة إن لم يملك تحويل
الأمة ، وكان لا أقل من التجربة إن لم يكن من النجح على قمة ، بل لم يكن لعثمان
في ذلك ما لم يكن لجميع الصحابة وأهل القدم والقعدة . ومع أن الوجه فيما صنعوا
واضح بل لا نجد لما صنعوا وجها غير الاصابة والاحتياط والإشفاق والنظر للعواقب
وحسن طعن الطاعن . ولو لم يكن ما صنعوا لله تعالى فيه رضا لما اجتمع عليه أول هذه
الأمة وآخرها . وإن أمرا اجتمعت عليه المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجة لظاهر
الصواب واضح البرهان على اختلاف أهوائهم وبغيتهم لكل ملود عليهم . فان
قال قائل : هذه الروافض بأسرها تأبى ذلك وتنكره وتطعن فيه وترى تشييره ؟ قلنا : إن
الروافض ليست منا بسبيل : لأن من كان أذانه غير أذاننا وصلاته غير صلاتنا وطلاته
غير طلاتنا وعتمته غير عتقنا وحجته غير حجتنا وقهاؤه غير قهاؤنا وإمامه غير

إيماننا وقراءته غير قراءتنا وحلاله غير حلالنا وحرامه غير حرامنا فلا نحن منه ولا هو منا . ولأى شيء جانب عن قراءة ابن مسعود ؟ فوالله ما كان أحد أفرط في العمر يمتنه ولا أشد على الشبهة منه ! ولقد بلغ من حبه لمرضى الله تعالى عنه أن قال : لقد خشيت الله تعالى في حي لمر ! فلم يحامون عنه وهو كان شجاعاً لو أدرهم فصل منه : فأمن الله رجلاً فارقههم ولزم الجماعة ، فان فيها الانس والحجة، وترك الفرقة فان فيها الوحشة والشبهة . والحمد لله الذي جللنا لا نفرق بين أئمتنا كما جللنا لا نفرق بين أنبيائنا .

فصل منه : والقي دعائنا إلى تأليف صحيح الرسول ونظمها وجمع وجوهها وتدوينها أنها متى كانت مجموعة منظومة نشط لحفظها وتهمها من كان عسى أن لا ينشط لجمعها ولا يقدر على نظمها وجمع متفرقاتها، وعلى اللفظ المؤثر عنها، ومن كان عسى أن لا يعرف وجه مطلبها والوقوع عليها ، ولعل بعض الناس يعرف بعضها ويجهل بعضها ، ولعل بعضهم وإن كان قد عرفها بحقتها وصدقها فلم يعرفها من أسهل طرقها وأقرب وجوهها، ولعل بعضهم أن يكون قد كان عرف قنسى أو تهاون بها قنسى، بل لا تشك أنها إذا كانت مجموعة بحجرة مستقصاة مفصلة إنها ستزيد في بصيرة العالم ، ويجمع الكل لمن كان لا يعرف إلا البعض ويذكر الناس ويكون علة على الطاعن ، ولعل بعض من ألد في دينه وعمى عن رشده وأخطأ موضع خطه أن يدعو العجب بنفسه والثقة بما عنده إلى أن ياتمس قراءتها ليتقدم في قضاها وإفسادها فإذا قرأها فهمها وإذا فهمها اتقه من رقدته وأفاق من سكرته لمر الحق وذل الباطل ولا يشرف الحجة على الشبهة، ولأن من تفرد بكتاب قراءه ليس كمن تازع صاحبه وجافاه ، لأن الانسان لا يياحى بنفسه والحق بعد قاهره ، ومع التلاقي يحدث التباهى وفي المحافل يقل الخضوع ويشند النزوع .

ثم رجع الكلام إلى حاجة الناس إلى استماع الأخبار والتفتحه في تصحيح الآثار فأقول : إن الناس قد استغنوا عن التكرير وكفوا مؤنة البحث والتفتير لقلة

اعتبارهم، ومن قل اعتبره، ومن قل علمه، ومن قل علمه قل فضله، ومن قل فضله كثر قصه، ومن قل علمه وفضله وكثر قصه لم يحمده على خير آتاه ولم يثم على شر جناه ولم يحد طم العز ولا سرور الظفر ولا روح الرجاء ولا برد اليقين ولا راحة الأمان. وكيف يشكر من لا يقصد، وكيف يلام من لا يتمدد، وكيف يقصم من لا يعلم، وما عسى أن يبلغ قدر سرور من لا يحس من السرور إلا بما سرت به حواسه ومسه جلده أو كيف يأتي أريج الأنفال وأبعد الشرين من ركب شراسة السباع وغياوة البهائم ثم لم يسط الآلة التي بها يستطيع التفرقة بين ما عليه وله والعلم بمصالحه ومفاسده فيقوى بها على عصيان طبائسه ومخالفة شهواته، وبها يعرف عواقب الأمور وما تأتي به الدهور، وفضل لذة القلب على لذة البدن، وأن سرور الجاهل لا يحسن في جنب سرور العالم، وأن لذة البهائم لا تعادل لذة الحكيم العالم، وأى سرور كسرور العز والرياسة واتساع المعرفة وكثرة صواب الرأي والنجاح الذي لا سبب له إلا حسن النظر والتقدم في التدبير ثم العلم بالله وحده وأنتك بمرض ولايته والجله عنده وأنه الذي يرعاك ويكفيك وأنتك إذا عملت اليسير أعطاك الكثير ومتى تركت له القاني أعطاك الباقي ومتى أدبرت عندهاك ومتى رجعت إليه اجتباك، ويحمذك على حقك ويمطيك على نظرك لنفسك ولا يفتنيك إلا ليقبك ولا يمتك إلا ليحييك ولا يمنك إلا ليمطيك، وأنه المبتدئ بالنعمة قبل السؤال والناظر لك في كل حال، وهذا كله لا ينال إلا بفرصة العقل، على أن الفرصة لا تنال ذلك بنفسها [بل] بما بشرته حواسها دون النظر والتفكير والبحث والتصفح، ولن ينظر ناظر ولا يفكر مفكر دون الحاجة التي تبت على الفكرة وعلى طلب الحيلة. ولقد وضع الله تعالى في الإنسان طبيعة الغضب وطبيعة الرضا والبخل والخاء والجزع والصبر والرياء والاخلاص والكبر والتواضع والسخط والقناعة، فجعلها عروفاً، ولن تقي قوه غريزة العقل لجميع قوى طبائسه وشهواته حتى يقيم ما اعوج منها ويسكن ما تحرك دون النظر الطويل الذي يشدها والبحث الشديد الذي يشدها والتجارب التي تمنحها والتواند التي تزيد فيها، ولن يكثر النظر حتى

تكثر الخواطر، ولن تكثر الخواطر حتى تكثر الحوائج، ولن تنبذ الروية إلا بعد الحاجة وشدة الحاجة .

ولو أن الناس تركوا وقد قوى غرائزهم ولم يهاجوا بالحاجة على طلب مصلحتهم والتفكر في معاشهم وعواقب أمورهم وألجئوا إلى قدر خواطرهم التي تولعها مباشرة حواسهم دون أن يسمعون الله خواطر الأولين وأدب السلف المتقدمين وكتب رب العالمين لما أدركوها من العلم إلا اليسير ولما ميزوا من الأمور إلا القليل ، ولولا أن الله تعالى أراد تشريف العالم وتربيته وتسويد العاقل ورفع قدره وأن يجعله حكيمًا وبالعواقب عالمًا لما سخر له كل شيء . ولم يسخره لشيء . ولما طبعه الطبع القوي يحيى . منه أريب حكيم وعالم حليم ، كما أنه عز ذكره لو أراد أن يكون الطفل عاقلًا والمجنون غلامًا لطبعهم طبع العاقل ولسواهم تسوية العالم، كما أراد أن يكون السبع وثأبًا والحديد قاطعًا والسهم قاتلًا والنداء مقيمًا ، فكذلك أراد أن يكون الطبع على المعرفة عالمًا والمهيا للحكمة حكيمًا وذو الدليل مستدلًا وذو النعمة مستغنى بها ، فلما علم الله تبارك وتعالى أن الناس لا يدركون مصالحهم بأنفسهم ولا يشعرون بعواقب أمورهم بغرائزهم دون أن يرد عليهم آداب المرسلين وكتب الأولين والإخبار عن القرون والحجاية للماضين طبع كل قرن من الناس على إخبار من يليه ووضع القرن الثاني دليلًا يعلم به صدق خبر الأول ، لأن كثرة السماع للإخبار العجيبة والماتى الغريبة مشبعة للآذهان ومادة للقلوب وسبب للتفكير وعلة للتنقير عن الأمور ، وأكثر الناس مماتًا أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكيرًا ، وأكثرهم تفكيرًا أكثرهم علمًا ، وأكثرهم علمًا أرجحهم عملاً ، كما أن أكثر البصائر رؤى بقلًا عايب أكثرهم تجاربا ! ولذلك صار البصير أكثر خواطر من الأعمى ، وصار البصير السميع أكثر خواطر من البصير الأصم . وعلى قدر شدة الحاجة تكون الحركة ، وعلى قدر ضعف الحاجة يكون السكون . كما أن الراجي والخائف دائبان ، والآيس والآمن وادعان . وإذا كان الله تعالى لم يخلق عباده في طبع عيسى بن مريم

ويحيى بن زكريا وآدم أبى البشر صلوات الله عليهم أجمعين ، وخلقهم ناقصين وعن
درك مصالحهم عاجزين وأراد منهم العبادة وكلفهم الطاعة وترك العيان للأمل
البعيد وأرسل اليهم رسله وبث فيهم أنبياءه وقال «لئلا يكون للناس على الله حجة
بعد الرسل» ولم يشهد أكثر عباده حجج رسله عليهم السلام ولا أخضرهم عجائب
أنبيائه ولا أسمهم احتجاجهم ولا أراهم تدبيرهم ، لم يكن بد من أن يطلع المائنين
على أخبار الثنائين ، وأن يسخر أسباع الثنائين لأخبار المائنين ، وأن يخالف بين
طبائع المخبرين وعلل الناقلين ليدل السامعين ومن يحب من الناس على أن العدد
الكثير المختلfi العلل المتضادى الأسباب المتفاوتة المهم لا يتفقون على تحصر
الخبر فى المعنى الواحد ، وكألا يتفقون على تحصر الخبر فى المعنى الواحد على غير
التلاقى والتراسل إلا وهو حق فكذلك لا يمكن مثلهم فى مثل عليهم التلاقى عليه
والتراسل فيه ، ولو كان تلاقيهم ممكنًا وتراسلهم جائزًا لظهر ذلك وفشا واستفاض .
وبدا ، ولو كان ذلك أيضا ممكنا وكان قولاً متوهمًا لبطلت الحجة ولتقضت المادة
ولفسدت العبرة ولعادت النفس بلة الإخبار جاهلة ، ولكان للناس على الله
أعظم الحجة ، وقد قال الله عز وجل «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» .
إذا كلفهم طاعة رسله وتصدق أنبياءه ورسله وكتبه والايان بمجنته وناره ولم يضع
لهم دليلا على صدق الأخبار وامتناع النلط فى الآثار ، تعالى الله عن ذلك
علوا كبيرا

واعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ، ولم يحب أن يوفق
بينهم فيما يخالف مصالحهم ، لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة
وكانوا مجبرين فى الأمور المتفقة والمختلفة لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة .
وفى هذا ذهب العيش و بطلان المصلحة واليوار والتواء ، ولو لم يكونوا مسخرين
بالأسباب مرتين بالعلل لرغبوا عن الحجامة أجمعين وعن السيطرة والقصابة والباغة .
ولكن لكل صف من الناس مزين عندهم مالم فيه ومسهل ذلك عليهم . فالحائك

كل إنسان وإن كان يرى أنه حاسد في شيء فهو يرى أنه محسود في شيء ولولا اختلاف الأسباب لتنازعوا بلدة واحدة واسيا واحداً وكنية واحدة قد صاروا كما ترى مع اختيار الأشياء المختلفة إلى الأسماء القبيحة والألقاب السجدة. والأسماء مبذولة والصناعات مباحة والمتاجر مطلقة ووجوه الطرق مخلاة، ولكنها مطلقة في الظاهر مقسمة في الباطن، وإن كانوا لا يشعرون بالذي دبره الحكيم من ذلك ولا بالمصلحة فيه، فسيحان من حجب إلى واحد أن يسمى ابنه محمداً وحجب إلى آخر أن يسميه شيطانا وحجب إلى آخر أن يسميه عبد الله وحجب إلى آخر أن يسميه حماراً، لأن الناس لو لم يخالف بين علمهم في اختيار الأسماء وجاز أن يجتمعوا على شيء واحد كان في ذلك بطلان العلامات وفساد المعاملات. وأنت إذا رأيت ألوانهم وشبائهم واختلاف صورهم وسمعت لغاتهم وضمهم علمت أن طبائعهم وعلمهم المحجوبة الباطنة على حسب أمورهم الظاهرة. وبعض الناس وإن كانوا مسخرين للحياة كـهـ فليس بمسخر للفسق والخيانة والأحكام والصدق والأمانة. وقد يسخر الملك لقوم بأسباب قديمة وأسباب حديثة فلا يزال ذلك الملك مقصوراً عليهم مادامت تلك الأسباب قائمة، فليس إذا كانوا الملك مسخرين وكان الناس لم مسخرين بالجبرية والنخوة والفظاظة والقسوة ولطول الاحتجاب والاستتار وسوء اللقاء والتضييع، وقد يكون الإنسان مسخراً لأمر وخيراً في آخر ولولا الأمر والنهي لجاز التسخير في دقيق الأمور وجليلها وخفيها وظاهرها، لأن نبي الإنسان إنما سخره الله لإرادة المائدة عليهم ولم يسخره للمصيبة كما لم يسخره للفسدة. وقد تستوى الأسباب في مواضع وتتفاوت في مواضع، كل ذلك ليجمع الله تعالى لهم مصالح الدنيا ومرشد الدين، ألا ترى أن أمة قد اجتمعت على أن عيسى عليه السلام هو الله، وأمة قد اجتمعت على أنها بنو الله، وأمة اجتمعت على أن الآلهة ثلاثة عيسى أحدها، ومنهم من يتذنب، ومنهم من يتندر، ومنهم من يتحول نسطورياً بعد أن كان يعقوبياً، ومنهم من أسلم بعد أن كان نصرانياً! ولست واجداً هذه الأمة مع اختلاف مذاهبها وكثرة تغلها

انتقلت مرة واختلفت مرة متصلة أو ناسية في يوم واحد فخطته وهو الجمعة يوم السبت . ولم تخطب في يوم جمعة بخطبة يوم خميس ، ولا غلظت في كالون الأول فخطته كالون الآخر ، ولا بين الصوم والافطار ، لأن للباب الأول في باب الامكان وتعديل الأسباب والامتناع ، والباب الثاني داخل في باب الامتناع وتسخير النفوس وطرح الامتناع . وقد زعم نلس من الجهال وخر من الشكاك من يزعم أن الشك واجب ، كل شيء ، إلا في البيان أن أهل المنصورة وافوا مصالحهم يوم خميس على أنه يوم الجمعة في زمن منصوري ، وأن أهل البحرين جلسوا عن مصالحهم يوم الجمعة على أنه يوم خميس في زمن أبي جعفر فيستلهم وقومهم . وهذا لا يجوز ولا يمكن في أهل الامصار ولا في العدد الكثير من أهل القرى ، لأن الناس من بين صانع لا يأخذ أجرته ولا راحة له دون الجمعة ، وبين تجار قد اعتادوا الدعة في الجمع والجلوس عن الأسواق ، ومن بين معلم كتب لا يصرف غلغله إلا في الجمع ، ومن بين معنى بالجمع يتلاق هناك مع المعارف والاخوان والجلساء ، وبين معنى بالجمع حرصاً على الصلاة ورغبة في الثواب ، ومن رجل عليه موعد ينتظره ، ومن صيرفي يصرف ذلك اليوم سفاجه وكتب أصحابه ، ومن جندي فهو يعرف بذلك نوبته ، وبعض كالسؤال والمساكين والقصاص الذين يدون أعناقهم للجمعة انتظاراً للصدقة والفاضة ، في أمور كثيرة وأسباب مشهورة . ولو جاز ذلك في أهل البحرين والمنصورة لجاز ذلك على أهل البصرة والكوفة ، ولو جاز ذلك في الأيام لكان في الشهور أجوز ، ولو جاز ذلك في الشهور لكان في السنين أجوز ، وفي ذلك فساد الحج والصوم والصلاة والزكاة والأعياد . ولو كان ذلك جائزاً لجاز أن يتفق الشعراء على قصيدة واحدة ، والخطباء على خطبة واحدة ، والكتاب على رسالة واحدة ، بل جميع الناس على لفظة واحدة . وإنما نزلت لك حالات الناس وخبرتك عن طبائهم وفسرت لك عليهم لتعلم أن العدد الكثير لا يتفقون على

تُغرض الخبر الواحد في المعنى الواحد في الزمن الواحد على غير التشاعر فيكون باطلاً وسأبين لك موضع اختلافهم واتفاقهم وأنه لم يخالف بينهم في بعض الوجوه إلا أرهاصاً لمصلحتهم ولتصح أخبارهم . ألا ترى أن أحداً لم يبيع قط سلعة بدرم إلا وهو يرى أن ذلك الدرهم خير له من سلعته ، ولم يشتَر قط سلعة بدرم إلا وهو يرى أن تلك السلعة خير له من درهمه ، ولو كان صاحب السلعة يرى في سلعته ما يرى فيها صاحب الدرهم وكان صاحب الدرهم يرى في الدرهم ما يرى فيه صاحب السلعة ما اتفق بينهما شراء أبداً ولا بيع أبداً ، وفي هذا جميع المفصلة وغاية الملكة . فسبحان الذي حجب إلينا ما في أيدي غيرنا وجبب إلى غيرنا ما في أيدينا ليقع التبايع ، وإذا وقع التبايع وقع التراجيح ، وإذا وقع التراجيح وقع التمايش . ويدلك أيضاً على اختلاف طبائهم وأسبابهم أنك تجد الجماعة وبين أيديهم الفاكهة والربط فلا تجد يدين تلتقيان على رطبة بينهما وكل واحد من الجميع يرى ما حواه الطبق غير أن شهوته وقتت على واحدة غير التي آثرها صاحبه ، وربما سبق الرجل إلى الواحدة وقد كان صاحبه يريد بها في شيء غير أن ذلك لا يكون إلا في القوط ، ولو كانت شهواتهم ودواعيهم تتفق على واحدة بينها لكان في ذلك التمايح والتجاذب والمبادرة وسوء المخالطة والمؤاكلة . وكذلك هو في شهوة النساء والإماء والمرائب والكسا . وهذا كثير والعلم به قليل ، وبأقل مما قلنا يعرف العاقل صواب مذهبنا ، والله تعالى نال التوفيق وهو القى خالف بين طبائهم وأسبابهم حتى لا يتفق على تغرض خبر واحد ، لأن في اتفاق طبائهم وأسبابهم في جهة الأخبار نساد أمورهم وقلة فوائدهم واعتبارهم ، وفي فساد أخبارهم فساد متاجرم والعلم بما غالب عن أبصارهم وبطلان المعرفة بأنبيائهم ورسلهم عليهم السلام ووعدهم ووعدهم وأمرهم ونهيهم وزجرهم ورغبتهم وحدودهم وقصاصهم التي هو حياتهم ، والتي يرسل طبائهم ويسوى أخلاقهم ويعوى أسبابهم والتي به يمتانفون من ثواب السباع وقلة احتراس البهائم وإضاعة الأعمار ، وبه تكثر خواطرم وتهكيرهم وتحسن معرفتهم .

ولم قل إن العدد الكثير لا يجمعون على الخبر الباطل كالتكذيب والتصديق، ونحن قد نجد اليهود والنصارى والمجوس والزندقة والنهرية وعباد البدة يكذبون النبي صلى الله عليه وسلم وينكرون آياته وأعلامه، ويقولون لم يأت بشيء ولا بان شيء. وإنما قلنا إن العدد الكثير لا يتفقون على نفي مثل إخبارهم أن محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب التهامى الأبطحى عليه السلام خرج بمكة ودعا إلى كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا وأباح كذا، وجاء بهذا الكتاب الذى قرؤوه فوجب السمل بما فيه وأنه تعدى البناء والخطباء والشعراء بنظمه وتأليفه في المواضع الكثيرة والمحافل العظيمة فلم يؤم ذلك أحد ولا تكلفه ولا أتى ببعضه ولا شبه منه ولا ادعى أنه قد فعل، فيكون ذلك الخبر باطلا، وليس قول جمعهم أنه كان كاذبا معارضة لهذا الخبر إلا أن يسموا الانكار معارضة، وإنما المعارضة مثل الموازنة والمكايلة، ففى قابلونا بأخبار فى وزن أخبارنا ومخرجها ومجيئها فقد عارضونا ووازنونا وكابلونا وقد تكافينا وتداخنا. فاما الانكار فليس بحجة كما أن الاقرار ليس بحجة، ولا تصديقنا النبي صلى الله عليه وسلم حجة على غيرنا ولا تكذيب غيرنا له حجة علينا، وإنما الحجة فى الحجى. الذى لا يمكن فى الباطل مثله.

فان قلت : وأى حجة أثبت [من] خبر النصارى عن عيسى بن مريم عليه السلام ! وذلك أنك لو سألت النصارى مجتمعين ومتفرقين لخبروك عن أسلافهم أن عيسى قد قال إني إله ؟

قلنا : قد علمنا أن نصارى عصرنا لم يكذبوا على القرن الذى كان قبلهم والذين كانوا يلونهم، ولكن الدليل على أن أصل خبرهم ليس كفره أن عيسى عليه السلام لو قال إني إله لما أعطاه الله تعالى إحياء الموتى والمشي على الماء ! على أن فى عيسى عليه السلام دلالة فى نفسه أنه ليس بالله وأنه عبد مدير ومفهور ميسر. وليس خبرهم هذا إلا كإخبار النصارى عن آبائهم والقرن الذى يليهم أن بولس قد كان

جاء بالآيات والعلامات . وكما خبار الماتوية عن القرن للذي كان يلهم منهم أن ماني قد كان جاءهم بالآيات والعلامات ، وكما خبار المجوس عن آياتهم والذين كانوا يلهمهم أن زرادشت قد جاءهم بالآيات والعلامات . وقد علمنا أن هؤلاء النصارى لم يكذبوا على القرن الذي كان يلهمهم ولا الزنادقة ولا المجوس ، ولكن الهليل على أصل خبرهم ليس كفره . لأن الله تعالى جل وعز لا يعطى العلامات من لا يعرفه . لأن بولس إن كان عنده أن عيسى عليه السلام إله فهو لا يعرف الله تعالى بل لا يعرف الربوية من السبودية والبشرية من الآلهية

فصل منه — والنصارى خاصة رياء عجيب وظاهر زهد ، والناس أبداً غنى عن التصنع وأسرع شيء إلى تقليد صاحب السن والسمت ، وظاهر العمل أدعى لهم من العلم .

فصل منه على ذكرهم — وكل قوم بنو على حب الاشكال والشغب بالرجال يشتد وجدهم به وجهم له حتى يتقلب الحب عشقا والوجد صباية ، للمساكلة التي بين النفوس ، وعلى قدر ذلك يكون البغض والحقد ، لأن النصارى حين جعلوا ربهم إنسانا مثلهم نجحت قوسهم بالاهيتهم له لتوهمهم الربوية ، وممجت بالمودعة لتوهمهم البشرية . فلذلك قدروا من العبادة على ما لم يقدر عليه سواهم ، وبمثل هذا السبب صارت المشبهتنا أعبد من نفى التشبيه ، حتى ربما رأيت المشبه يقتبس من الشوق إليه ويشق عند ذكر الزيارة ويكي عند ذكر الرؤية وينشئ عليه عند ذكر وضع الحجب ! وما ظنك بشوق من طمع في محالة ربه جل جلاله ومحادثة خالقه عز ذكره ؟ ! ولقد غالت القوم غول ودعاهم أمر فافظر ماهو ؟ وإن سألتني عنه خبرتك إنما هو نتيجة أحد أمرين : إما تقليد الرجال ، وإما طلب تعظيمهم . ولذلك السبيل ترض اليهود من إنكار حق عيسى بتكذيبه حتى طلبت قتله وصلبه والمثله به ، ثم لم ترض بذلك حتى زعمت أنه لنير رشدة . فلو كانت دون هذه المنزلة منزلة لما انتهت اليهود دون بلوغها ، ولو كانت فوق ما قالت النصارى

بينه وبين آدم عليه السلام حتى منها الخلل وحماها النقصان بالشواهد الصادقة والامارات القائمة . وليس أن أخبارهم وججهم قد كانت درست وأُخِلت ؛ بل حين همت بذلك وكادت بشف الله عز وجل بآياته لئلا تخلو الأرض من حججه ، ولذلك سمو آخر الدهر للفترة ، وبين الفترة والقطعة فرق . فاعرف ذلك . ثم بحث الله عز وجل إبراهيم عليه السلام على رأس الفترة الثانية التي كانت بينه وبين دهر نوح ، وإنما جعلها الله تعالى أطول فترة كانت في الأرض لأن نوحا كان لبث في قومه محتج ويحج ويؤكد ويبين ألف سنة إلا خمسين عاما ، ولأن آخر آياته كانت أعظم الآيات وهي الطوفان الذي أغرق الله تعالى به جميع أهل الأرض ، غيره وغير شيعته ، وإعنا فار الماء من جوف تنور ليكون أعجب للآية وأشهر للقصة وأثبت للحجة . ثم ما زالت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بعضهم على أثر بعض في الدهر الذي بين إبراهيم وبين عيسى عليهما السلام فترادف حججهم وتظاهر أعلامهم وكثرة أخبارهم واستفاضة أمورهم ولشدة ما تأكد ذلك في القلوب ورسخ في النفوس وظهر على الألسنة لم يدخلها الخلل والنقص والفساد في الدهر الذي كان بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين عيسى عليه السلام ، حين همت بالصف وكادت تنقص عن التمام وانتهت قوتها بشف الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فجدد أفاضيل آدم ونوح وموسى وهرون وعيسى ويحيى عليهم السلام ، وأمورا بين ذلك ، وهو الصادق بالشواهد الصادقة وأن الساعة آتية وأنه ختم الرسل عليهم السلام به ، فلمنع عند ذلك أن حجته ستبقى إلى مدتها وبلغ أمر الله عز وجل فيها

فصل منه : ثم رجع الكلام إلى القول في الأخبار فأقول : إن الناس موكلون بحكاية كل عجيب وميسرون للأخبار عن كل عظيم ، وليسوا بالحسن أحكى منهم للقيح ، ولا لا ينفع أحكى منهم لا يضر ، وعلى قدر كبر الشيخ تكون حكايتهم له واستماعهم منه ، ألا ترى أن رجلا من الخلفاء لو ضرب عتق رجل من العظما لما

أمسى وفي عسكره أو بلدته جاهل ولا عالم إلا وقد استقر ذلك عنده وثبت في قلبه ، لأن الناس بين حاسد فهو يحكي ذلك الذى دخل عليه من الشكل وقلة العدد ، وبين دواجد يجب الناس ، وبين واعظ معتبر ، وبين قوم شأنهم الأراجيف بالفاسد والصالح ، ولو كان ضرب عنقه في يوم عيد أو حلبة أو استمطار أو موسم لكان أشد لاستفاضة وأسرع لظهور ، ولو جاز أن يكتم الناس هذا وشبهه على الاثار ولكن على جهة النسيان لكننا لا ندرى لعله قد كان في زمن صفين والجل والنهروان حرب مثلها أو أشد منها ، ولكن الناس آثروا الكتمان واتقوا على النسيان ، فإذا كان قتل الملك للرجل من الضياء بهذه المزية من قلوب الأعداء ومن قلوب الحكماء والنوغاء ، فما ظنك بمن لو أبصروا رجلا قد أحياء بعد أن ضرب عنقه وأبان رأسه من جده ! أليس يكون تعجبهم من إحيائه أشد من تعجبهم من قتله ؟ ! وكان يكون إخبارهم من خلقوا في منازلهم ومن ورد عليهم عن القتل ليكون سبباً للاخبار عن الإحياء ، إذ كان الأول صغيراً في جنب الثانى ! فهذا يدل على أن أعلام الرسل عليهم الصلاة والسلام وآياتهم أحق بالظهور والشهرة والقهر لقلوب والأسماع من مخارجهم وشرائعهم ، بل قد نعلم أن موسى عليه السلام لم يذكر ولم يشهر إلا لأعاجيبه وآياته ، وكذلك عيسى عليه السلام . ولولا ذلك لما كنا إلا كغيرها ممن لا يشعرون بموته ولا مولده . وكيف تتقدم المعرفة بهما المعرفة بأعلامهما وأعاجيبهما وأنت لم تسمع بذكرهما قط دون ما ذكر من أعلامهما ! فإذا كان شأن الناس الاخبار عن كل عجب وحكاية كل عظيم والأطراف بكل طريف وإيراد كل غريب من أمور دنياهم فلا يمتنع في طبائعهم ولا يخرج من قوى الخليقة في البطش والحيلة أحق بالاخبار والاذاعة وبالاظهار والافاضة . هذا على أن يترك الطبع وما توله عليه والنفوس وما تنتج والصلل وما يسخر ، فكيف إن كان الله عز وجل قد خص أعلام أنبيائه وآيات رسله عليهم السلام من تهيج الناس على الاخبار عنها ومن تسخير الأسماع لحفظها بمخافة لم يجعلها لغيرها

فصل منه : فان قل قائل : إن الحجة لا تكون حجة حتى تعجز الخليفة وتخرج من حد الطاقة كإحياء الموتى والمشي على الماء وكفلق البحر وكاطعام النار في غير أوان النار واطلاق السباع وإشباع الكثير من القليل ، وكلما كان جساماً معتزلاً وجراماً مبتدعاً ، وكافئ لا يجوز أن يتولد إلا الخلق ولا يقدر عليه إلا الله عز وجل ذكره ، فأما الأخبار التي هي أفعال العباد وهم تولوها وبهم كانت وبهم حدثت فلا يجوز أن يكون حجة إذ كل لا حجة إلا مالا يقدر عليه الخليفة ومالا يقوم من جميع البرية ؟ قلنا : إننا نزع أن الأخبار حجة فيحتجوا علينا بها ، وإنما زعمنا أن عيبها حجة والحيى ليس هو أمر يتكافئ الناس ويختارونه على غيره ، ولو كان كذلك لكانوا متى أرادوه فلولوه وتمشوا به وتسلوا في الباطل كما يحيى لهم في الحق . والحيى أيضاً ليس هو ضلالتاً فيستطيعونه أو يجزوا عنه ، وإنما هو أن الإنسان يعلم أنه إذا تلقى البصريين فأخبروه أنهم قد عاينوا بمكة شيئاً ثم تلقى الكوفيين فأخبروه بمثل ذلك ، أنهم قد صدقوا إذ كان مثلهم لا يتواطأ على مثل خبرهم على جهلهم بالنيب وعلى اختلاف طبائعهم ومهمهم وأسبابهم . فليس بين هذا وبين إحياء الموتى والمشي على الماء فرق ، إذ كان الناس لا يقدرون عليه ولا يطعمون فيه . والحيى إنما هو معنى محقول وشئ موهوم إذا كان وكيف يكون ، ومعلوم أن الناس لا يمكنهم أن يقدروا عليه ولا يستطيعون فعله ، وإنما مدار أمر الحجة على عجز الخليفة ، فحق وجدت أمراً ووجدت الخليفة عاجزة عنه فهي حجة ثم لا عليك جوهرأ كان أو عراً أو موجوداً أو متوها أو معقولا ، ألا ترى أن فلق البحر ليس هو من جنس اختراع النار ؟ لأن الفلق هو اقتراج أجزاء والنار أجرام حادثة ، وكذلك لو ادعى رجل أن الله عز وجل أرسله فجعل حجة علينا الإخبار بما أكلنا وادخرنا وأضرنا فكان قد احتج علينا فان قلت : إن المنجيين ربما أخبروا بالضمير وبالأمر المستور ويمض ما يكون ؟ قلنا : هناك فرق ، فان خطأ المنجيين كثير وصوابهم قليل ، بل هو أقل من القليل . وأنتم لا تقدر أن تتقوا من إخبار الرسلين عليهم السلام في كثير إخبارهم على

خطأ واحد . والذى سهل قليل المنجمين طرفة ذلك منهم ، لأنهم لو قالوا فأخطأوا أبدا لما كان عجبا ، لأنه ليس يجب أن يكون الناس لا يملكون ما يكون قبل أن يكون ، ومن أعجب العجب أن يوافق قولهم بعض ما يكون ، وقد نجد المنجمين يختلفون فى القضية الواحدة ويخطئون فى أكثرها . وقد نجد الرسول يخبرم عما يأكلون ويشربون ويخرجون ويضربون فى الأمور الكثيرة المأني والمختلفة فى الوجه حتى لا يخطئ فى شئ من ذلك . وليس فى الأرض منجم ذكر شئ أو وافق ضميرا إلا وأنت واحد بعض من يزرع قد يجنى بمثله وأكثر منه

فإن قلت : إن الناس يكذبون فى الإخبار عن الأعراب والكهان من كل جيل ! قلنا : نعم فى إخبارهم عن المنجمين أكذب . وبعد ، فالناس غير مستظلمين لكثرة كذب المنجمين وخطئهم وخدعهم ، والناس يستظلمون البير من المرسلين عليهم السلام . وكما كان الرجل فى عينك أعظم وكان عن الكذب أضر كان كذبه عندك أعظم . وإنما المنجم عند العوام كالطبيب الذى إن قتل المريض علاجه كان عندهم أن القضاء هو الذى قتله ، وإن برأ كان هو أبرأه . على أن صوابهم أكثر ودليلهم أظهر . وقد صار الناس لا يقتصرون للمنجمين على قدر ما يسمعون منهم دون أن يولوا لهم ويضعوا الأعاجيب على أنفسهم ، وكل ملحد فى الأرض [مبغض] للرسول طاعن عليه عاقبه ، يرى أن يصدق عليه كل كذاب يريد ذمه ، وأن يكذب كل صادق يريد مدحه

وبعد فلو كان خبر المنجمين فى الصواب كخبر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام الذى هو حجة لما كان خبر المنجمين حجة

فإن قلت : ولم ذاك ؟ قلت لأن من كثر صوابه على غير استدلال ومقايضة وعلى غير حساب وتجربة أو على نظر ومعاينة لم يكن الأمر من قبل الرضى ، لأنك لو قلت قصيدة فى هك فذلك بها رجل وأنت تعلم أنه ليس بمنجم وأنشدكها كلها لمعت أن ذلك لا يكون إلا بروحى ، ومثل ذلك رجل اشتد وجع عينه فماله طبيب

فبرىء فلوجب علينا تكذيبه . ولو قال رجل
من غير أن يسمه أو يدنو إليه : اللهم إن كنت صادقاً عليك فاشفه الساعة ! فبرىء
من ساعته ، لعلنا أنه صادق . فان قالوا : وما علمنا أن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن
منجياً ؟ قلنا : إن علمنا بذلك كعلمنا بأن العباس وحمة وعلياً وأبا بكر وعمر رضوان
الله عليهم أجمعين لم يكونوا منجيين ولا أطباء متكهنين . وكيف يجوز أن يصير
إنسان علماً بالنجوم من غير أن يختلف إلى المنجيين أو يختلقوا إليه أو يكون علم النجوم
غاشياً في أهل بلاده أو يكون في أهله واحد معروف به ، ولو بلغ إنسان في علم النجوم
وليس معه علة من هذه العلل وكان ذلك يخفى لكان ذلك كقبض الآيات
والعلامات ! ومتى رأينا حاذقاً بالكلام أو بالطب أو بالحساب أو بالقناء أو بالنجوم
أو بالمروض خفي على الناس موضعه وسببه وجميع مآذ كرافضناية الناس به وعداوتهم
له وشهرته في قومه دون محمد صلى الله عليه وسلم . وهل نسب أحد قط لأحد إلا دون
ما نسب له رهطه وأداني أهله ومن معه في بيته وريبه ؟ وما أعرف برحمك الله المعاند
والمرشد والمصدق والكاذب ينكر أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن منجياً
ولا طبيباً ، وإذا قال الجاهل إنه قد كان يعلم الخط فحفي له ذلك ، وتعلم الأسباب
والقضاء في النجوم فحفي له ذلك ، وتعلم البيان وقدر منه على ما يجزئ أمثاله عنه وخفي
ذلك ، أليس مع قوله ما يعلم خلافه يعلم أنه قد سلم له أعجوبة كأعجوبة إبراء الأكفة
والأبرص والشي على الماء ؟ إذ كان ذلك لا يجوز ولا يمكن في الطبائع والعقل والتجربة
وانهم يرحمك الله ما أنا واصفه لك ، هل يجد التارك لصديقه أنه لا يدري
بزعمه لعله كان أعلم الخلق بالنجوم ناظراً لنفسه غير معاند لحجة عقله ، وهو لم يجد
أحداً قط برع في صناعة واحدة فحفي على الناس موضعه بكل ما حكينا وفسرنا ؟
وأنت كيف تعلم أنه ليس في إخوانك من ليس بمنجم وأن فيهم من ليس بطبيب
إلا بتل ما يعرف به رهط النبي صلى الله عليه وسلم وآله منه ! وكيف ثم يشهر ذلك ،
ولم يمتنع به عليه ! ولقد بلغ من إسرائهم في شتمه وإفراطهم عليه أن ناقضوا وأحالوا

لأنهم كانوا يقولون له أنت ساحر وأنت مجنون . وإنما يقال للرجل ساحر غلابته وحسن بيانه ولطف مكانه وجودة مداراته وتحببه ، ويقال مجنون لشد ذلك كله فصل منه — وليس يفتنع الناس بالكلام في الأخبار إلا مع التصديق ، ولا تصادق إلا مع كثرة السماع والعلم بالأصول ، لأن رجلا لو نازع في الأخبار وفي الوعد والوعيد والخاص والعام والناسخ والمنسوخ والغريضة والنافذة والسنة والشرعية والاجتماع والفرقة ، ثم حسنت نيته وناصح عن نفسه ، لما عرف حقائق باطل دون أن يكون قد عرف الوجوه وسمع الجمل وعرف الموازنة وما كان في الطبائع وما يتمتع فيها ، وكيف أيضا يقول في التأويل من لم يسمع بالتزويل ، وكيف يعرف صدق الخبر من لم يعرف سبب الصدق ؟

واعلم أن من عود قلبه التشكك اعتراه الضعف ، والنفس عزوف فما عودتها من شيء جرت عليه ، والتخير إلى تقوية قلبه ورد قوته عليه وإفهامه موضع رأيه وتوقيفه على الأمر الذي شغل صدره أخرج منه إلى المنازعة في فرق ما بين المجيء الذي يكذب مثله والمجيء الذي لا يكذب مثله . وستكلف من علاج ذاته وترتيب إفهامه إن أعان على نفسه بما لا يبق سببا للشك ولا علة للضعف والله تعالى المعين على ذلك والمحمود عليه

فصل منه — ومتى سمعنا نبي الله عليه السلام اتكل على عدالته وعلى معرفة قومه بقديم طهارته وقلة كذبه دون أن جاءهم بالسلامات والبرهانات ؟ ولمعربى لو لم نجد الحافظ ينسب والصادق يكذب والمؤمن يبذل لقد كان ملاذبهوا إليه وجها فصل منه في ذكر رسول النبي صلى الله عليه وسلم — ولرب آخر يعرف به صدقه وهو لإخباره عما يكون وإخباره عن ضائر الناس وما يأكلون وما يدخرون ، ولدعائه المحتاب الذي لا تأخير فيه ولا خلف له ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين لقي من قريش والعرب ما لقي من شدة أذاهم له وتكذيبهم إياه واستعانتهم عليه بالأموال والرجال دعا الله عز وجل أن يجذب بلادهم وأن يدخل الفتر في بيوتهم

قال صلى الله عليه وسلم : ألهم سنين كسرى يوسف ألهم أشد وطأتك على مضر . فأمسك الله عز وجل عنهم المطر حتى مات الشجر وذهب الثمر وقلت المزارع وماتت المواشي وحتى اشتقوا القدر والسيل ، فشد ذلك وفد حاجب بن زرارة على كسرى يشكروا إليه الجهد والأزل ويستأذنه في رعى السواد ، وهو حين ضمنه عن قومه وأرهنه قومه . فلما أصاب مضر خاصة الجهد ونهكهم الأزل وبلغت الحجة مبلغها وانتهت الوعدة منها عدا فضله صلى الله عليه وسلم على الذي بدأهم به فقال ربه الخصب وإردار التيث ، فأقام منه ما هدم بيوتهم ومنهم حوائجهم ، فكلوه في ذلك قال : ألهم حوائبنا ولا علينا . فأمر الله عز وجل ما حولهم وأمسك عنهم . وكتب إلى كسرى يدعوهم إلى نجاته وتحليصه من كفره فبدأ باسمه على اسمه فأقعه من ذلك كسرى لشقوته وأمر بتعزيز الكتاب . فلما بلغه صلى الله عليه وسلم قال : ألهم مرق ملكه كل ممزق . ففرق الله جل وعز ملكه جداً أمه وقطع دابره . لأن كل ملك في الأرض وإن كان قد أخرج من معظم ملكه فهو مقيم على بقية منه ، وذلك أن الإسلام لم يترك ملكاً بحيث تناله الحوافر والأخفاف والأقدام إلا أزاله عنه وأخرجه منه إلى عقاب يستصم بها ومما قتل يأوى إليها أو طرده إلى خليج منيع لا يقطعه إلا السفن . فهم من بين هارب قد دخل في وجار أو اختفى في غيضة أو مقيم على فم شعب ورأس مضيق ، قد سخت نفسه عن كل سهل وأسلم كل مرج ، أو ملك لا قرار له وليس بذي مدر فيؤتى وإنما أصحابه أكراد يطلبون النجاة أو كخوارج يطلبون الثرة . فأما أن يكون ملك يصمد لهم ويقم بازائهم ويناديهم الحرب ويمسيهم ويساجلهم الظفر ويناهضهم ، كما كانت ملوك الطوائف ، وكذلك كان بين فارس والروم فلا ، وذلك لقوله تعالى « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »

فلم يرض أن يظهر دينه حتى جعل أهله التاليين بالقدره والظاهرين بالمنة والآخذين الإملاوة . وكتب كسرى إلى فيروز الديلمي وهو من بقية أصحاب سيف ابن

ذى وزن: أن أحمل إلى هذا السبد الذى بدأ باسمه قبل اسمى واجترأ على ودعائى إلى غير دينى . فأتاه فيروز فقال : إن ربى أمرنى أن أحملك إليه . قال صلى الله عليه وسلم : إن ربى خبرنى أنه قد قتل ربك البارحة ، فأمسك على ريث ما يأتيك الخبر فإن تبين لك صدقى وإلا فأنت على أمرك . فراع ذلك فيروز وهاله وكره الإقدام عليه والاستخفاف به . فإذا الخبر قد أتاه أن شيرويه قد وثب عليه فى تلك الليلة فقتله . فأنسلم وأخلص ودعا من ممة من بقية الفرس إلى الله عز ذكره فأسلموا

فصل منه: فى ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم : ثم إن الذى تقدمه صلى الله عليه وسلم من البشارات فى الكتب المتقدمة فى الأزمان المتباعدة والبلدان الموجودة بكل مكان على شدة عناوة أهلها وتعصب حاملها ومع قوة حسدهم وشدة بغيهم وما ذلك يبدع منهم ومن آياتهم ، على أنهم أشبه بآياتهم منهم بأزماناً ، وكل الناس أشبه بأزمانهم منهم بآياتهم ، وآياهم الذين قتلوا أنبياءهم عليهم السلام وتغنتوا رسلهم صلى الله عليه وسلم حتى خلاهم الله عز وجل من يده وأقدم عصمته وتوفيقه ، ولم أستدل على ذكره فى التوراة والإنجيل والزيور وعلى صفته والبشارة به فى الكتب إلا لأنك متى وجدت النصرانى واليهودى يسلم بأرض الشام وجدته يقتل بأمور ويحتج بأشياء مثل الأمور التى يحتج بها من أسلم بالمرق ، وكذلك من أسلم بالحجاز ومن أسلم باليمن من غير تلاق ولا تعارف ولا تشاعر ، وكيف يتلاقون ويتراسلون وهم غير متعارفين ولا متشاعرين ! ولو كانوا كذلك لظهر ذلك ولم ينكم ، كما حكينا قبل هذا ، ولو قابلت بين أخبارهم واحتجاجهم مع كثرة الألفاظ واختلاف اللغات لوجدتها متساوية .

فصل منه : فإن قال قائل : لم كانت أعلام موسى عليه السلام فى كثرتها مع غنى نبي إسرائيل وقصان أحلام القبط فى وزن أعلام محمد صلى الله عليه وسلم وفى قدرها مع أحلام قريش وعقول العرب ؟ ومتى أحيت أن تعرف غنى نبي إسرائيل وقص أحلام القبط ورجعان عقول العرب وأحلام كنانة فانظر بواديهم ورعاهم

وانظر إلى بينهم ويقاليم كما نظرت إلى غي بني إسرائيل وقص بني من مضى من القبط تعتبر ذلك وتعرف ما أقول . ثم أنظر في الأشعار الصحيحة والخطب المعروفة والأمثال المصروفة والألقاظ المشهورة والمأاني المذكورة مما هلكته الجماعات عن الجماعات وكلام العرب ومعانيهم في الجاهلية ، ثم تفقد وسل أهل العلم والخبرة عن بني إسرائيل فإن وجدت لهم مثلاً سائراً كما تسمع للقبط والقرص فضلاً عن العرب فقد أبطلنا فيما قلنا . وقد كان الرجل من العرب يقف المواقف ويفشي . عدة أمثال كل واحد منها ركن يبنى عليه وأصل يتفرع منه . أو هل تسمع لهم بكلام شريف أو معنى يستحسنه أهل التجربة وأصحاب التدبير والسياسة أو حكم أو حكمة أو حنق . في صناعة مع ترادف الملك فيهم وتظاهر الرسالة في رجالهم ، وكيف لا تقضى عليهم بالنبي والجهل ولم تسمع لهم بكلمة فاحرة أو معنى نبه لا بمن كان في البدأ ولا بمن كان في المحسر ولا من قاطى السواد ولا من نازلى الشام ، ثم انظر إلى أولادهم مع طول لبهم فينا وكونهم معنا هل غير ذلك من أخلاقهم وشمالهم وعقولهم وأعلامهم وآدابهم وفطنتهم ؟ فقد صلح بنا كثير من أمور النصراني وغيرهم ، وليس النصراني كاليهود لأن لليهود كلهم من بني إسرائيل إلا القليل . وبعد فلم يضرب فيهم غيرهم لأن منا كهم مقصورة فيهم ومحبوسة عليهم قصورا ولم مودة إلى آخره وعقول أسلافهم مردودة على أخلاقهم ثم اعتبر بقولهم لنبيهم عليه السلام : « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » حين مروا على قوم يمسكون على أسنام لهم يعبدونها وكتولهم « أرنا الله جبهة » وكمكوفهم على عجل صنع من حلهم يعبدونه من دون الله بعد أن أراهم من الآيات ما أراهم ، وكتولهم « إنذهب أنت وربك هاتان إنا هاهنا قاعدون » فكان الذي جاء به موسى عليه السلام مع قص بني إسرائيل والقبط مثل القتي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم مع رجحان قریش والعرب . وكذلك وعد محمد عليه الصلاة والسلام بنار الأبد كوعيد موسى بني إسرائيل بالقاء الملاص على زروعهم والهم على أفنتهم وتسلط الموتان على ماشيتهم وبأخراجهم من ديارهم وأن يظفر بهم عدوم ، فكان تعجيل العذاب

يختلفكم بها وكأصغر آية دعاكم إلى معارضتها ، بل لو نسوا ما تركهم حتى يذكروهم ، ولو تناقلوا ما ترك أن يفهمهم ، بل لم يرض بالتنبية دون التوقيف ، فدل ذلك الماثل على أن أمرهم في ذلك لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكونوا عرفوا عجزهم وأن مثل ذلك لا يتبأ لهم فأروا أن الإضراب عن ذكره والتناقل عنه في هذا الباب وإن قرعهم به أمثل لهم في التدبير وأجدر أن لا يكشف أمرهم للجاهل والضعيف وأجدر أن يجدوا إلى السعوى سبيلا وإلى اختداع الأنبياء سبباً ، فقد ادعوا القدرة بعد المعرفة بعجزهم عنه وهو قوله عز ذكره « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » وهل يذعن الأعراب وأصحاب الجاهلية للتفريع بالمعجز والتوقيف على النقص ثم لا يبدلون مجهودهم ولا يخرجون مكنتهم وهم أشد خلق الله أفة وأفرط حمية وأطلبه بطالة ، وقد سمعوه في كل منهل وموقف .! والناس موكلون بالخطابات مولعون بالبلاغات ، فمن كان شاهداً فقد سمعه ومن كان غائباً فقد أتاه به من لم يزده ، وإما أن يكون غير ذلك ولا يجوز أن يطبقوا على ترك المعارضة وهم يقدرون عليها ، لأنه لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء والدةاء والحكماء مع اختلاف علمهم وبعدهمهم وشدة عداوتهم على بذل الكثير وصون اليسير ، وهذا من ظاهر التدبير ومن جليل الأمور التي لا تختفى على الجبال فكيف على العقلاء وأهل المعارف ، فكيف على الأعداء ؟ لأن تحيير الكلام أهون من القتال ومن إخراج المال ، ولم يقل أن القوم قد تركوا مسامحة في القرآن والطمع فيه بعد أن كثرت خصومتهم في غيره .! ويدل على ذلك قوله عز وجل « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » وقوله عز ذكره « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بآية » وقوله تعالى ذكره « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » ، ويدل كثرة هذه المراجعة وطول هذه المناقاة على أن التفريع لم بالمعجز كان فاشياً ، وأن عجزهم كان ظاهراً ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم تحداً بالأنظم والتأليف ولم يكن أيضاً أزاح عليهم حتى قال تعالى : « قل فأتوا بمشور مثله

مفتريات» وعارضوني بالكذب لقد كان في تفصيله له وتركيبه وتهديه له واحتجاجة ما يدعوا إلى معارضته ومقابلته وطلب مساويه ! ولو لم يكن تحديهم في كل ما قلنا وقوعهم بالجزع عما وصفنا، وهل هذا إلا تحديهم له واكتاره فيه لكان ذلك سببا موجبا لمعارضته ومقابلته وطلب تكذيبه ، إذ كان كلامهم وهو سيد عملهم والمؤنة فيه أخف عليهم وقد بذلوا النفوس والأموال ، وكيف ضاع منهم وسقط على جماعتهم نيفا وعشرين سنة مع كثرة عددهم وشدة عقولهم واجتماع كلهم ، وهذا أمر جليل الرأي ظاهر التدبير

فصل منه : في كراهة امتناعهم عن معارضة القرآن لمجزم عنها - : والذى منهم من ذلك هو الذى منع ابن أبى العوجاء وإسحق بن طلوت والتمان بن المنذر وأشباههم من الأرجاس الذين استبدلوا بالمر ذلا وبالإيمان كفرا وبالسعادة شقوة وبالحجة شبهة ، بل لا شبهة في الزندقة خاصة، فقد كانوا يصنون الآثار ويولدون الأخبار ويشونها في الأمصار ويطعنون في القرآن ويألون عن مثابته وعن خاصه وعامه ويضعون الكتب على أهلها . وليس شيء مما ذكرنا يستطيع دفعه جاهل غبي ولا معاند ذكي

فصل منه : ولما كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السحر ولم يكن أصحابه قط في زمان أشد استحكاما فيه منهم في زمانه ، بعث الله موسى عليه السلام على إبطاله وتوهينه وكشف ضممه وإظهاره ونقض أصله لردع الأغبياء من القوم ولإنشأ على ذلك من السفلة والظلم ، لأنه لو كان أقام بكل شيء ولم يأتهم بمعارضة السحر حتى يفصل بين الحجة والحيلة لكانت قوسهم إلى ذلك متطلعة ولا غفل به أصحاب الأشغال ولشغلوا به بالضعيف، ولكن الله تعالى جده أراد حسم الغناء وقطع المادة وأن لا يبعد المبطلون متعلقا ولا إلى اختداع الضمما بسيلا ، مع ما أعطى الله موسى عليه السلام من سائر البرهانات وضروب العلامات . وكذلك زمن

إعلم أن القوم يلزمهم ما ألزموه أنفسهم ، وليس ذلك إلا للجزم عن التخلص
بجهم وإلا لتعاهبهم عن قواعد قولهم وفروع أصولهم ، فليس لك أن تضعيف المعجز
الذى كان منهم إلى أصل مقالهم وتحمل ذلك الخطأ على غيرهم ، قرب قول شريف
الحسب جيد المركب وفر العرض يرى من العيوب سليم من الأفتن قد ضيه أهله
وهجته المفترون عليه ، فالزموه مالا يلزمه وأضافوا إليه مالا يجوز عليه . ولو زعم القوم
على أصل مقالتهم أن القرآن هو الجسم دون الصوت والتقطيع والتنظيم والتأليف
وأنه ليس بصوت ولا تقطيع ولا تأليف ، إذ كل الصوت عندهم لا يخترع كاختراع
الأجسام المصورة ولا يحتمل التقطيع كاحتمال الاجرام المتجسدة ، والصوت عرض
لا يحدث من جوهر إلا بدخول جوهر آخر عليه ، ومحال أن يحدث إلا وهناك
جسمان قد صك أحدهما صاحبة ، ولا بد من مكانين مكان زال عنه ومكان زال إليه ،
ولا بد من هواء بين المصطكين . والجسم قد يحدث وحده ولا شيء غيره ، والصوت
على خلاف ذلك . والرض لا يقوم بنفسه ولا بد من أن يقوم بغيره ، والاعراض من
أعمال الاجسام لا تكون إلا منها ولا توجد إلا بها وفيها ، والجسم لا يكون إلا من
جسم ولا يكون إلا من مخترع الاجسام وليست لكون الجسم له علة توجبه ، ولا
يحدث إذا حدث إلا اختياراً وإلا ابتداءً واختراعاً ، والصوت لا يكون إلا عن علة
موجبة ولا يكون إلا توليداً ونتيجة ، ولا يحدث إلا من جرمين كاصطكاك الحجرين
وكفرع اللسان باطن الاسنان ، وإلا من هواء يتضاغط وريح تفتق ونار تلتهب ،
والريح عندهم هواء تحرك ، والنار عندهم ريج حارة ، هكذا الأمر عندهم . فلو قالو
لا يكون الشيء مخلوقاً في الحقيقة دون المجاز على مجازى الله إلا وقد بان الله عز
وجل باختراعه وتولاه باقتداعه ، وكان منه على اختيار . والابتداع الذى يمكن تركه
وإنشاء عقية بدلا منه على ما كان تولده ونتيجته من أجسام يستحيل أن يخلق
من أصلها ويخلقها الله منها . والقرآن على غير ذلك جسم وصوت ، وذو تأليف وذو نظم
وتقطيع ، وخلق قائم بنفسه مستغن عن غيره ، ومسموع فى الهواء ، ومرى فى الورق

ويمفصل وموصل، ذواجتماع واقتراق، ويحتمل الزيادة والنقصان والقضاء والبقاء. وكما احتملته الأجسام ووصفت به الأجزاء، كل ما كان كذلك فمخلوق في الحقيقة دون المجاز وتوسع أهل الفنة، فلو كانوا قالوا ذلك لكانوا أصابوا في القياس وواقوا أهل الحق وكانوا مع الجماعة ولم يضاهاوا أهل الخلاف والفرقة ولم يفهموا أنفسهم يقول المشبهة، إذ كان ظاهر قولهم على التشبيه أدل وبه أشبه. ولا يجوز أن أذكر موضع موافقتي لهم ومخالفتي عليهم في صدر هذا الكتاب، لأن التدوير في وضع الكتاب والسياسة في تعليم الجاهل أن يبدأ بالأوضح فالأوضح والأقرب فالأقرب وبالأصول قبل الفروع حتى يكون آخر الكتاب لآخر القياس، وآخر الكلام لا يفهم أرشدك الله تعالى ولا يتوهم إلا على ترتيب الأمور وتقديم الأصول، فإذا رتبنا الأمور وقدمنا الأصول صارت أواخر المأني في النعم كأوائها ودقيقها كجليلها، وقد علمنا أن بعض ما فيه الاختلاف بين من يفتتح الإسلام أعظم فرية وأشد بلية وأشنع كذراً وأكبر إثمًا من كثير مما أجموا على أنه كفر

وبعد فنحن لا نكفر إلا من أوسعناه حجة، ولم نمتحن إلا أهل التهمة، وليس كشف التهم من التجسس ولا امتحان الظن من هتك الستار، ولو كان كل كشف هتكاً وكل امتحان تجسساً لكان القاضي أهتك الناس لستر وأشد الناس كشفاً لمورة

والذين خالفوا في العرش إنما أرادوا نفي التشبيه فغلطوا، والذين أنكروا أمر الميزان إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجساماً وأجزاء غلاظاً. فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم، وإن كانوا قد أخطؤا فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق، فين المذهبين أي التفرق. وقد قال صاحبكم للخليفة العتصم يوم جمع القهاء والتكلمين والقضاة والمحصلين إغذاراً وإنذاراً: إمتحنتي وأنت تعرف الحجة وما فيها من الفتنة، ثم امتحنتني من بين جميع هذا لامة؟ قال المعتصم: أخطأت، بل كذبت.. أوجدت الخليفة قبلي قد حبسك

لهم جرأتهم على الكذب كما كشف لهم جرأته في المعاندة . فتند ذلك ضر به الخليفة .
وأية حجة لكم في امتحاننا إياكم وفي ! كفارتنا لكم وزعم يثبت أن حكم كلام الله تعالى كحكم علمه ، فكما لا يجوز أن يكون علمه محدثاً ومخلوقاً فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً ومحدثاً ، قال له : أليس قد كان الله يقدر أن يبدل آية مكان آية ويستخ آية يا يقو أن يذهب بهذا القرآن ويأتي بغيره ، وكل ذلك في الكتاب مسطور ؟ قال : نعم . قال : فهل كان يجوز هذا في العلم وهل كان جائزاً أن يبدل الله علمه ويذهب به ويأتي بغيره ؟ قال : لا . وقال له : روينا في تثبيت ما تقول الآثار وتلونا عليك الآية من الكتاب وأريناك الشاهد من القول التي بها لزم الناس القرائض وبها يفاضلون بين الحق والباطل افارضنا أنت الآن بواحدة من الثلاث ؟ فلم يكن ذلك عنده ولا استخزي من الكذب في هذا المجلس ، لأن عدة من حضره أكثر من أن يطمع أحد أن يكون الكذب يجوز عليه ، وقد كان صاحبكم هذا يقول : لا تقية إلا في دار الشرك . فلو كان ما أقربه من خلق القرآن كان منه على وجه التقية فقد أعلمها في دار الاسلام وقد أكذب نفسه ، وإن كان ما أقربه على الصحة والحقيقة فليس منكم . على أنه لم ير سيفاً مشهوراً ولا ضرب ضرباً كثيراً ولا ضرب إلا بثلاثين صوتاً مقطوعة التمار متعبة الأطراف حتى أفصح بالاقرار مراراً ، ولا كان في مجلس ضيق ولا كانت حاله مؤبدة ولا كان متعلاً بالحديد ولا خلع قلبه بشدة الوعيد ، ولقد كان ينازع بألين الكلام ويحجب بأغلظ الجواب ، ويرزونون ويخفون ويحلمون ويطيشون . وعبتم علينا ! كفارتنا إياكم واحتجاجنا عليكم بالقرآن والحديث ، وقلم تكفرونا على إنكار شيء . يحتمل التأويل ويثبت بالأحاديث ؟ قد ينبغي لكم أن لا تحتجوا في شيء من القدر والتوحيد بشيء من القرآن والحديث وأن لا تكفروا واحداً خالفكم في شيء وأنتم أسرح الناس إلى كفارتنا وإلى عداوتنا والنصب لنا

فصل : وأصحابنا حفظك الله إذا قالوا خطأهم ومروا على غلظهم فانما يتقضون

أجده جيداً في أغلب الظن ، ولو كنت أقتل ذلك علماً وأعلمه يقيناً لكان أحب الأمور إلى أن يكون لي فيه سلف صدق وإيمان لا يفلط ، وأن أحكيه عن سعدل وأسندته إلى مقنع ! قل نسبح وأشر تتبع !
يجبني - جعلت فداك - منك بنض الشهرة وديبك في غلار الحسوية استفتاء بنفسك ، وصونا لقدرك ، ومعرفة بما أعطيت ، وثقة بالقي أوتيت . وما أقل محمد الله ما سبقك به إبليس ، وما أيسر ما فاتك به آدم . فزاد الله شاكرك نعمة وناصرك عزة . وقد ذكرت الرواة في المبرين أشعاراً وصنعت في ذلك أخباراً ، ولم نجد على ذلك شهادة قاطعة ولا دالة قاطعة ، ولا قدر على ردها بجواز معناها ، ولا على تثبيتها إذ لم يكن معها دليل يثبتها ، وقد تعرف ما في الشك من الحيرة ، وما في الحيرة من القلق ، وما في القلق من النصب ، وما في النصب من طول الفكرة وما في طول الفكرة من الوحشة ، وما في طول الوحشة من التمرض للوساوس والخفقة وما في إصاب القلب وإقصاء النفس من كلال الحد ، وما في الإلحاح من دواعي الضجر ، وما في الجهل من النقص ، وما في نزاع النفس من السكد . فافتح لبيتك باباً نترح إليه ، وأقم له علماً تف عنده . فقد علمت ما ذكروا من عمر نابتة نبي جعدة ، وما لك ذى الرقية ، ونصر بن دهمان ، وابن ببيعة النساني ، والربيع بن ضبيع ، ودؤيد بن نهد . وأنت أباك الله تعرف ميلاد آبائهم وأجدادهم وقبائلهم وعمايرهم وأصولهم وأجناسهم ، فخيرني أكذبوا أم صدقوا ، أم اقتصدوا أم أسرفوا فأما ما رووا لأجسام الناس من الطول والمرض ، وثبتوا لهم من السن والنظم والضعف سوى ما نطق به الكتاب عن أجسام عاد ، فالشاهد على كذبهم حاضر ، والليل على فساد عقولهم ظاهر ، كالذي رأينا من أقدار سيوف الأشراف وأزجة رماح الفرسان ، وكتيجان اللوك التي في الكعبة ، وكضيق أبوابهم وقصر سمك عتب درجهم في قصورهم المادية ومدنهم المذمليّة ، ويدل على ذلك الجرون التي كانت مقابرهم وأبواب مدافنهم في بطون أرضيهم وشفت جبالهم ومطامرهم ومواضع قتاديل كنانهم ومجالسهم وبيوت عباداتهم وملاعبهم من

ثم رؤسهم . ولو حضرنا من الشواهد على ما ادعوا من أعمارهم مثل التي حضرنا
من الشواهد على تكذيبهم في طول قلماتهم إذا لا عينك ولا اجتلتاك ، وعلى أنه
لو كان السبب في طول قلماتهم وضخم أبدانهم قادم ميلادهم وحدة قوة الأرض
قبل أن تخلق وشبابها قبل أن تهزم ، لكان ينبغي لمن كان قبلهم أن يكون
أعظم منهم ، ولكن قصان من بعدهم عن على عصرهم ومن على أولئك على
حساب ذلك .

وخبرني أبوك الله من كان باني ريلم ، ومن أنشأ كبيه نجران ، ومن صاحب
عُمدان ، ومن باني تدمر ، ومن - أسلم الحرمين ، ومنذ كم بنيت مأرب ، وأين
كان الأبلق الفرد من المشقر ، وأين قصر النوبهار من قصر سنداد ، ومن صاحب
عرقوف ولم قضيت جلت فداك لِخُصَّةِ الإيادية على بنت الخُس ولان شرية
على شِقِّ وللتخار على ابن النطاح ، وابن الكيس على ابن لسان الحُمرة ، وأين
كانت الزباء من ملكة سبأ ، وأين خاتون من بوران ، وأين جُلندي من أسباد ،
وأين حذيم من أمي ، وأين كان لقيم من لقان ، وأين كان كُرز بن علقمة من
مُجَزِّز الدلي . وأين كان رافع الخنثى من دعيص الرمل . ؟

وخبرني عن عظمة أقاليم الخراب وعن خلاء شق الجنوب ، أذلك قائم مذ
دار الفلك وكان النجوم ، أو النول بينهما مقسومة والأيام عليهما موقوفة ! ولم قدمت
إقليم دوس على إقليم بابل . وخبرني عن الشهب أتكون نهاراً أم تكون ليلا ، ولم
قدمت الروم في الصنعة على أهل الصين ، ولم قدمت تُبَّتْ على الزابج ، ولم فضلت
السكون على الحركة ، ولم جعلت الكون فسادا والافتراق اجتماعاً . ؟ قد وحدتك
جعلت فداك خفت أن تكون ابن صائد ، ورجوت أن تكون البجال ، ولعلك
حابة الأرض ، وما أدري لعلك سوثي ! ولست بمحمد الله الخضر . والقي لا أنشك
فيه أنك غير المسيح ، وأظن روحك روح شقيقة بل روح بلنديون ، بل روح
دلالا ، وأنتك الأركون المنتظر .

واحتمل لى مسته واحدة ولا أعود ، وسأجعلها طويلة ولا أزيد : كم بين ود
وسواع ويثوث ويعوق ، وبين مناة والبرى والنصب وعأم ، وبين مناف ونهم
وسمد ومنهب ، ومد كم نكح أساف فآله ، ومد كم سخا فى السكبة ؟ وخبرني
عن يرهوت وبلهوت ، وعن الجاية وموضع الطاغية ، وعن سيف الصاعقة ، ومن ألقى
ذلك إلى الرافضة ، وما كان مال قارون ، وما كان كنز النطف ، ولبن كانت البليهة ،
وما قرط مارية ، وما أصل مال ابن جُدعان وكيف كان مشورة أمه . وخبرني عن
ذلك لئال الذى من أخذ منه نعم ومن تركه نعم

جعلت فذاك قد شاهدت الإنس مذ خلقوا ، ورأيت الجن قبل أن يحجبوا ،
ووجدت الأشياء بنفسك خالصة وعزوجة وأغفالا وموسومة متسالة ومدخولة ، فأتقنى
عليك الحجج من الشبهة ، ولا السقم من الصحة ، ولا الممكن من المستنع ، ولا المستلحق
من المستهم ، ولا النادر من البديع ، ولا شبه الليل من الليل . وعرفت علامة
الثقة من علامة الريبة ، حتى صارت الأقسام عندك محصورة ، والحدود محفوظة ،
والطبقات معلومة ، والدنيا يجذأ فيها مصورة ، ووجدت السبب كما وجدت المسبب ،
وعرفت الاعتلال كما عرفت الإحتجاج ، وشاهدت العلل وهى تولد والأسباب
وهى تصنع ، فترقت المصنوع من المخلوق ، والحقيقة من التمويه . فما قول فى الرؤى
وما تقول فى الرؤيا ، وما تقول فى أكسير الكيمياء ، وما تقول فى كيموس الصنعة
وما تقول فى الزجر ، وما تقول فى التراسه ، وما تقول فى القائل ، وما تقول فى الطيركة
وما تقول فى تمت العلم ؟ وما تقول فى معنى البركة ، وما تقول فى النجوم ، وما تقول
فى الخيلان ، وما تقول فى أسرار الكف ، وما تقول فى النظر فى الأكتاف ، وما
تقول فى قرض القارة ، وما تقول فى إلحاح الخنفساء ، وما تقول فى دوائر الرأس ،
وفى أوضاع الخيل ، وفى النمس والنسور ، وفى الديك الأفرق والنسور الأسود ، وفى
البول فى النفق ، وفى الإطلاع فى عادي الآبار ، وفى النوم بين البابين ، وما تقول

وفقائه، ولولا الخبر لما قدمته عليك ولا ساوته بك، وأنت أحق من عذر وأولى من ستر، ولو ظهر لي لا سألتك كسر إلى إياك، ولما نقلته الكلام كمنافقتي لك، وإن كان في التجاذب مثلك فهو في النصيحة على خلافك، ولأنك إن منمت شيئاً فمن طريق التأييد أو التقويم، وهو إن منع منع بالفسخ والإرصاد، وأنت على حال أشكل، ونحن نرجع إلى أصل وثلثي إلى لب ويجمع بيننا دين.

وخبرني عن الشق، وعن واقواق، وعن القسطنس، وعن دوالباي، وعن السكركدن، وعن عطاء مغرب، وعن الكبريت الأحمر، وعن نور الله في الأرض؟ وحدثني عن شمس رضوى، وعن جبال حسي، ومتى ترى الماء الأسود والجو الأكاف والطين الأزرق، وكيف ذلك النمر، وهل يظن ذلك الأسد، وهل باض الخفاش، وهل أمنت الجباري، ومتى تنطم ما في الجفر وتحكم ما في الزبر، وما فعل نخل وبار، وناسج أبي المرقال، وما الحجة في الرجعة والقول في المناصفة، ومن أين قلتم بالبداء، ومن أين جعلتم الملائكة والزيادة قلنا، وما القول في النفس؟ وخبرني ما السحر وما الطلسم، وما السمش وما الخلقطير، وما الميكل، وما الطواقي، وما قولهم في البيان الذكر، وفي مراعاة المشتري، ولم توحشوا من الناس ولم باتوا بالبراح وأقموا بالخواب واغسلوا باللاء القراح، ولم قلموا التصديق وأخرجوا الصرة، ولم أجابوا وأكرموا، ولم منعوا وقتلوا. !؟

وخبرني من خاتق الفريض وقاتل سعد^(١) يوم النفق، ومن القى استهوى عمرو بن عدى، ومن صاحب عمارة بن الوليد، ومن يصرع منهم الأحماء، ومن يبرى، الرضى ويستهى العقلاء، وعن فصل ما بين الشيطان والجن وما بين الجن والجن ومن طعمه الجندف^(٢). وخبرني عن أشمار الماتف وما يسمع بالليل من جوائب الأخبار. وخبرني عن النجيري صاحب الورقة، وعن نعيم الباري صاحب الردم. وخبرني عن شقلون، وعن أهرمن،

(١) الفريض: هو الملقى للشهور. وسد: هو سد بن عبادة الخزرجي السجاني.

(٢) الجندف: كل طعم لا يذكر اسم الله عليه. أو هو نبات يتى لا يحتاج آكله إلى شرب الله عليه.

وعن كان وكان ، ومرة ، وايدش ، وافردش ، وايرشارش ، وايرلارش هوخوزت
 بله ، وكيف صارت خوزت هذه أعمر العوالم ، وأيا أكثر يأجوج أم
 مأجوج ، وأيا أقصر وأيا أطول أعماراً ، وأيا أفضل منكراً أم نكير ، وأيا أحب
 هاروت أم ماروت ، وأى حوت ابتلع يونس ، وأى حية ابتلعت المهلب ، ومن أى
 حية كانت سفينة نوح ، ولم ملح الخوض ، ولم طوقت الجامعة ، وما فرق ما بين
 الطاس والكلس ، وما كان سبب اتخاذ الأقيّة ، وما سبب صنعة الزجاج ، وما قصة
 الرخام أ كيمياء أم مخلوق ، ولم امتنع عمل الذهب والزجاج أعجب منه ، ومن صاحب
 البنا وتودين الحجارة ، ومن صاحب التطيف ، ومن صاحب النوشادر ، وما تقول فى التئين
 وما فرق الاسد ، وما صداق ما بين الخنفساء والقرب هوما بال السواد يصنع ولا ينصنع
 وما بال البياض ينصنع ولا يصنع ، ومن صاحب الاضطراب ، ومن صاحب
 القرسطون . ولم أسألك عن الحداد وإنا سألتك عن القيلسوف وعن علته فى
 الد والجزر .

وخبرنى عن جوهر الأرض وعن جميع الفلز أئىء مفروغ من خلقه أم أرض
 يستحيل إليه ، ولم عمل بعض السم فى العصب وبعضه فى السم وبعضه فيهما جميعا ،
 ولم كان بعض سم نجاىز وبعضه سم جهاز ، ولم صار لا يقتل مع العادة وقتل قبل
 العادة ، لأن الطبايع تنكر الشئ الغريب أم لأنه ضد فى نفسه ، وكيف صار مع
 ريق الأنفى ريق بعض الناس فى القتل وفى أيهما سم ، ولم خالف البيش فى
 العصب والسم ، ولم يقتل القرب إنساناً ويقتله آخر ، ولم صارت الأنفى قاتلة
 وتأكلها القناويز ولا تضرها وتأكلها الأروى فلا تتأذى بها ، ولم صارت الهندية
 تقتل كل شئ ولا يقتلها شئ . ولا يستمرئها شئ . ولم خالف النيل جميع الأودية
 فى النقصان والزيادة ، ولم بلغت جريته الشمال ، ولم صار أقصاه كأدناه ، ومتى
 يبال منه ومتى يحوله الامام . . ؟ !

وقد علمت جلست فذاك أن الخبر إذا صح أصله وكان للناس علة فى نشره .

وكن في الصلاة على الحق كالبيان وفي الشفاء كالسم ، على أن الخبر لا يعرف به تكيف الأمور لكن يعرف به جل الأشياء إلا خبرك فإنك لا تحتاج إلى إشارة ولا إلى إعادة ولا إلى [علة ولا إلى] تيسير حتى يقوم خبرك في الشفاء وفي كيفية الشيء . مقام البيان . وقد كنت أتعجب من محمد بن عبد الملك وأقول : ما تقولون في رجل لم يقل قط بعد اقضاء خصومته وذهاب خصمه : لو كنت قلت كذا كان أفضل ، أو كنت لم أقل كذا كان أمثل ، فإل غفوه أكثر من جهلكم وبديته أبعد من أقصى فكرتكم ؟ فلما رأيتك علمت أنك عذاب صبه الله على كل ربيع ، ورحمة أنشأها لكل وضع .

فخبرني ما كان بينك وبين هرمس في طبيعة القلب ، وعن سماعك من أفلاطون وما دار في ذلك بينك وبين أرسطاطاليس ، وأي نوع اعتقدت ، وأي شيء اخترت . فقد أبت تضي غيرك وأبت أن تستني إلا بخبرك ، ولولا أنني كلف رواية الاطويل ومغرم بحرفة الاختلاف ، وأنى أستجيز مسألتك عن كل شيء . وابتدأ لك في كل أمر ، لما سمعت من أحد سواك ، ولما انقطعت إلى أحد غيرك .

واعلم جلت فداك أني لم أرد بمزاحك إلا ضحك سنك ، ولا كانت غايي فيك إلا لأتق عندك ، وقد كنت خفت ألا أكون وقفت على حده وأشقت . من المجاوزة لقدرة . والمزاح باب ليس الخوف فيه التضمير ، ولا يكون الخطأ فيه من جهة نقصان . وهو باب متى فتحه قاتح وطرق له مطرق لم يملك من سده مثل الذي يملك من فتحة ، ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم من نفسه ، لأنه باب أصل بنائه على الخطأ ، ولا يخاطبه من الأخلاق إلا ما سغف ، ومن شأنه التزيد وأن يكون صاحبه قليل التحفظ ، ولم نر شيئاً أبعد من شر ولا أطول له صحة ولا أشد خلافاً ولا أكثر خطأ من الجد والمزاح والمناظرة والمراء . قال القساق ابن شور : ليس لمزاح مروءة ولا لمار حلة . وقال معاوية : المزاح هو الشار الأصغر ^(١)

(١) الشار : أفتح الباب والدار .

وقال الحسن بن حي : ألزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى . وغلب عمر
بعض العطاء^(١) فقال : ذاك رجل فيه دُعاة . وقال الشاعر : « وجد القول قد مه الزاح »
وقال الآخر « رب كبير ساقه صغير » وقال الآخر « رب جد ساقه اللب »
فإن كنت لم أقصر عن الناية ، ولم أتجاوز حد النهاية ، فبما أعرف من يمن
مكاتبك وبركة مكاتبك ، ومن حسن تعويك وجودة تقينك . وإن كنت
قد أخطأت الطريق ، وجاوزت حد القدار ، فما كان ذلك عن جهل بفضلك
ولا إنكار لحقك ، ولكن حدود الأشياء إذا خفيت ومتاديها إذا أشكلت ، ولم
يكن مع الناظر فيها مثل غمائك ، ولا مع المتكاف لها مثل كالك ، دخل عليه من
الخلل بقدر عجزه ، وسلم منه بقدر قاذه ، نعم ولو كان من العلماء الموصوفين والأدباء
للكورين .

ومن الزاح جعلت فداك باب مكر وجنس خدع يشكل المروءة بإساءته إلى
جليسه وإساءته لصديقه على أن يقول : مزحت ؛ وعلى أن يقول عند المحاكاة :
عبثت ، وعلى أن يقول : من يفضب من الزاح إلا كز الخلق ، ومن يرغب عن
المحاكاة إلا ضيق المعان . وبعد فتي أعدت النفس عذراً كانت إلى القبيح أسرع
ومنى لم تجده كانت عنه أبطأ . ومن أسباب الغاظ فيه ومن دواعي الخطأ إليه
أن كثيراً ممن تمازحه بضحك وإن كنت قد أغضبته ، ولا يقطع مزاحك وإن
كنت قد أوجسته ، فإن حقد في الحقد الماء ، وإن عجل فذلك البلاء .

فإن قلت : فما أدخلك في شيء . هذا سبيله وهكذا جوهره وطريقه ؟ قلت :
لأني حين أمنت عقاب الإساءة ووثقت شواب الإحسان وعلمت أنك لا تقص
إلا على العمد ، ولا تنذب إلا على القصد ، صار الأمن سائقاً والأمل قائداً . وأرى
عمل أرد وأرى متجراً ربح مما جمع السلامة والتسمية والأمن والثوبة . ولو كان هذا
ذنباً لكنت شريكاً فيه ، ولو كان قصيراً لكنت سبياً إليه ، لأن دوام التغافل
شبيه بالإهمال ، وترك التعريف يورث الإغفال ، والسفوف المتتابع والبشر النائم

(١) قيل أن القول فيه ذاك هو سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

يؤمنان من الكفاة وينهبان بالتحفظ . ولذلك قال عينة بن حصن لثمان بن عفان رضي الله عنه : عمر كان خيراً لى منك ، رهبنى قاتاني وأعطاني فأعنانى . فإن كنت اجترأت عليك فلم أجترىء عليك إلا بك ، وإن كنت أخطأت فلم أخطئ. عليك إلا لك ، لأن حسن الظن بك والثمة بفوك سبب فى قلة التحفظ وداعية إلى ترك التعرز .

وبعد ، فمن وهب الكبير فكيف يقف عند الصغير ، ومن لم يزل ينفو عن السد كيف يقاب على السهو ؟ ولو كان عظم قدرى هو الذى عظم ذنبى لكان عظم قدرك هو الذى شفع لى ، ولو استحققت عقابك بإقداى عليك مع خوفك لك لاستوجبت عفوك عن إقداى عليك بحسن ظنى بك . على آتى متى أوجبت لك العفو فقد أوجبت لك الفضل ، ومتى أضفت إليك العقاب فقد وصفتك بالأصاف ، ولا أعلم حال الفضل إلا أشرف من حال العدل ، ولا الحال التى توجب لك الشكر إلا أرفع من الحال التى توجب لك المبر . وإن كنت لاهب عقابى لحرمتى ضيعة لا ياديك عندي ، فإن النعمة تشفع فى النعمة ، فإن لم تصل ذلك للحرمة فافعله لحسن الأحدثه ، وإن لم تصل ذلك لحسن الأحدثه فد إلى حسن العادة وإن لم تفعله لحسن العادة فأت ما أنت أهله . واعلم آتى وإياك متى تحاكنا إلى كرمك قضى لى عليك ومتى ارتفعنا إلى عقلك حسن العفو عنى عندك . وفصل ما بيننا وبينك وفرق ما بين أقدارنا وقدرك أنا نسى . وتفر ، وتذنب وتستر ، ونسج ونقوم ، ونجهل ونعلم ، وإن عليك الإتيام علينا الشكر ، ومن صفاتك أن تصل ومن صفاتنا أن نصف ، فإذا ضلقت ما تقدر عليه من العقاب كنت كمن فعل ما يقدر عليه من التعرض ، وصرت ترغب عن الشكر كما رغبنا عن السلم ، وصار التعرض لعفوك بالأمن باطلا ، والتعرض لعقابك بالخوف حقا ، ورغبت عن التنبل والبياء وعن السؤدد والسناء ، وصرت كمن يشقى غيظا أو يداوى حقدًا أو يظهر القدرة أو يحجب أن يذكر بالصولة . ولم نجدكم أبداً الله يحمدون القدرة إلا عند استعمالها فى الخير ، ولا يذمون العجز إلا لما يفوت به من إتيان الجليل . وأنى لك بالعقاب وأنت

خير كلك ، ومن أين اعتراك المنع وأنت آتيت الجود لأهل ، وهل عندك إلا مافى طبعك ، وكيف لك بخلاف عادتك ، ولم تشكره شك على المكافأة وطباعها الصنع ، ولم تكدها بالثنافة ومنهجها الساعة ؟ فسبحان من جل أخلاقك وفق أعرافك وقولك وفق عملك ، ومن جل ظنك أكثر من يقيننا ، وفراستك أثبت من عياننا ، وعفوك أرجح من جهدنا ، وبداهتك أجود من تفكرنا ، وضلك أرفع من وصفنا ، وغيتك أهيأ من حضور السادة ، وعتبك أشد من عقاب الظلمة . وسبحان من جعلك تغفو عن المتمدد ، وتتجافى عن عقاب المصّر ، وتتأمل عن المبادىء ، وتصفح عن التهاون ، حتى إذا صرت إلى من ذنبه نسيان وتوبته إخلاص وهفوته بكر وشقيقه الحرمة ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، ولا الأنعام إلا منك ، ولا العلم إلا من تأديبك ، ولا الأخلاق إلا من تقيمتك ، ومن لم يقصر في بعض طاعتك إلا لا رأى من احتالك ، ولا نسى بعض ما يجب لك إلا لا داخله من تظيمك ، صرت تنوع بالصر وهو دليل كل بلية ، وتستعمل الإعراض وهو قائد كل هلكة . وقد علمت أن عتابك أشد من الصريمة ، وأن تأنيبك أغلظ من العقوبة ، وأن منمك إذا منبت في وزن إعطائك إذا أعطيت ، وأن عقابك على حسب ثوابك ، وأن جزعى من حرمانك فى وزن سرورى بفوائدك ، وأن شين غضبك كزى رضاءك ، وأن موت ذكرى باعطاع سبى منك كحياة ذكرى مع اتصال سبى بك ، ومالى اليوم عمل أنا إليه أسكن ولا شفيع أنا به أوثق من شدة جزعى من عتبك وإفراط هلمى من خوفك ، ولست بمن إذا جاد بالصنع ومن بالعمو لم يكن لصاحبه منه إلا السلامة وإلا النجاة من المهلكة ، بل تشفع ذلك بالمراتب الرفيعة والعطايا الجزيلة والعزفى الشيرة والمهية فى الخاصة والعامه ، مع طيب الذكر وشرف العقب ومحبة الناس .

وأما ذكرى القدر والخرط والطول والعرض وما بيننا وبينك فى ذلك من التنازع والتشاجر والتحاكم والتناظر ، فإن الكلام قد يكون فى لفظ الجد ومعناه معنى المزىل ، كما يكون فى لفظ المزىل ومعناه معنى الجد . ولو استعمل الناس الدعابة

بالشعاع الفاصل والشعاع يخالف في الحس، كذلك الحاس وكذلك المحسوس، وكيف نرى الخالف وكيف والشعاع لون وياض والنفس الحاسة لا تترك بشيء من الحواس وما الفرق بين الأسبان والاحلان وعن قول ماين السمون والحفرة.

وخبرني عن القرسطون كيف أخرج أحد رأسه ثلثة رطل زاد ذلك أم قص ووزن جميع ثلاتون رطلا زاد ذلك أم قص. وما تقول في السراب، وما تقول في الصدى، وما تقول في القوس، وما تقول في طريقة الحجرة، وفي طريقة الخفزة، وكيف اختلفتا والهواء واحد وما يقابلها واحد، وهل ذلك اللون حقيقة أم تخيل.

وخبرني عن لون ذنب الطاوس ماهو، أقول بأنه لا حقيقة له وإنما يتلون بقدر المقابلة أم تقول إن هناك لونا بيمينه والباقي تخيل! وما تقول في عس الماء كيف اشتد صوته بلا باب والصوت لا بد له من هوا، وإذا اشتد فلا بد له من باب، وما تقول في خضر السماء، أهو خضر جليها كما تقول، أم ذلك لحر الهواء كما يقول خصمنا؟ وهل تزعم أن الأفلاك ذات لون؟ فان كان لها لون فقد احتملت جميع الأشكال، وهذا خلاف ما يقولون. وإن لم تكن ذات لون فالسما إذا غير الفلك فهذا هذا. وقول أيضاً إن كنا لا نرى القرى المستطيلة البنيان المختلفة من البعد إلا مستديرة فلعل الشمس مملبة والكواكب مربعة. وما تقول في المد والجزر، أمن ملك يضع رجلا ويرفع رجلا، فان كان كذلك فلعل مدبر القلق ملك ولعل صوت الرعد صوت زجر ملك، فندع الفسفة وتأخذ بقول الجماعة، أم نزع أن المد والجزر من نفس الجوانب إذا جنب وإذا رفع! وما تقول في قول من زعم أن القمر مائي وأشبه الكواكب بطبيعة الأرض، فأما يكون الجزر والمد على مقادير جذبه للماء وإرساله له، ذلك معروف في منازلهم ومجاريه يعرف ذلك أهل الجزر والمد.

